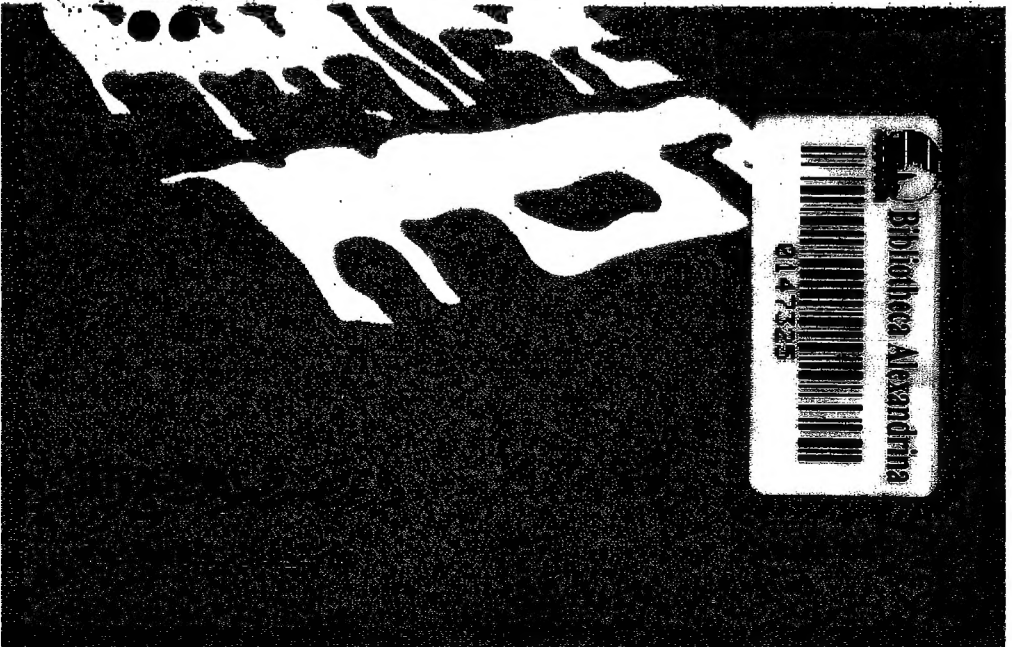


شروت أباطة

قصص على السند



شُرُوتُ الْبَاطِلِ

قَصْرُ عَلِيٍّ الْبَيْتِ

دار تحف مصر للطبع والنشر
القاهرة - القاهرة

(١)

فى استعلاء وكبر ، يقف قصر أحمد باشا شكرى • يشرف على النيل الذى يجرى من تحته فى تطامن وهدوء ، فإن رأيته حسبت أن النيل لم يجر إلا ليجعل هذا القصر على هذه الروعة وعلى ذلك البهاء • فهو فارع إلى السماء ، عريض ضخيم ، كل ما فيه يوحي إليك أن هنا مجدا قديما لا يزال جديدا ، وأن هنا عزا عزيزا ، وخيرا وفيرا ، وكرما عتيذا ، ورفدا وهناء •

يفصل القصر عن النيل حديقة منسقة ، ويصل القصر بالنيل سلم من الحجر يفضى إلى النيل ذاته ، إذا شاء سكان القصر أن يستعملوا قاربهم البخارى الراسى هناك ، خلصوا إليه بسلمهم هذا •

كان القصر إذن يفضى إلى النيل بهذا السلم : أما باب القصر ذاته ، فقد كان من الناحية المقابلة للنيل ضخما رائعا ، مفتوحا على مصراعيه طول اليوم ، لا يلتقى مصراعا إلا فى الهزيع الأخير من الليل •

كان الوقت أصيلا ، حين بلغ البوابة شاب فى مقتبل العمر ، قد يروعك منه أول ما تراه ، قوام مليء وطول فارع ، ولكنك إن أنعمت النظر فى وجهه وملابسه لم يروعك فى وجهه شئ من القسامة ، ولا راعك فى ملبسه شئ من الانسجام •

- سلام عليكم يا عم ادريس •
- وقام البواب واقفا في أدب :
- وعليك السلام يا بك ورحمة الله •
- الباشا نزل ؟
- والله يا بك لا أدري ، ولكن لا أظن •
- طيب انتظره حتى ينزل •
- تفضل يا سعادة البك •

ويدخل سليمان بك شكرى سراى عمه أحمد باشا ، كما تعود أن يدخل ، فالدار مكان مباح لأقارب الباشا ، يجلسون في أبهائها ، ويطلبون ما يشاءون من قهوة أو غيرها ، سواء كان الباشا موجودا أم غير موجود • فالباشا أب لهم جميعا وهم في داره أصحاب دار • ولم تكن هذه الأبوة من الباشا مقصورة على أقاربه الأذنين أو غير الأذنين ، وإنما كانت تتسع فتشمل كل شاب يعرف الباشا ، ويتصل به في معترك السياسة ، فالباشا من روادها •

جلس سليمان في حجرة المكتب ينتظر نزول عمه الباشا ، ولم يطل به الانفراد ، اذ سرعان ما دخل عليه ابن عمه وصفى ، وهو شاب حاصل على اجازة الحقوق جميل الصورة ، حسن السميت ، له شهرة واسعة في الأدب السياسى ، وقد استطاع أن ينجح في الانتخابات ، فتحدت مكانته السياسية ، وأصبح من النواب الظاهرين في مجلس النواب •

- أهلا وصفى •
- أهلا سليمان •• ألم ينزل عمى ؟

— لا والله لم ينزل بعد .. أراك باسما .. هل وراء ابتسامتك
خبر جديد ؟

— لا ، ولكنى لاحظت أنك تأتي هنا في كل يوم منذ عدت من
أوروبا .

— وأى عجيبة في ذلك .. ألا تأتي أنت كل يوم ؟

— نعم ، ولكن عشرة أيام متتالية لا تنقطع يوما .. ألا ترى أنها
غريبة بعض الشيء ؟

— يا أخى عشرة أو عشرين • ما شأنك أنت ؟

— لا شأن لى ولكنى ألاحظ وأبتسم .. ألا تعطينى حق الابتسام ؟

— الله .. أتظننى ساعد باشا وتريد أن تتعب قلبى أنا أيضا ..
لا يا حبيبى ، أنا لا أحب المناقشة ، ولا أحب السياسة ، ولا أحب هذا
الكلام المزوق الذى يخفى وراءه معانى أخرى .. أنا رجل مهندس ،
أضع قالب الطوب على الآخر فيتم البيت •

— واضح .. واضح .. فلو لم تكن مهندسا لما حشرت سعد
باشا والسياسة وقالب الطوب في ضحكة .. مجرد ضحكة !

— وبعد .. أما فرغت ؟

— يا أخى ، أنا لم أفتح الحديث ، وإنما أنت الذى فتحتة •

— فهل تسمح لى أن أقفله ؟

— على كيفك ، ولكن أريد أن أفتح معك موضوعا آخر •

— افتح ، ولكن ترفق بى وحياة والدك •

— لم أجلس معك وحدنا منذ عدت من أوروبا ، ماذا فعلت هناك ؟ .. ؟

- حصلت على دبلوم الهندسة •
- هذا أعرفه جيدا •• أقصد في حياتك الخاصة •
- أكاد أفهم •• وإن كنت غير متأكد من موضوع سؤالك ••
أتقصد •• ؟

— الحريم •

— الحريم ؟

— نعم •

— ليس هناك شيء اسمه الحريم •• ولكن ما الذى جعلك تدخل
من موضوع مجيئى هذا إلى موضوع الحريم ؟

— أتريد أن أقول السبب • وأذكر الحلة بين الموضوعين • أم تفضل
أن تتكلم أنت في السؤال من غير شرح منى لهذه الأسباب والصلات •

— لا • أفضل أن أتكلم في الموضوع • فأذا أعلم أنك طويل اللسان •

— عظيم •• قل • ما حال الحريم هناك ؟

— ليس هناك حريم • بل إن هناك نساء •

— لا أجد فرقاً بين الاسمين ••

— بل الفرق بعيد •• الحريم عندك وعند الرجعيين أمثالك نساء
محجبات • يضعن على وجوههن الستار الأسود • وإن كان قد أصبح
شفافاً • وهن عندك لابد أن يلبسن المعاطف • ويضعن على رءوسهن
القفازات • بل لعلك تريدهن محجبات باليشمك والخبرة • أما النساء
في أوروبا فأداة نافعة •

— ومن قال لك إن النساء في مصر أداة غير نافعة ؟

— تقصد نافعات في الطبخ وإخراج الأولاد وتربيتهم •

— وهل هذا قليل • وما الأطفال ؟ أليسوا هم رجال الغد ؟؟

— لا ، إن المرأة في أوروبا أقوى من ذلك وأنفع ، فصاحبات المواهب
يزاحمن الرجال في أعمالهم ، وهن مع السياسيين أمثالك يخرجن في
الانتخابات مع أزواجهن •

— إننا هنا نحترم المرأة أكثر مما يحترمها الغربيون ، نحن نراها
جوهرة يجب أن تظل بعيدة عن أيدي الطامعين ، وعن أنظارهم أيضا •

— فتحبسها ؟!

— ألم تكن لك صديقة في أوروبا ؟

— بل كان لى •

— أترضى لابنتك ، أو نزوجتك أن تكون صديقة لرجل ؟

— ماذا تعنى بالصدقة ؟

— أعنى الصداقة التى كانت بينك وبين فتاتك في أوروبا •

— يا أخى أعوذ بالله •• أعوذ بالله •

— ارايت •• أترضى أن تخطب واحدة تعرف أنها كانت تلتقى

بآخر •• لقاء بريئا ؟

— طبعا ، لا •

— فما هذا الدفاع الحار ؟

— عن الحرية •

— حرية المرأة هى الطريق إلى هذا الذى تأنف أنت منه ، لن ترى

المرأة إذ ذاك في الرجل ذلك الشيء المقدس الذى لا يمكن أن تلتقى به

إلا إذا كان زوجا لها ، والرجل أيضا سيفقد لذته بالمرأة في زوجته ،

ما دام يلتقى بالنساء في الطريق وفى العمل • سيجد كل منهما أنه من

الطبيعى أن يلتقى ، وإذا التقيا ••

— وما البأس إذا التقيا وتعارفا ثم تزوجا ؟

- الخشية أن يتزوجا قبل الزواج •
- فإذا كانا عاقلين واقتصر الأمر بينهما على اللقاء البريء ؟
- ما رأيك أنت ، إذ التقيت بفتاة وبادلتها حبا •• حبا شريفا ••
- انتزوجها بعد ذلك ؟•
- لا •• لا •• لا أظن •

- أرايت ، إننا نحب أن نثق بزوجائنا •• نحبهن لنا جميعهن ،
- بذكرياتهن وأحلامهن وآمالهن ، ولا نحب هذه الذكريات أن تبدأ إلا
- بعد الزواج ، فكل ما قبل الزواج لا نعترف به نحن الشرقيين ، حتى
- وإن كنا نحن الطرف الآخر فيه •
- ولكن يا أخى ••

- وقطع عم ذهب خادم الباشا الخاص النقاش ، وهو يفتح الباب
- قائلا في جد حازم :
- سعادة الباشا •

ووقف الشابان ينتظران قدومه ، وما هى إلا لحظات قلل ، حتى

أقبل الباشا مبتسما كعادته ، كان الباشا رجلا فى الحلقة السابعة من

عمره ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، سمح الوجه ، ترى فى وجهه

طيبة ، فإذا أنعمت النظر فى عينيه من وراء نظارته ، رأيت فيهما عمقا

وذكاء ولماحة ، مارس الباشا السياسة ومارسته ، وشهد أحداثها

وشارك فيها ، ولكنه أبى أن ينضم إلى حزب من الأحزاب ، بل كان

دائما يقف من هذه الأحزاب موقف الناقد الحر ، يؤيد هذا حيناً ،

ويهاجمه حيناً ، دون أن يبعثه إلى التأييد أو المهاجمة باعث شخصى ،

إلا ما يرى فيه صالحا للبلد • وقد اكتسب بهذا لنفسه احترام جميع

السياسيين ، كما اكتسب بهذا ذاته لنفسه كره جميع السياسيين ومن تبعهم ، فلم يكن له بين الشعب مؤيدون ، وهكذا كان دائما ، بعيدا عن الحكم ، إلا إذا جاءت وزارة محايدة ، أو وزارة مؤقتة ، فهو إذن عضو من أقوى أعضائها شخصية ، ومن أوسعهم نفوذا •

دخل الباشا الغرفة ، وحيا ولدى أخويه وجلس دون أن يلحظ أنظار وصفى التي كانت مشدودة إلى النافذة المطلة على الحديقة ، ولم يلحظ وصفى أن عمه قد جلس وأنه قد آن له أن يجلس هو الآخر ، وإنما ظل شاخصا إلى تلك المرأة التي دلفت إلى الحديقة تحمل فوق رأسها بقجة مصرورة ، تهدلت جنباتها فوق رأسها ، إنها أم وديدة تحمل الأقمشة التي تعرضها على حريم الدار ، وتحمل أيضا موافقته على موعد الليلة •• وأفاق وصفى من سرحته على صوت عمه ينبهه ••

— خير يا سي وصفى ، أراك سارحا ، أترك تفكر في خطبتك الجديدة ؟

وارتج وصفى لكلمة الخطبة ، وصحا إلى عمه يسأله في جزع وحيرة :

— أي خطبة •• أي خطبة يا عمي ؟

— يا أخي ، أنا قلت خطبة ، أقصد خطبتك في مجلس النواب ، ألا تنوى مهاجمة أحد غدا ؟

— والله يا عمي ، سعد باشا أصبح رجلا عسيرا على المهاجمة ، فهو منذ تولي رئاسة مجلس النواب ، وهو يعمل على ضم الكلمة •• لو كان سار على هذا النحو منذ أول عمله بالسياسة لأراحنا .
وقال الباشا باسم :

— الواقع أن العيب الأساسى فى سعد أنه استغل الدكتاتورية الشعبية ، وهى دكتاتورية تعطى لصاحبها سلطات واسعة ، وتجعله يعمل وكأنما هو وحده صاحب البلد •

— ولكنه فى هذه الأيام الأخيرة أصبح يستعمل الدكتاتورية الشعبية استعمالا معقولا •

— ما أحب إنينا أن يظل سائرا على هذا النحو ، مالك ساكتا يا سليمان ؟

— يا عمى أنا لا أفهم فى السياسة •

— آه صحيح •• نسيت هذا ، ونحن أيضا لا نفهم فى الهندسة ••
فما رأيك •• ابحث لنا عن موضوع نتكلم فيه •
فقال وصفى وقد هفت نفسه إلى مداعبة ابن عمه :

— كنا نتكلم قبل قدوم سعادتك عن المرأة فى الغرب ، والحريم فى الشرق ، ويظهر أن أخانا سليمان يخالفنا نحن اشرقيين فى أفكارنا عن المرأة •• قل رأيك لعمى •

وتقلص وجه سليمان واحتقن وتلجلج لسانه ، وأصبح لا يدري ما يفعل ، وضحك وصفى ضحكة مستورة ، فهو يعلم أن سليمان لن يستطيع أن يقول رأيه أمام عمه المعروف بالمحافظة ، وأحس العم أن وصفى قد ألقى بابن عمه فى مأزق دقيق فغير مجرى الحديث •

— هيه يا سى سليمان ، ماذا عملت فى المصلحة ؟

وقبل أن يجيب سليمان أدرك وصفى أن فى عينى ابن عمه حديثا آخر يريد أن يفضى به إلى عمه فى خلوة فخرج من الغرفة فى هدوء دون استئذان ، وأقفل الباب من خلفه ، وشكر سليمان لابن عمه هذا الادراك الدقيق ، وراح يجمع صوته ليسأل عمه فى حشجة :

— ماذا عملت لى يا عمى ؟

وكان الباشا يدرك تماما ما يقصد إليه السؤال ، ولكنه لم يشأ أن يجيب فى وضوح ، خشية أن يكون ما أدركه غير ما يقصد إليه ابن أخيه ، فهو يسأل :

— ماذا فعلت لك فيم ؟؟

— ألم تقل لى أنك ستسأل سهير ثانية إن كانت تقبلنى ؟

— سألتها ♦

— وبماذا أجابت ؟؟

— ♦ ♦ ♦

— لا شك أن فى رضا سعادتك كل الكفاية ♦

— يا أخى ، أنت تعرف أننى رجل محافظ ، وابنتى لا ترد لى أمرا .
ولكن الزواج شأنها وحدها ، ولا أستطيع أن أرغمها ♦ أنا سأتركها
بعد حين ، فبماذا تراها ستذكرنى إن أنا زوجتها بمن لا تريد ؟

— يا عمى نحن فى مصر لا نسأل بناتنا عن يتزوجن ♦

— ولكنى أنا أسأل ♦

— ♦ ♦ ♦

وأحس الباشا أنه أغلظ على ابن أخيه ، وأدركته عليه الشفقة ،
ولم يشأ أن يجمع عليه الرد الخشن ورد خطبته فى آن ، فهو يقول
له فى تطلف :

— أمثلك ، وأنت المتعلم فى أوروبا ، يقول هذا الكلام ، وماذا أعمل :

إنى ألححت عليها ولكن بلا فائدة ، ولم أشأ أن أرغمها أرغاماً حتى

لا تقوم الحياة بينكما على أمر. جاف صدر منى ، على كل حال أترك
لك فرصة أخرى •

— أمرك يا عمى •

— طيب يا سيدى •

وأدرك سليمان أنه لم يعد ما يدعو لبقائه ، فقام وقد اكفهر وجهه ،
واستأذن عمه وخرج •

لم يكن سليمان جميلا ، ولكن ما أصابه في زيارته تلك زاده قبحا ،
فلو قدر له أن ينظر في مرآة حينذاك ، لما تما لك نفسه عن أن يقول :

— نعم ، إنها محقة أن ترفضنى ، ولو كنت أنا امرأة • • ولو كنت
حتى امرأة فقيرة ، ولست ابنة باشا ، لو كنت ، ونظرت إلى هذه
الخلقة لرفضت الزواج بصاحبها •

كان خليقا أن يقول هذا لو إنه نظر إلى مرآة ، ولو أنه أصاب
بصيصا من ضمير ولكنه — والحمد لله — لم ينظر إلى مرآة ، ولم
يصب شيئا من ضمير ، فهو ينقلب إلى بيته ، لا يفكر إلا في هذه الثروة
التي يوشك أن يفوتها عليه ذكاء بنت عمه ، وقبح خلخته •

(٢)

خرج وصفى من الحجرة وأغلق الباب من خلفه ، ولكنه لم يقصد إلى الباب الخارجى للمنزل ، بل هو يقصد إلى الحديقة الخلفية يتمشى فى أنحائها رويدا ، وكأنما لا يهدف لغير الاستمتاع بضوء القمر الذى ينسكب على الحديقة ، حتى إذا بلغ السلم المؤدى إلى النيل ، نزل عليه فى سرعة ، وفى لحظة أخفاء الجدار الأبيض القائم هناك عن الحديقة والمنزل جميعا •

هنا المرعد •• موعده مع سهير •• ترى ماذا تخفى لهما الأيام •• إنها سهير بجمالها الرائع ، بذلك القوام الفارع ، وهذه الضحكة العذبة التى لا تغرب عن ثغرها •• ثغرها ذلك الحلو الذى يلقي الكلام رقيقا جريئا ، عميق المعنى حلو الرنين ، سهير بذلك الوجه الذى يميل إلى الطول فى امتلاء ، وبهذين الخدين الناعمين ، يشع فيهما زهو وثقة ، وبهاتين العينين ، وفيهما بريق أخاذ يكاد فى ضوء القمر ينسكب مع ضوء القمر •• إنها سهير بروحها تلك الحلوة وبحبها العنيف له •• ماذا تخفى لهما الأيام •• إنه لن ينسى •• لن ينسى يوم جاءته أم وديدة تهمس فى أذنه أن انتظر اليوم عند مرفأ القارب ، وكاد العقل يبرده ، ولكن الشباب دفعه •• وهناك التقيا فى أول يوم •• ومنذ ذلك اليوم لم تنقطع عنه أم وديدة بالموعد المهموس حينما ، أو بالموعد المكتوب حينما آخر ، وبين هذه المواعيد استقبل وصفى أسايب من السعادة لم يفكر يوما إنه سيلتقى بها • ولكن إلى أين ؟

إنه يحبها .. يحبها .. يجب فيها شبابه البكر ، ويجب فيها
أمسياتها الناعمة في ضوء القمر : أو في ضوء المصباح المعلق على
القارب ، يجب فيها استيقاظ القلب الأولى ، وصحوة النبضات
الناعمة .. يحبها ولكن إلى أين .. أزواجاً ؟

نعم هو يعلم أن عمه لن يتردد في قبوله ، وهو يعلم أنه جدير
بها ، وهي جديرة به . ولكن الزواج ؟ ! ماذا ما شغلتنى الحياة ، وإذا
انصرفت عن الحب حيناً إلى ذلك المعتكز الضخم الذى ألقيت بنفسى
فيه .. ماذا تعمل سهر .. ولكنه يحبها .. بل هو لم يعرف للحب
معنى إلا هنا .. هنا .. هنا بجانب هذا القارب وعلى ضفاف هذا
النيل ، وفي ظل هذا القصر ، وفي ضوء هاتين العينين .. عيني سهر .
يحبها : وهي تحبه ولكن الزواج ثمة .. أجننت ؟ ألا تثق بابنة
عمك ؟؟ .. أثق .. أجننت ؟ لم أجن ألم تسع هي إلى هذا
الموعد ؟ ولكن هذا لم يكن إلا من أجلك أنت .. أنت وحدك ، من أجل
شبابك الريان : ومن أجل جمالك هذا ، من أجل عينيكَ الرائعتين ،
وشفتيك الرقيقتين يعلوهما ذلك الشارب الذى تعنى بتجميله . ومن
أجل شعرك الأسود تحت طربوشك المسائل ، يا لك من غر !! أتذكر
جمال سمكك ألسنت رجلاً ، نعم .. إني رجل .. رجل عظيم كاتب ،
أديب سياسى يخشى كبار السياسة قلمه ولسانه ، وأنا رجل وطنى ..
أحببت وطنى وهاجمت أعداءه ، وأثرت القلق في نفوسهم فقبحوا
على مرات فما زادنى هذا عند وطنى ومواطنى إلا إعزازاً وحباً ،
وأنا أيضاً عضو بمجلس النواب .. وأصغر النواب سناً ، وأنا أيضاً
غنى . وأبى باشا مثل أبييأ .. نعم فما كانت لتسعى إلا إلى .. إلى
أنا بكل هذه الأمجاد التى تجتمع في .. ولكن ؟! ولكن ماذا أيها

العربيد ، ألتقتى بها وتبثها الهوى وتقابل هواها ثم تتردد • نعم إنى
أتردد •

إنها قد تسعى إلى غيرى كما سعت إلى •• بل إن أمى قد ألفت إلى
فيما ألفت أن كلاما غير كريم يدور حول سهير • أليس بحسبى هذا
الكلام حتى لا أتزوجها •• ومتى رأيت الناس يصدقون ، لعلمهم وشاة
يكذبون ، ولكن الشرف سمعة ، وكرامة الفتاة منوطه بسمعتها ،
فما للناس يتحدثون عنها ولا يتحدثون عن فتاة أخرى • لعلمهم ينفسون
عليها جمالها وغناها •• كم من الفتيات جميلات وذوات غنى ولا نسمع
عنهن شيئا •• لا بد انها هى التى أتاحت الفرص لهذا الحديث أن
يدور •• ثم •• أليس فى لقاءها بى ما يدل على أنها جريئة لا تراعى
التقاليد •• ولكنها تلتقى بك أنت وحدك •• لا •• إن من تقبل أن
تلتقى بى لا ترفض أن تلتقى بآخر •• الزواج أمر خطير ، قد لا أفرغ
لها •• قد تشغلنى السياسة ، فما يمنعها أن تواعد آخر كما تواعدنى ••
لا •• لا •• لا أستطيع •• الزواج •• الزواج !

إن أمى محقة حين فكرت أن تخطب لى هند بنت اسماعيل باشا
مصطفى • ومن أدراك أن هذا لا تلتقى بابن عم لها كما تفعل سهير ؟
أيها المتشكك •• وكيف لهند أن تلتقى وهى فتاة صغيرة لا تزال فى
أكمام الصبا لم تعده إلى الشباب •• تلك هى الزوجة •• تربية تركية
صارمة ، تخرج من يد المربية إلى يد الزوج . بلا لقاء ولا مواعيد
ولا أقارب فى النيل ، ولا ستار من جدار أو ليل ولا أم وديدة حمالة
المواعيد • ولكن سهير •• سهير •• ماذا أنت قائل لها ؟ ماذا أنت
قائل لها ؟

وحينذ سمع أقداما تقترب ، وسرعان ما بدت سهير على رأس انسلم

وراحت تجوس الحديقة بنظرها هينها ، ثم نزلت السلم في سرعة
محاذرة أن يصدر منها صوت واستقبلها وصفى :

— تأخرت •

وضحكت سهر وهي تقول :

— انتظرت حتى خرج أبى •

— عمى خرج ؟

— نعم •• ظلت أرقب باب الخروج ورأيت الباشمهندس الثقيل
يخرج ، ثم خرج أبى بعده بقليل ومعه عبد البديع أفندى كاتب
الزراعة •

— أنت تظلمين سليمان !

— أعوذ بالله •• لا تذكره لى •

— ولماذا ؟

— يا أخى هذا كارثة •• مصيبة •• بلوى •

— لماذا •• لماذا هذا كله •• هل جلست معه ؟

وتضحك سهر وهي تقول :

— نعم يا سى وصفى ! •• كيف أجلس معه ؟ •• أأقابل الرجال ؟

وابتسم وصفى وهو يقول :

— وما أنا ؟ هل أنا ست ؟

وابتسمت سهر ، ولمع في عينيها بريق وهي تنظر إلى وصفى نظرات
عميقة جعلت الزهو يملكه ويروح يحاول أن يخفيه بالرجوع إلى
الحديث عن سليمان ، فقد كان ذمه يرضيه ويرتاح إليه كما يرتاح
لديح بسمعه عن نفسه •

— فكيف عرفت أنه كارثة ومصيبة وبلوى ؟

— أوه •• يا أخى ، أترك سيرة هذا اللوح •



ويقهقه وصفى قهقهة توشك أن تعلو ، لولا أن تسارع سهير فنضع
يدها على فمه فيقبلها ويمسك بها ، ويعيد سؤاله وهو ما يزال محتضنا
يدها بيديه :

— كيف عرفت أوصافه هذه ؟

— يكفي أن هذه رابع مرة أرفضه ، وهو يصر على طلبى ..

— رابع مرة ؟

-- طبعاً ، عد معى ، مرة قبل أن يسافر ، وأجابه أبى دون أن يسأل
رأبى بأننى ما زلت صغيرة ، ومرة وهو مسافر بخطاب لم يرد أبى
عليه ، ومرة أرسل أمه وسألنى أبى فرفضت ، وهذه المرة التى لا يزال
يلح فيها .

— واللله مكافح .. من يعلم لعله ينال أمنيته .

وانتفضت سهير جازعة ، وانحبس صوتها وهى تسأل فى لهفة
جازعة :

— ماذا .. ماذا تقول يا وصفى ؟

وأطلق وصفى ضحكة صغيرة وهو يقول :

— يا ستى أنا أضحك .. ألهذا الحد تكرهينه ؟

— بل لهذا الحد أحب غيره .

واغرورقت عينا وصفى بالدموع ، ولم يجد شيئاً يفعله إلا أن يميل
على يد سهير ، يقبلها فى خشوع حائر ، وفى قلق مرير ازأحهته
سهير لما صبرت أن تلقى بنفسيها إلى النيل ، وأوشكت سهير أن تميل
على رأسه تقبله وهو مكب على يدها ، ولكن ردها عن ذلك كبر لم
يمحه الحب ، ورددها عن ذلك أن صعد إليها وجه وصفى والدموع
تتغشاه بعد أن فاض منها سكب" على يدها .

(٣)

عاد وصفى إلى منزله أول الليل . وجلس إلى أمه التي استقبلته
وقد رست على فمها ابتسامة . أدرك وصفى أنها تخفى وراءها أمراً •
ولم يشأ وصفى أن يستعجل أمه لنتهى إليه ما تخفيه ابتسامتها . فهو
يعلم أنها سرعان ما تقضى إليه بما تخبئه •

كانت السيدة اجلال أم وصفى سيدة فى الحلقة السادسة من
عمرها ، تركية المولد وانفشاء ، وكانت بيضاء الجبين . لم يخط الزمان
على وجهها خطوطا كثيرة . وإنما تركت صفحة وجهها صافية يلحم فيها
البشر ، فقد عاشت مع المرحوم زوجها عيشة رضية . فلم يتزوج عليها
ولم يشتر جوارى أخريات شأن أمثاله من الأغنياء وإنما أفردا بحبه
وعنايته ومنزله • ولكن هذا جميعه لم يستطع أن يمحو من عينها وميض
قلق ألم بها منذ اختطفها اللصوص وهى طفلة تلعب فى مدارج الحبا ،
وأتوا بها إلى مصر حيث بيعت بيع الرقيق إلى جد وصفى الذى زوجها
لولده أدهم باشا شكرى • لا ، لم تمنح الأيام من عينها هذه النظرة
القلقة ، ولم يستطع أدهم باشا بكل حذبه عليها وحبه لها أن يزيل هذه
الآثار الدارسة من بقايا القلق التى ارتسمت فى عينها منذ ذلك الحين
البعيد • ولم تتجب اجلال هانم لزوجها غير وصفى ، فحمد ربه على
ما أعطى ، وعاش لا يرجو من دنياه إلا أن يمد الله فى عمر ولده ويحفظه
من شر العاديات •

وكان وصفى خليقا، أن يميع منتها فرصة انفراده بأبوة أبيه وبنوته له لولا أن اجلال هانم أدركت ما يحيط بالفتى من خطر ، فقامت على شأنه في قسوة رحيمة وحزم واع ، وهياً له أبوه مناهل العلم ومجالس العلماء ، فشبه الفتى قويم الخلق واللسان ، أدبيا محبا للعلم ، وصار إلى مكانه المرموق هذا مدركا أن الفضل في ذلك يرجع إلى أمه وأبيه •

وحين انتقل أبوه إلى جوار ربه عاش الفتى وليس له أرب في بيته إلا أن يرضى أمه فلا تفتقد شيئا كانت تجده أيام أبيه • • اللهم

إلا فقدانها لزوجها ، وذلك الذي لا يعوضه مال أو بنون •

لاحظت اجلال هانم أن وصفى لم يحفل أمر ابتسامتها التي وضعتها على فمها حين أقبل ، فوسعت الابتسامة مرة أخرى عساه أن يسألها ، فقد كانت تدبر الحديث في ذهنها قبل أن يأتي ولدها ، وكانت تريد أن يسألها « ماذا وراء ابتسامتك » حتى ترد سؤاله بما تريد أن تخبره به، ولكن ها هو ذا ابنها يأبى أن يسألها ولا تعرف هي كيف تبدأ الحديث •

وأدرك وصفى أنها تريد أن يسألها عما تخفيه ، وشاء أن يداعبها بصمته فسكت لا يسألها • وطال الصمت بهما وازدادت الابتسامة اتساعا ، وازاد وصفى تشاغلا عنها حتى ضاقت الأم آخر الأمر •

— أما انك بارد !

وضحك وصفى وهو يقول :

— لماذا يا أمي ؟

— أما ترى أنى أبتسم وأبتسم ، أما ترى أننى أريد أن أقول

شيئا ؟ !

— فما يمنعك يا أمي أن تقوليهِ ؟

- لأنك لا تسألنى عن سبب ابتسامتى •
- ألا بد أن أسألك حتى تخبرينى •• أنا أعلم أنك لن تسكتى أو تقولى ما بعث هذه الابتسامة الخطوة الى شفيتك •
- والله لأسكتن فلا أخبرك •
- ولماذا يا أمى ، أنا أعرف أنك تريدين أن تخبرينى عن خبر هام ، فلا تضايقى نفسك وقولى الخبر •
- أنا أضايق نفسى ، إنه أنت الذى يتوق إلى معرفة ما أخفيه •
- أنا يا أمى !
- نعم أنت ولكنى لن أخبرك •
- حسنا •• نعمل تجربة ، الذى يتكلم أولا يدفع للآخر خمسة جنيهاً •

- أما انك بارد !
- هيه •• ما رأيك •• نعمل تجربة •
- طيب •• سنرى •
- وسكت الاثنان وقد ازدادت الابتسامة اتساعا على وجه اجلال هانم ، حتى لتوشك أن تنفجر عن ضحكة مرحة فرحانة • ولم يطل بهما الصمت بل تلفتت اجلال هانم حولها وهى تقول :
- أين كيسى •• ها هو ذا ••
- وفتحت اجلال هانم كيس نقودها وأخرجت منه خمسة جنيهاً وقالت لابنها :

- خذ واسمع •
- وراح الاثنان يقهقهان فى مرح ، ثم قالت اجلال هانم :
- احزر من زارنى اليوم •
- حرم اسماعيل باشا مصطفى •

وفغرت الأم فهاها عاجبة من ولدها هذا الذى حيرها •
— وكيف عرفت ؟

— عرفت من ابتسامتك الأولى •

— طيب هات الجنيهاات الخمسة •• أتضحك علىّ يا ولد ؟

— وفيم أضحك عليك ؟

— أتكون عارفا بالموضوع كله وتدعى الجهل به ؟

— يا أمى •• وهل لك عمل منذ قبلت أن تخطبى لى هذا بيت .

اسماعيل باشا مصطفى ، وهل لك حديث إلا عن الخطبة ، وعن صداقتك

لسمية هانم منذ أيام الطفولة ، وعن فرحك لهذا النسب الجديد •

يا أمى اننى أعلم أنك لا تحملين أخبارا إلا هذه ، فمنذ فتحت هذا

الموضوع وأنت لا تتحدثين عن شىء آخر •

— آه لئيم •• هات الفلوس التى أخذتها •

وتقال وصفى جادا :

— وماذا قالت لك سمية هانم ؟

— أ رأيت •• انك أنت الذى تتوق إلى هذا الحديث •

— على كل حال لا بد لى أن أعرف •

— يا سيدي ، الباشا وإفق وهو مسرور جدا ، وقالت لى أنه

منتظرك غدا لتحدد موعد الخطبة •

وقال وصفى فى شىء من القلق :

— غدا ؟

— غدا •

— بهذه السرعة ؟

— وما المانع ؟

وسرح وصفى بنظرة وهو يقول :

— نعم •• صحيح •• ما المانع ؟

(٤)

وإندفع وصفى فى تيار رغبة عنيفة أن يتم زواجه هذا ، لقد كان يخشى الأيام ، أو هو يخشى نفسه أن مرت عليه الأيام ، كان قد وصل إلى قراره هذا بعد تردد ، وكان العقل وحده هو الدافع إلى هذا الزواج ، كان يريد زواجا مستقرا غير مفزع بأشباح من الماضى ، وخيالات من رعونة الشباب •

كان يعلم أن قلبه نافر من زواجه هذا إلى هواه الأول ، وكان قلبه الشاب قوى النبض ، عنيف الحجة ، ولكن استطاع فى لحظة أن يضع حول قلبه سياجا من المنطق ، فخفت النبض هونا ، وإنبعث وصفى فى غفوة من قلبه يتم الزواج ، فى اندفاع خائف ، وفى سرعة قلق ، وفى عزم حيران •

يصبح الصباح فيندفع وصفى إلى التليفون يطلب إلى العاملة أن تصله بمنزل اسماعيل باشا مصطفى ، وبعد هنيهة يكون وصفى على موعد أن يلتقى بالباشا فى منزله فى الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم ذاته •

وفى الساعة الخامسة يكون وصفى قد أخذ مكانه من اسماعيل باشا مصطفى ، والباشا يرحب به فى اجلال فهو يعرفه من زمن بعيد ، ويلاحقه كاتباً وسياسياً ، ويحمل له فى نفسه إلى جانب الحب اكباراً • وقد كان وصفى عالماً بمكانه من نفس الباشا ، ولكن علمه لم يمنع الخجل أن يلعثم لسانه بعض الحين •• بعض الحين فقط ، ثم سرعان

ما جرى الحديث فيما قدر له أن يجري وسرعان ما تحدد موعد الخطبة •• وصفى متعجل والباشا مسرور بهذا التعجل ، وصفى يخشى أن يطغى عليه قلبه إن تراخى الموعد ، والباشا يظن تعجل وصفى عدم صبر عن لقاء عروسه •

وانتقت الرغبةتان وإن اختلفت البواعث والظنون • وانتهى الحديث، واستأذن وصفى وخرج • وعند باب المنزل التقى وصفى بأم وديدة تحمل فوق رأسها بقجتها ، فحيها تحية عابرة ، وانصرف عنها باهتة ذاهلة إن لم يمل وصفى على أذنها ولم يتح لها أن تميل على أذنه •

ركب وصفى عربته وأمر السائق أن يسعى به إلى بيت عمه أجمد باشا ، وما إن أتم إصدار أمره حتى صكت حوافر الخيل مسامع أم وديدة وهى فى طريقها إلى باب الحريم •

(٥)

كانت حجرة المكتب في بيت الباشا خالية لا يشغلها إلا كاتب زراعتة عبد البديع أفندى الذكر شاب يفتتح الحلقة الثالثة من عمره ، صورة قوية المعالم للفلاح المصرى ، مغلفا بعبادات الريف ، لم ينزع من غلافه شيء ، لن تخطئ عينك حقيقته ، ولن تخدعك منه هذه الحلة التى يضعها على نفسه كلما اقتضت الأعمال أن يزور الباشا فى المدينة . فقد شب فى القرية ، وفى مكتب الباشا ، يتلقى عن أبيه أحمد الذكر فنون حساب الدوييا ، ومحاسبة الأنفار ، وصرف انتقاوى والسماذ ، وظل بالقرية ويمكتب الباشا عمره جميعه حتى مات أبوه ، فتولى هو عمله .

ولم يكن مجيئه هذه المرة فى عمل ، وإنما جاء ليستأذن الباشا أن يكمل نصف دينه بالزواج من خطيبته التى خطبها له أبوه منذ هو طفل ، ومنذ عروسه وليدة ، أنها ابنة عمه « محبوبة » .. محبوبة العمر كله .. كم يشفق إليها .. إلى الزواج بها ، وإلى أن تخلو بهما حجرة ، ويقفل عليهما رتاج . إنه يحبها ، ويخفق قلبه لرؤيتها ، وتصور الدماء فى عروقه حين يلتقى بها وقد ألفت على رأسها خمارها الأسود . وهو منذ يومين لا يطيق صبرا ، فقد رآها فى صحن دارها ، وقد لبست جلبابها الأحمر الفهفام الذى لم يكن قد رأى منه إلا طرفه الأقصى حين كان يتدلى تحت جلبابها الأسود ، رأى الثوب جميعه ، رأى ظهره ، ورأى أكمامه وقد انشمرت عن ذراعيها .. ذراعيها هى ،

بل لقد رأى أيضا ساقياها تحيطان بالطست رأى ذلك جميعه حين ولج بيت عمه الذى كان مفتوحا •• رأى محبوبة فتملاها مليا ، حتى إذا أحس أنها توشك أن تلتفت خلفها سارع عائدا بظهره إلى باب الدار ، ومن هناك قال :

— يا سائر •

وقامت محبوبة عن الغسيل ، ومن وراء باب حجرتها قالت وهى تدرك من المنادى :

— من ؟

— أنا عبد البديع يا محبوبة •• عمى هنا ؟

— لا •• خرج •• تفضل •

— لا •• استأذن انا •• سأعود إليه فى العشية •

هو منذ تلك اللحظة لا يطيق صبرا ، ولولا أن الأعمال كانت متراكمة لركب القطار إلى الباشا لحظة ترك محبوبة ، ولكنه صبر نفسه يومين بغير نوم ، لقد كانت ساقا محبوبة وذراعاها تطارده فى النوم والصحو على السواء حتى لقد خشى أن يخطئ فى الحساب فجاء •• جاء منذ الأمس ، ولكنه لم يستطع أن يحادث الباشا فقد كان جالسا طوال الوقت إلى ولدى أخويه فلم يره إلا . وهو فى طريقه إلى السيارة ولم يتسع الوقت إلا لأن يسأله الباشا سؤالا عاما عن حال الزراعة ، ثم طلب إليه أن يبيت إلى الغد • وبات ليلته فى بيت الباشا ، وخرج فى الفجر ليصله حاضرا فى سيدنا الحسين وحين عاد كان الباشا قد خرج • ثم ها هو ذا ينتظره وقد اقتربت الساعة من السادسة وأنه يخشى أن يبيت هذه الليلة أيضا دون عودة إلى القرية •• إلى محبوبة •

هكذا كان يفكر عبد البديع حين ففتح الباب ودلف إلى الحجرة
لسليمان • وقام عبد البديع في أدب بالغ ، وقد اشتعل في نفسه كره
عنيف لسليمان ، غقد كان يريد أن يحدث الباشا على انفراد ، والآن
لم يصبح هذا الانفراد ميسورا ، ولكن هذا لم يمنع عبد البديع
أن يقول :

- مرحبا سعادة البك •
- أهلا عبد البديع أفندى •• لى زمان لم أرك •• كيف حالك ؟
- الحمد لله يا سعادة البك •• أطال الله عمرك •
- كيف حال الزراعة عندكم ؟
- ماشية يا سعادة البك •• بركة الباشا كبيرة ••
- كم يرمى الفدان ؟
- من القطن يا بك ؟
- نعم •
- خمسة •
- فقط ؟
- نعم •
- والقمح ؟
- من خمسة إلى ستة أراذب •
- فقط ؟
- نعم يا سعادة البك ، طيب ، والله إن أرضنا تنتج أحسن
محصول فى الجهة •
- لا •• لا يا عبد البديع أفندى •• لابد أنكم لا تحسنون
الخدمة •

- يا سعادة البك الحال عندنا لا يقاس بالحال في اوربا •
- ولم لا ؟
- لا حول ولا قوة إلا بالله • • هناك أوربا • • وهل أوربا يا بك ،
مثـ العواسجة • • شتان يا سعادة البك • • شتان •
- المسألة خدمة أرض فقط • • لو خدمت الأرض أعطتك •
- إنها أرض عمك وأرضك بجانبها • • أوصل لنا في مرة وأرشدنا ،
ونحن ننفذ أوامرك •
- وقبل أن يجيب سليمان ، يفتح عم ذهب الباب قائلاً في لهجته
الحازمة :
- سعادة الباشا •
- ويدخل الباشا إلى الحجرة ويسلم على سليمان وعبد البديع أفندي ،
ويقعد ، ويقعد سليمان ، وينظر الباشا إلى عبد البديع منتظراً أن
يخرج ولكن عبد البديع يقول :
- سعادة الباشا يسمح لي •
- ماذا ؟
- كلمة صغيرة ، فإنني أريد أن أسافر الليلة إن أذن سعادة
الباشا •
- ويتلمل الباشا في كرسيه ، وينظر إلى سليمان راجياً أن يفهم
ويترك الحجرة ، ولكن سليمان لم يتحرك من مكانه ، فلم يجد الباشا
مفراً آخر الأمر من أن يقول لابن أخيه :
- اتركنا دقيقة يا سليمان •
- أمرك يا عمي •
- ويقوم سليمان خارجاً قادماً على عبد البديع أن يخفى عنه

سرا ♦♦ فقد كان يحسب أنه يريد محادثة الباشا في شأن من شئون الزراعة ، وقد كان يجب أن يعرف كلا شئون الزراعة ♦♦ زراعة عمه الباشا بالذات ♦

قال عبد البديع في لجلجة :

— أطال الله عمرك يا سعادة الباشا وأبقاك ♦♦ سعادة الباشا يعرف أنني خاطب لابنة عمي محبوبة منذ زمن بعيد ♦
وقاطعه الباشا :

— عظيم ♦♦ عظيم ، وتريد أن تتزوج ؟
— أطال الله عمرك يا سعادة الباشا ♦
— طيب اكتب أمرا إلى نفسك أن تصرف خمسين جنيهًا
تتزوج بها ♦

وسمع عبد البديع الرقم فتحجرت عيناه هنيهة ، ثم فاض منها دمع فرحان ، فما كان يطمع في غير عشرين ، وانكب عبد البديع على يد الباشا متشبثا بها ملقيا عليه بغمه ، ولكن الباشا يختطفها منه في حزم :

— ماذا جرى يا عبد البديع ، متى رأيتني أسمح لأحد أن يقبل يدي ♦♦ أستغفر الله يا ابني ، واستغفره أنت أيضا ♦♦ اذهب يا ابني ♦♦ أنت ابني ♦ اذهب بارك الله لك في زوجتك وبارك لها فيك ♦

وقال عبد البديع والدموع تجري على خديه :

— وبارك لنا فيك يا سعادة الباشا ، وأطال عمرك ، ولا أرانا فيك
سوءا أبدا يا سعادة الباشا ♦

وخرج عبد البديع ونادى الباشا :

— يا سليمان ♦♦ يا سليمان ♦

ودخل سليمان الحجرة . وتبعه وصفى الذى كان قد وصل لتوه ، وجلس كلاهما إلى الباشا وقد غشيهم الصمت ؛ أما الباشا فمفكر فى عبد البديع وفى زواجه مقارنا بينه وبين ابنتيه اللتين تعقدان الزواج تعقيدا يوشك أن ينتهى بهما إلى بوار . ومفكر أيضا فى سليمان هذا وفى وصفى ؛ فقد كان يتمنى أن يخطب وصفى إحدى ابنتيه ، ولكنه صامت لا يبين عن رغبة . ولا تبدو منه بادرة تفكير ، ولو كان يطيق أن يرفض سليمان دون الرجوع إلى ابنته لفعل حتى يضمن بعده عنها ولكن لا يستطيع فهو ابن أخيه وإن كان فقيرا ، ويخشى أن يرفضه فتغضب الأسرة جميعها . فقد استقر العرف بينهم ألا يكون المال سببا فى قبول أحدهم أو رفضه . فكلهم أسرة ، وكلهم سواسية ؛ لا يرفع المال واحدا منهم ولا يخفض آخر . ولكن الحمد لله . فان سهير ترفض وتتمسك بالرفض وما يظنها تقبله أبدا . فان وجهه هذا — وهو يعلم أنها رأته من وراء الشباك — كفىل بأن يجعلها تزداد تمسكا برفضها له كلما عرض عليها .

وأما سليمان فقد كان يفكر نيتا فى عبد البديع أفندى لعمه وفى الثروة الضخمة التى يشرف عليها هذا العبد غير البديع ويتوق فى أعماق نفسه أن يشرف هو عليها . آه لو تقبله سهير .

وأما وصفى فقد كان يفكر فى الوسيلة التى سيلقى بها إلى عمه خبر خطبته . فقد كان يحب عمه ويقدره ؛ ولا يريد أن يسمع خبر الخطبة من غيره . وكان يعرف أن عمه يريد . لإحدى بنتيه ؛ جاهلا ما بينه وبين سهير . جاهلا أيضا أن هذا الذى بينه وبين سهير هو نفسه الذى منعه من التقدم للخطبة .

وهكذا صمت ثلاثتهم حتى فتح عبد البديع أفندى الباب وتقدم إلى

الباشا فى انحناء ، مقدما إليه إذن الصرف ، ووقع الباشا الإذن بين دعوات عبد البديع أفندى المتلاحقة ، والتفت الباشا إلى ولدى أخويه :

— باركا لعبد البديع أفندى ، فإنه سينتزوج •

وهنا الشابان عبد البديع أفندى الذى شكر لهما تهنئتهما وخرج ، ولحق به وصفى إلى خارج الغرفة ، وفى البهو انتحى وصفى بعبد البديع ناحية وأخرج من حافظته عشرة جنيهات أعطاها له ، وتابى عبد البديع هنيئة ، ثم قبل الهدية وهو يشكر وصفى ويدعو له ••

وعاد وصفى إلى الحجر ، فوجد الصمت ما يزال يأخذ مكانه بين عمه وسليمان • وكان الباشا قد أدرك ما دعا وصفى إلى الخروج ، وأراد أن يغمز سليمان فقد كان يريده هو أيضا أن يهدى كاتبه شيئا •• أى شيء مهما يكن تافها ليمكن لنفسه احترامها عند الخدم • قال الباشا لوصفى :

— ما كان لك أن تفعل ، فقد أعطيتك أنا خمسين جنيهًا • وتردد وصفى ثم قال :

— يا عمى أنا أعرف ذكائك الخارق ، ولكنى ما كنت أحسب أنك تعرف الغيب أيضا •

— لا غيب ولا حاضر •• لم يكن هناك ما يدعو لخروجك إلا هذا ، وأنا أعرف عنك أيضا أنك كثير العطاء •• وسع الله عليك يا ابنى • ولم يشعر سليمان بغمزة عمه وإنما شعر بحقده يزداد على عبد البديع لزواجه ، لنيله هذه الأموال فوق ما ينهبه من الزراعة • وشعر بحقده على وصفى يزداد أيضا لغناه ، ولأنه استطاع

بهذا الغنى أن ينال هذا الدعاء الجميل من عمه ، كما استطاع من قبل بغناه ومركزه أن يكون المرشح الأول فى إشاعات الأسرة للزواج من سهر *

وانتهز وصفى الفرصة النادرة من الحديث عن الزواج وقال لعمه :
— وأنا يا عمى سأزوج عن قريب *

ودهش الباشا ، وتسارعت الدقات بين صلوع سليمان *
ليس هذا أسلوبا يخطب به الفتى الفتاة إلى أبيها ، ولم يكن الباشا يقدر أن وصفى سيخطب غير واحدة من بنتيه * وانتفض قلب سليمان ذعرا متخيلا أن وصفى سيخطب سهر * ولم يتح وصفى لهذه المشاعر أن تبلغ مداها ، بل سارع قائلا :

— لقد خطبت اليوم هند بنت اسماعيل باشا مصطفى *
وتمالك الباشا نفسه فى سرعة قدرة من عيها فى مجالات السياسة والحياة وقال :

— مبروك *
ولم يستطع أن يزيد ، بل لم يستطع أن يشفع التهنئة بابتسامة *
أى ابتسامة مهما تكن باهتة * قالها مبروك * بريئة من كل فرح ، مجردة من كل معنى للتهنئة ، أما سليمان فقد جاهد نفسه أن يخفى فرحته وأطلق :

— مبروك *
تحمل سرورا عاتيا راقصا ، ولكنها مع ذلك لم تكن تحمل كل ما فى نفسه من سرور *

وأحس وصفى راحة إلى اللقاء هذا النبأ * راحة الحيران التائه يصل إلى مستقر ، مهما يكن هذا المستقر مخالفا لما كان يتمنى *

ولكنه مستقر على آيه حال * أحس أنه أتم عزمه .. وتغلب على قلبه ، واطمأن إلى مستقبله في ظلال بيت هادىء لا تدور فيه أعاصير الهوى ، وإن كان يتمنى أن تترقق فيه نسيمات من الحب الناعم ، تنمو ولا تدوى ، وتكبر مع الزمان ، ولكن في هدوء ووقار وإيناس *

ولم يلبث وصفى كثيرا .. فقد أحس بالصدمة التى يعانيتها عمه من خيبة الأمل ، وبالفرح الذى يعانى سليمان فى كتمانها أن أمله قد يتحقق *

وما ان بلغ وصفى الباب الكبير ، حتى التقى هناك مرة ثانية فى يومه هذا بأم وديدة ذاهلة حائرة ، تتخفى منه فى بقعتها ، وتميل عن طريقه فى ازورار .. وأحس وصفى فى أعماق نفسه كرها لأم وديدة .. كرها شديدا لم يعرفه لأحد من قبل .. انها هى .. هى وحدها التى فرقت بينه وبين هواه .. انها هى التى وضعت هذا الحائل بينه وبين سهير * وأدرك وصفى ان النبأ فى طريقه الى سهير مع بقجة أم وديدة ، وأحس حينئذ أن سهير ستحس هذا البغض نفسه نحو أم وديدة .. وأحس فؤاده يختلج فى صدره خلجه ، يطير الجريح .. انه سيجتمع هو وسهير على كره أم وديدة فى وقت معا ، كما اجتمع هو وسهير على حب أم وديده فى وقت معا *

(قصر على النيل)

(٦)

صعدت أم وديدة الى الطابق الأعلى وهناك لقيتها الأسرة جميعها بالترحاب وخاصة سهير التي راحت تدور حولها في فرحة نشوانة ، يبتعثها في نفسها هذا اللقاء الذي مهدت له أم وديدة في أمسهم الذهاب ولم يكن فرح سميحة أخت سهير بأقل من فرح أختها بأم وديدة ، فقد طالما كانت تهمس أم وديدة لسميحة أن أختها الكبرى ستتزوج عما قريب ، وعما قريب ستلحق هي بها وتتزوج من فتى أحلامها سامي الذي لا يمنعه عن طلبها إلا أن أختها الكبرى لم تتزوج بعد ، ولم يكن فرح الأم بأقل من فرح البنيتين ، فقد كانت أم وديدة تقرأ لها الفرجان وتطمئنها أن فرحين لا واحد سيقامان عما قريب ، بعد نقط ثلاث فقط ، في القصر • فيطمئن مضطربها القلق ، ويهدأ ثأثرها المفزع دائما بتلك القالة التي تشيعها أخوات بناتها من زوجة الباشا الأولى ، من سهير وسميحة ستظلان عانسين بلازواج •

راحت البنيتان تتواثبان حول أم وديدة ، جاعلتين السبب الظاهر لفرحتيهما أنها قد جاءت لهما بما طلبته كل منهما في الأمس من ملابس وأقمشة •

واستقبلتها السيدة تفيدة في فرح هادئ شارب في وجهها كله ، وأطل من عينيها الطيبيتين ومن صوتها وهي تقول بعد أن صفقت بيديها :

— يا بنت هاتي القهوة •

وواجهت أم وديدة هذا الاستقبال الفرحان بوجمة حزينة ،

ووجه شاحب كالثلج ، وعقل مذهب ، وقد وضحت آلامها جميعا
في صوتها وهي تقول :

— اعملى القهوة سادة يا نبوية •

واكفهر وجه الست الكبيرة وقالت :

— لماذا يا أم وديدة كفى الله الشر !

— والله يا ستى كنت عند جماعة وسمعت — ويا شوم ما سمعت

— حكاية — بعيد عنك — ومن ساعتها وأنا مضى داير وربنا يستر •

— خير يا أم وديدة ؟

وانطفأت الفرحة عن وجوه الأسره جميعها ، وارتمت الفتاتان
إلى الأرض بجانب أم وديدة ، واشربت إليها رأساهما ، وجف
فهما ، فما تطيقان كلاما : وما تطيقان صمتا •

— خير يا أم وديدة ؟

— والله يا ستات لا خير أبدا •• لا إله إلا الله •

وقلت السيدة تفيدة :

— يا أختى قولى ، نشفت ريقنا •

وخلست أم وديدة نظرة إلى سهر ، ثم أطرقت وصعدت تنهيدة
عميقة ، وقالت :

— لا حول ولا قوة إلا بالله •• كان بودى يا ستى سهر أن
يحمل غيرى الخبر ، ولكن لا عليك يا بنتى ، غيره أحسن منه •

وحملقت عينا سهر في أم وديدة ، وأوشكت أن تصرخ « وصفى »
ولكن أمسك بلسانها وجود أمها وأختها ، وأمسك بها استدراك

أم وديدة السريع بصوت رفعته حتى يطغى على ما قد ييدر من
سهير :

— وصفى يا ستى الكبيرة •• سيدى وصفى بك •

ودقت السيدة الكبيرة صدرها وهى تقول :

— ماله يا أم وديدة •• ماله وصفى ؟

وقفزت سميحة واقفة ذاهلة :

— ما لوصفى يا أم وديدة ؟

وبقيت سهير مكانها وكأنها تعرف أن وصفى بخير ، وكأن الأمر
لا يعنيه ، فهى مطرقة تشتعل نفسها بنيران من الغيظ والألم
والحسرة ، والكبر ذل من بعد كبر ، والكرامة أهينت من بعد
كرامة •

واستطردت أم وديدة :

— خطب يا ستى الكبيره •• خطب هند بنت اسماعيل باشا
مصطفى •

وتمالكت الست الكبيرة نفسها فى كبر وهى تقول :

— وماله ؟

وحاولت سميحة أن تقلدها وهى تقول :

— آه •• وماله •

وقامت سهير إلى حجرتها فى هدوء وبطء وفى وجوم ، فكانما
وجهها قد من صخر فهو قائم لا يبين عما يسده فى نفسها من
ثورات • حتى إذا خلت بحجرتها أقفلت الباب وأحكمت رتاجه ،
ثم ارتمت على السرير ، شعلة لا تريد أن تخفف وقودها بماء ، وان

كان هذا الماء دمعاً ، لا وإن كان هذا الماء دماً • انها تريد شعلة
نفسها أن تظل مشتعلة تحرق وتحرق وان يكن الوقود نفسها ••
وان يكون الوقود حياتها •• ارتمت على السرير وألقت بوجهها
الى الجدار الصلب ، لا تذرف دمعاً ، ولا تفكر فى شيء غير أمس
عند القارب ، وغير الأمسيات التى سبقت الأمس هناك حيث قتلت
كرامتها ، وأهدرت كبرها ، ولم تنل حبا لقاء كرامة ، ولا وفاء
لقاء كبر • فتلتهب نيران الشعلة ولتكن نفسها الوقود ، وما النفس
بلا كرامة ، وبلا كبر ، وبلا حب ، وبلا وفاء •

لقد أدركت أن الذى قضى على مستقبلها هو القاؤها بوصفى
مهما يكن لقاء بريئاً •• لقد كانت تعرف وصفى رجلاً متشبهاً
بالتقاليد ، يقدرها ويدافع عنها •• ألم تكن تقرأ له مقالاته التى
يعارض بها من يطالبون برفع الحجاب ، أما كان هذا رادعاً لها أن
تلتقى به •• ولكن هى أم وديدة أوحى اليها أن لقاء سيتم بينها
وبين من تحب • وهيات لها أنه أمر ميسور ، فانصاعت فى سذاجة
الهوى ، وفى رعونة الشباب الأولى •

صامته سهير لا تبكى ولكن تشتعل وتحترق بلا نور من الشعلة ،
ولا بصيص من ضياء يبعثه الحريق ، حريق أسود داكن كآمالها ،
كمستقبلها ، كماضيها ، كحياتها جميعاً •

وطرق الباب فقامت إليه لم تسأل الطارق من هو وما يريد ،
وانفرج الباب عن سميحة التى دخلت صامته وأقفلت الباب من
خلفها وسارت مع أختها إلى السرير ، وعادت سهير إلى استلقائها
وجلست سميحة بجانبها :

— لا عيك يا ••

ولم تكمل سميحة الجملة ، فقد كانت تدرك أن آمال سهير
معلقة بوصفى ، وقد كانت العائلة جميعها تذكى هذه الآمال
بما تطلعه من شائعات وأقاويل •• كانت تدرك ذلك ولكنها كانت
تجهل مواعيد أم وديدة ولقاء الأمسيات •• لم تكمل سميحة الجملة
فقد وجدتھا سخيفة لا تفيد شيئاً ، ولم تجد شيئاً تقوله غير دمعات
فاضت صامتة أول الأمر ، ثم انفجرت عن بكاء ونشيج ، راحت
سميحة تكتمه بالوسادة ، وقد ألقّت وجهها اليھا ، وسهير صامتة
لا تتكلم ، وكأنما هي وحدها في الغرفة بلا بكاء جازع حزين قد
ألقيت أختها في غمرته • وطرق الباب مرة أخرى وانفتح عن
أم وديدة تقول :

— ستى سهير •

ولم ترد سهير على أن تقول :

— مع السلامة يا أم وديدة •

وعادت أم وديدة في نغمة توشك أن تكون نغمة نصح :

— يا ستى سهير ••

ولم تكمل لفظ سهير ، فقد قاطعتها سهير في صوت حازم يحمل
مقا ويحمل أمرا :

— مع السلامة يا أم وديدة •

وأقفلت أم وديدة الباب وانصرفت • وخلت الحجرة بالأختين
مرة أخرى ، ولكن سهير تريد أن تنفرد بنفسها ، فهي تقول لأختها :

— اذهبى إلى حجرتك يا سميحة •• أريد أن أنام •

— ومن سيلبس أبى حين يعود ؟

وقالت سهير فى تصميم :

— أنا طبعاً •• سأصحو قبل عودته •• اذهبى الى حجرتك •
وفهمت سميحة أن أختها تريد أن تخلو الى نفسها ، فقامت
وتركت لها وحدتها •

* * *

عاد الباشا متأخراً بآدى التعب ، وأحست سهير وقع أقدامه
فى البهو ، فقامت اليه جامدة محاذرة أن تلتقى عيناه بعينها ،
ودخلت معه حجرتة ووقفت وراءه لتخلع عنه سترته •

وقال الباشا وهو يخلع ملابسه :

— لا أدرى يا سهير لماذا أحس بتعب الليلة ؟

— لعنك تحتاج الى النوم يا أبى •• أبى ••

وقال الأب فى اشفاق :

— نعم يا بنتى •

— ماذا كان سليمان يعمل عندك اليوم ؟

وأدرك الباشا ما يهفو اليه حديثها ، ولكن لم يستطع أن يميل
بالموضوع الى آخر • فهو يقول متظاهراً بعدم الاهتمام :

— انه يجىء كل يوم يا بنتى ••

— نعم أعرف ••

وأدرك الباشا أنه لا بد له أن يلقى الأمر مواجهة ، فسكت
حتى لبس جلبابه ، وقعد على الأريكة ، ثم نظر ملياً الى وجه ابنته
وقال لها :

— أتعرفين ما تريدن يا سهير ؟

وقالت سهير :

— تمام المعرفة يا أبى •

— لعلك غاضبة الليلة من أمر ما ، فيحسن أن تروى فى الأمر ،
وتفكرى فيه وأنت بعيدة عن غضب لحظة •• انها حياتك يا سهير ••
حياتك كلها •

— أبى ، اذا كنت أنت لا تريدنى أن أتزوج من سليمان فأمرك
ولا أخرج عن أمرك •• أما أنا •• أما أنا ••

وجمعت كل قواها الباقية لتكمل الجملة قائلة :

— أما أنا فأقبله يا أبى •

— أواثقة أنت يا سهير ؟

— كل الثقة يا أبى •• انى أقبله •

وكان الباشا صادقا مع نفسه ، وصادقا مع قومه •• لقد قبلت
ابنته الزواج من سليمان ، ولا بد له أن يوافق ، فهو ابن أخيه
ولا يستطيع أن يرفضه ، وقد كان أمله الوحيد فى الرفض معلقا
بإبنته ، ولكن ها هى ذى تقبل •• فماذا بقى له انها حياتها ••
وهى فيها حرة •• ويل لها من الأيام •• أياكون سليمان زوجا
لابنتى هذه •• ويل لها من الأيام !

(٧)

أصبح الصباح على الباشا ، فاذا بوعكة الأمس تصبح مرضا فهو لا يطيق أن يبرح فراشه ، وجاء الأطباء واجتمعوا حول سرير الباشا وقرروا ألا يبرحه لمدة شهر على الأقل ، ووصفوا له العلاج وخرجوا ، وانشغل المنزل جميعه بمرض الباشا ، ونسيت السيدة تفيدة في غمرة علاج الباشا ما كان بالأمس من خطبة وصفي . وانشغت سميحة بأبيها أيضا ، أما سهير فقد راحت تنفذ أوامر الأطباء في صرامة قاسية ، باذلة أقصى جهدها في خدمة أبيها ، ولكن دون أن تنسى ، وكيف لها أن تنسى .

ومرت أيام والدار مقصد زوار لا ينقطع لهم سيل ، فأما في الدور الأعلى فسيديات الأسرة حزنهن حزان ، حزن لمرض الباشا ، وحزن يظهرنه وان لم يتمكن في نفوسهن لخطبة وصفي لغير سهير .

وكانت بنات الباشا الكبيرات مع الزائرات وان كن يطلن من آمد الزيارة ، وقد يطيب لأحدهن أن تغيط زوج أبيها ، فتبيت ليلة أو أكثر من ليلة في قصر أبيها . وكن اذا جلسن الى زوج أبيهن أبدين أسفا لمرض أبيهن ، وأسفا آخر مستترا بالحديث الملفوف لخطبة وصفي ، مبديات انشغالهن على مصير أختيهن . حتى اذا خلت بهن حجرة ، راحت كل منهن تبدى سخريتها المرحه لما أصاب القصر من مصائب ، مرددات أن هذه المصائب انما هى ذنب أمهن . المسكينة التى تزوج أبوهن عليها دون ذنب أو جريرة ، ولكن هذا لم يمنعهن أن يشفقن على أبيهن ، وأن يتمنين له الشفاء .

وأما الدور الأسفل فقد كان يحفل بالرجال ، لا يصعد أحد منهم الى الدور الأعلى ، فان الباشا كان لا يلقى أحدا ، وأحد لا يستطيع أن يصعد الى الدور الأعلى ما دام الباشا لا يلقاه ، فما تلقى السيدة الا اخوتها هي دون اخوة الباشا ، فهم لا يصعدون وانما يمكنون بالدور الأول يتعرفون الأخبار من الأطباء حين نزولهم ، ويلقون الزوار ويشكرون زيارتهم .. كان رجال الأسرة جميعهم يلتقون بالدور الأول ويظلون به الساعات ، لا فارق ثمة بين اخوة الباشا وأبناء اخوته وبين غيرهم من أفراد الأسرة فالجميع له اخوة وأبناء اخوة .

وكان وصفى وسليمان على حالهما من المواظبة ، يظلان بالقصر ما اتسع لهما الوقت . وكانت خطبة وصفى قد عرفت في مجال الأسرة ، فراحت التهنئات تتري اليه ، ولكنها تهنئات ذاهلة .. أذهلها اخلاف الخطبة لظنونهم ، وأذهلها انتظام وصفى في المجيء الى دار عمه رغم خطبته : وكانت تهنئات واجمة أيضا فقد كان مرض الباشا يخيفهم جميعا .

لم يكن سليمان يعلم ما جرت به الأمور بعد خطبة وصفى .. ومن أين له أن يعلم ؟ ! ، ولكن آماله كانت قد تضخمت ، فهو أكثر رفعا للكلفة في القصر ، وهو من يجلس في الشرفة الخارجية ليكون أول مستقبل للزوار ، وهو من يودع الزائر حتى عربته أو سيارته -

وتحسنتم صحة الباشا ، واستطاع أن ينتقل من السرير الى الأريكة دون أن يبرح الغرفة ، واستطاع أن يلقى اخوته بين حين وحين على أن يتباعد ما بين الحين والحين . واستطاع أيضا أن يذكر آخر حديث له مع سهير قبيل مرضه ، وأن يذكر أن الحديث قد

مرت عليه أسابيع ، فهو ينتهز فرصة تخلو به الغرفة وبابنته
فيسألها :

— هيه يا سهر .. أمصمة أنت على قبولك لسليمان ؟

— نعم يا أبى *

— أواثقة أن هذه رغبتك بلا أى تأثير ؟

— نعم يا أبى *

— شأنك يا بنتى .. ولكن اذكرى حياتك كلها أنك أنت من

اخترت ، فإذا مت فاذكرى أنى سألتك رأيك .. وألحت فى

السؤال .. أنت وحدك المسئولة عن حياتك منذ هذه اللحظة *

— أطال الله عمرك يا أبى *

— على بركة الله *

وغنم الباشا أن سليمان بالقصر ، فأمر أن يخلى الطريق الى

حجرته من الحريم ، وأن يصعد سليمان اليه *

وقصد سليمان الى عمه الذى استقبله فى محاولة هزيلة للبشر ،

وقاله له :

— مبروك يا سليمان .. مبروك عليك سهر يا ابنى *

وهوى سليمان على يد عمه يقبلها ، فتركها له الباشا ، فهي

قبلة ابن اختار يد أبيه موضعا لها .. وقال الباشا لسليمان وهو

ما يزال مكبا على يده :

— يا بنى الشكر يكون بمعاملتها هى معاملة ترضينى ..

ترضينى وأنا فى قبرى .. انها ابنتى .. قطعة منى .. وهى أحب

بناتى الى .. أحببها هى .. أحببها هى يا سليمان ، فهي بغير كل

ما حولها من مال وجاه جديرة بالحب ، والله على ما أقول شهيد ..
أكرمها يا سليمان تكرم أباك وعمك •

ولم يقل سليمان شيئاً في غمرة فرحته الا جملة واحدة ظنت
تتردد على لسانه ، دون أن يفكر فيها ، ودون أن يجد لها في نفسه
صدي •

— أطال الله عمرك يا عمي • • أطال الله عمرك يا عمي • •

لم يكن تفكيره في الثروة التي انهملت عليه ليسمح له أن يفكر
في شيء آخر ، ولم يكن ليسمح له أيضاً أن يستمع إلى كلام عمه
حتى يفهمه • • وانما هي جملة تعلقت بلسانه ، فراح لسانه يردد
وكأنها اسطوانة وضعت على حاك خرب •

(٨)

كانت الأيام التالية أيام أفراح .. أو هي ان شئت الحق الخالص
أيام زيجات • فقد تزوج عبد البديع من محبوبة ، وقد كانت هذه هي
أولى الزيجات ، وقد كانت ناحية الأفراح فيها مترعة خالصة
لا يشوبها الا الهناء والسعادة •

فقد عاد عبد البديع الى انقرية وبلغها في الهزيع الأخير من الليل
فما رده التأخير أن يقصد إلى بيت عمه • وطرق الباب في شيء من
التهيب ولكن في اصرار وجاءه صوت عمه جازعا غاضبا بعض
الغضب من هذه اليد العابثة التي تطرق عليه الباب في بهيم الليل ،
فهو يثوب من نومه العميق :

— من ؟

— أنا عبد البديع يا عم .. لا مؤاخذه •

— خير يا بنى •

— خير وكل الخير يا عم .. افتح •

وقال العم وهو يفتح الباب غير مطيق أن يفتح عينيه :

— يا ابنى الصباح رباح .. خير .. متى جئت من مصر ؟

— الآن يا عم الآن ..

— وكيف حال الباشا .. عسى الله أن يكون بخير •

— بخير يا عم الحمد لله ♦♦ أبقاه الله لنا ومد في عمره ♦

وراح عبد البديع يقص على عمه الخير الذى سكب عليه الباشا وابن أخيه وصفى بك ، ولم يفته أن يذكر جمود سليمان ♦ . واتفق عبد البديع مع عمه على أن يكون الفرح بعد أسبوع وأن يكون المهر ثلاثين جنيها ، بدلا من العشرين التى كان متفقا عليها ♦

ولكن الصباح أقبل عليهم بمرض الباشا فتأجل الزواج ، وجعل موعده شفاء الباشا ، حتى يكون الفرح فرحين ، وظل عبد البديع يتعجل هذا انشفاء حتى علم به وعلم بخطبة سهير هانم الى سليمان بك ففرح بخبر الشفاء فرحا غامرا وان اعترضت غمرته غصة بهذا الزواج الذى اختاره الباشا لابنته ، ولكنه سرعان ما قال في نفسه « أطال الله لنا عمر الباشا ♦♦ هاننا نحن وسليمان » ♦

وأقيم فرح عبد البديع وختل الحجرة به وبزوجته وارتاح المصنى الى المصنى بها وهدأ للاعج المستمر من هوى شب على السنين الطوال ، وازدادا أجيبه من نظرة عارضة عجلت بالزواج ♦ وانصرف الجمع الذى ظل ملازما لباب الحجرة ، يعلو خواره وتنشق حناجره عن أصوات مرتفعة تريد أن تلتهم في هديرها تلك الصرخة التى تودع بها الفتاة عهد العذارى ♦

خات الحجرة بالزوجين وبدأت بهما حياة جديدة ♦♦ جديدة عليهما ، قديمة على العالمين منذ بدء العالمين ♦

* * *

وفى القاهرة ، وفى ذلك القصر المطل على النيل كانت العدة تعد لفرح آخر ؟ ولكن أهو فرح ؟ أيحمل من معنى هذه الكلمة شيئا ♦♦

على كل حال هو زواج دعى الى شهود حفلة قوم كثيرون ، هم خيرة أبناء مصر وقادتها ، وسيحى ليلته خير المغنين .. بمبه كشر عند الحريم ، وعبد اللطيف البنا عند الرجال • فهو فرح اذن ! ولكن العروس .. مصدر هذا الفرح وسببه ، حزينه لا تعباً من أمر هذا الفرح بشيء ، وانما هى جامدة لا تتحرك خلجات وجهها عن نأمة من بشر أو سرور ، تسألها أمها عما تريد فتنترك لها الأمر جميعه ، لا تريد أن تساهم فيه بأكثر من تلك الموافقة التى قسرت نفسها عليها قسر ، ويسألها أبوها عن طلباتها فلا تريد على الدعاء له بطول العمر .. دعاء صادقاً من عميق قلبها وأن يكن صدقه عدا يخفى مشاعر أخرى لا تبين عنها لأبيها • كانت سهير لا تريد أن تشارك فى هذا الجرم الذى تقتطفه نكايه بنفسها أكثر مما ساهمت .. فبحسبها اعناتاً لنفسها وانتقاماً أنها وافقت على الزواج من سليمان • أما أن تشارك فى تجهيز نفسها لهذا الزواج ، فهذا ما لا تطيق أن تفعل ، لقد استنفذت جهدها جميعاً لتقول لأبيها أنها تقبل هذا الزواج ، ولم تبق منها بقية تجهز بها له •

وكانت الأم تعرف ما يعتلج بنفس ابنتها ، ولكنها تكتم علمها ذاك فلا تبين عنه ، فهى تخشى أن تشمت بها بنات زوجها ، وهى تخشى أن تنكأ فى نفس ابنتها جرحاً تعرف أنه يسيل ، وترجو من الزمان أن يرقأ دماءه المسفوحة ، فهى صامته تلهى نفسها بالشراء والاشراف على شأن الزواج وحفله ، ولكن هذا الشراء وهذا الاشراف لا يمهدان لها وقتاً طويلاً ، فقد تم الاتفاق على أن يقيم سليمان مع زوجته فى قصر أبيها الباشا ، فالأمر لم يعد محتاجاً لغير أثاث حجرة نوم واحدة تستبدل بالقديم الذى كانت تنام فيه سهير ، والشئ الوحيد الذى طلبته سهير هو ألا يباع أثاث

حجرتها القديم ، وألا ييارح الطابق الأعلى أو القاهرة الى منزل
الريف طلبت ذلك ولم تبد لطلبها سببا ، وأجيبته إلى طلبها دون أن
تسأل عن السبب • لقد شهدت هذه الحجرة أسعد أيامها ، وهى
تريدها أن تبقى قطعة من سعادتها الذاهبة •

لم تكثر الأم اذا من الشراء انما هو أثاث حجرة واحدة فخيم
وضعته بدلا من أثاث حجرة سهر القديم ، وابتسمت لسهر ،
وهى تقول :

أما أثاث حجرتك القديم فهو كما طلبت ، سيظل هنا معنا
فى هذا الدور ، سأجعله فى الحجرة المجاورة لك ينتظر الأولاد •

وذعرت سهر ، الأولاد ! ؟ وهل ستأتى بأولاد أيضا ، نسيت
سهر أن الزوج فى غالب أمره ينتج الأولاد •• الأولاد •• أولاد
منها ومن سليمان •• لم تفكر فى هذا الأمر إلا حين ذكرته أمها ،
وقد ظلت بعد ذلك لىالى تفكر فى هذه الكارثة الجديدة التى
ستصاحب ما وقع وما أوقعته هى على نفسها من كوارث ••
وأوشكت ، بل وهمت أن تقول لأمها ارفضوا الزواج • ولكن
منعها خوف راعد ، خامت الصدمة التى سيصاب بها أبوها ان هى
قالت « لا » بعد « نعم » ، وخافت أن يرغمها أبوها على الزواج
ارغاما وقد كان خليقا أن يفعل ، فهو لا يقبل أن تمس كرامته بسوء
وان كلفه هذا حياة ابنته جميعا ، وخافت أيضا أن تطفىء هذه الفرحة
الغامرة التى تمرح أختها سميحة فى أسكوبها ، مظهرة أنها فرحة
من أجل أختها وقد غيبته أن أختها تعرف تماما بأمر حبها لسامى
وحب سامى لها وانتظارهما زواجهما هى ليتزوجا هما أيضا •

لم تكن « لا » اذن ذات غائدة فقد فات حينها ، بل انها كانت خليفة

أن تجعل الزواج يتم في ظلال قاتمة من الارغام والقهر والزجر والتهديد ، بدلا من اتمامه في ظلال من العطف والاشفاق وانحذب والحب .. نعم فقد كان البيت الذى يتهيأ للزواج الجديد ، مغمورا بهذه الظلال من العطف والاشفاق وانحذب والحب ، وهى ظلال كما ترى خالية من الفرح كل الخلو ، فهى ظلال بلا اشراق ، كان القصر المقبل على الزواج بعيدا عن الفرح كل البعد ، ولم تجدر الزغردة التى كانت تطلقها بعض الخاديمات من حين الى حين ، عندما يقبل العريس وينتظر عمه في الدور الأسفل ، أو عندما تقبل قطعة من أثاث جديد أو قمانس أو فستان للعروس ، لا ولم تجد تلك الضحكة العريضة التى كانت تضعها الأم على شفيتها ، لا ولم تجد هذه الرقة الحنون التى كان يصطنعها الأب كلما حادث ابنته العروس ، بل ولم تجد الفرح الحقة التى كانت تعيش سميحة في أنغامها ، لم يجد شيء من ذلك في اشاعة قبسة من فرح في هذه الظلال التى كانت تسود القصر الذى يتهيأ للزواج الجديد ، وأن تكن الظلال مسكوبة من عطف واشفاق وحذب وحب ، الا أنها ظلال أبدا لم تعرف ومضة الفرح .

ومع ذلك جاء اليوم الموعود ، وسمى اليوم يوم الفرح . واستقبل الأب اليوم أشد ما يكون اشفاقا وضيقا ، فقد كان يعلم تماما ما تقاسيه ابنته ، حتى لقد كان يوشك أن يقتل ابن أخيه هذا ، كان يرى فيه جلاذ ابنته الذى اختارته هى لنفسها في لحظة انهدمت فيها آمالها . لم يكن لفقر سليمان أى أثر في ضيق الباشا به ، فهو ابن أخيه ، وقد كان أخوه حبيبا الى نفسه ، ولقد طالما نهاه عن الإسرف والقمار والمضاربة ولكنه لم يستمع ، بل انه كان في كثير من الأحيان يدفع عنه ديونه وان تضخمتم ليبقى عليه أرضه ، ولكنه

لم يكن لينتهي حتى أنهى ماله جميعا وأتى عليه ، فلم تبق منه
 إلا أوشال ضئيلة لا تعدو ثلاثين فدانا ملاصقة لأرض الباشا ، ومع
 ذلك فقد كان الباشا يحبه ، وظل يرعى ولده بعد وفاته حتى عاد
 من أوروبا ، وكم كان الباشا يتمنى أن يكون سليمان على خلق
 سوى ، وترفع عن الدنيا واعتزاز بالنفس ، ولكن سليمان لم يكن ،
 كان كل شيء الا خلقا سويا أو ترفعا أو اعترازا ، كان هينا .. هينا
 على نفسه فرآه الناس أهون ، وكان دنيئا لا يعرف السمو ، وكان
 ذليلا يطلب الأمر اليسير فيبذل في سبيله كل كرامة ، حتى لم تبق له
 كرامة ، لا يعف عن قول خسيس ، ولا تمتد آماله الا الى توافه
 الأمور بلاطموح . أكر آماله هي تلك التي ينالها الآن ، زواج
 من ثروة ، وركون الى هذه الثروة ، واستراذه لها دون أن يفكر
 حتى فيما سيتمتع به في ظلال هذه الثروة .

كان الباشا يعرف هذا جميعه عن سليمان ، فهو ضيق به أشد
 الضيق ، لا يفكر في فقره ، فقد كان يعلم أن غنى ابنته كفيلا أن
 يضمن لها ولزوجها حياة ميسورة ، ولكن زوجها نفسه بما فيه من
 خلق ، أو بما ليس فيه من خلق ، هو ما يضيق به الباشا ، ولكن
 ماذا يفعل ؟ لقد تم الأمر وحل اليوم . ولات حين رجوع .

أقبل سليمان على قصر الباشا في الصباح من يوم الفرح ،
 واستقبله الخدم في اجلال صامت ، وصعد خبر مجيئه الى الباشا
 وانطلقت زغرودة أعقبها صمت . وظل سليمان منتظرا عمه متوفز
 الأعصاب . يدعو الله في نفسه أن يتم هذا اليوم على خير .. الكتاب
 فقط يا رب .. الكتاب على خير يا رب ، ولا أريد غير هذا منك
 يا رب .. انه كل ما أطلبه منك يا رب ، لن أطلب منك بعد اليوم
 شيئا يا رب .

وكأن الله يضيره أن يطلب هذا السليمان شيئاً ، أو كأنه يخادع ربه ويمنيه أن يريجه بعد ذلك من طلباته ، أم لعله كان لا يدري ما يفعل ، أو ما يقول ، فظل يدعوه ربه في الحاح تَعُودِهِ مع عبيد الله ، فلا حرج عليه أن هو بذله عند المولى .

ولم يطل به اندعاء ، فقد نزل عمه متجهماً الوجه وإن حاول أن يلقي على وجهه بعض البشاشة :

— صباح الخير يا سليمان .

وأقبل سليمان على يد عمه فقبلها :

— صباح الخير يا عمى .

وجلس الباشا ، وجلس سليمان ، ومرت فترة صمت ، ثم قال الباشا .

— سليمان ، هل أعددت المهر ؟

وأخذ سليمان لحظة ثم تلعثم وهو يقول :

— نعم .. نعم .. نعم يا عمى .

— كم ستدفع ؟

— أمرك يا عمى .

— لا بل أمرك أنت .. انى أريد أن تدفع شيئاً مهما يكن قليلاً ،

حتى أحس أنك أجهدت نفسك لتتال أمك .

— والله .. والله ..

— اسمع يا سليمان .. اننى أعددت لك هذا المبلغ .

وأخرج الباشا من جيبه ظرفاً منتفخاً ، وأكمل حديثه :

ألفان من الجنيهات ..

وانتسعت حدقتا سليمان ، وفغر فاه ، واستعصى ريقه على
البلع ، حتى ليكاد يسيل ، وأكمل الباشا حديثه :

— ستدفع منها ألفا هي المهر • وأعطيك الألف الأخرى لك
لتظهر أمام زوجتك في الشهور الأولى مظهرا يرضى كرامتها ،
ويشعرها أنها تزوجت من رجل يريد ما لها ••
هذا المبلغ كبير يا سليمان كما ترى •• فأكرم به نفسك أمام زوجتك
ولكني أريد أن تكتب لى كمبيالة بخمسمائة جنيه •• هذا هو
المبلغ الذى أريدك أن تقدمه لى مهرا ، وأما بقية الألفين ، فانه هدية
منى لك لمناسبة زواجك •

وهب سليمان الى يد عمه وانكب عليها يريد أن يقبلها ، ولكن
الباشا سارع فجذب يده وهو يقول :

— لا •• لا يا سليمان فى هذه المرة لا •• لا تقبل يدى لأننى
أعطيتك نقودا ••

وأخذ سليمان المال ، وانحط على كرسیه ، ولم ينظر الى عمه ،
ولو فعل لرأى وجها ينكره •• لو فعل لرأى وجه عمه الذى كان
يحاول أن يكسوه بالعباشة ، وقد انقلب الى وجه حزين كسيف
جازع ملء بالكره والاحتقار ، لقد فعل الباشا ما فعل ، وكان
يتمنى أن يتأبى سليمان أو يظهر بعض التمتع ، أو يعرض أن يكتب
كمبيالة بالمبلغ جميعه ، أو يظهر بأى مظهر فيه بعض كبرياء ، أو بعض
رجولة ، أو بعض خلق • أما أن ينكب على يده كما فعل عبد البديع
فواضيعتنا لك يا سهير !!

أحس الباشا الألم الذى أمرضه يعوده ، ولكنه جاهد نفسه ،

ولم يبين عنه ، وقام تاركا القصر جميعه ، ومن ورائه ابن أخيه ،
وحين حاول أن يركب معه سيارته قال له :

— لا أظن طريقنا واحدا •

ثم أمر سائقه فسر ، وأخذ سليمان وجهته الى داره لييشر أمه
بما سكب عليه عمه دون أن يشعر بما يكنه له عمه هذا ، ودون
حتى أن يشعر بما في رد. عمه له عن ركوب السيارة من كراهية
واحتقار •



وكان الفرح الثالث هو زواج وصفى ، وقد كان هذا الزواج
محوطا بشيء كثير من الفرح ، فأهل هند في فرح غامر يعدون
للزواج والسعادة تغمر نفوسهم ، وكانت هند ذاتها سعيدة غاية
السعادة •• سعيدة لأنها ستتزوج ، وقد شبت وهي تسمع أن الزواج
معناه فرح ، فهي لا تعطى فقيرا الا دعا لها بالزواج والفرح ، وهي
لا تجلس الى أمها الا رأتها تتمنى لها زواجا من رجل عظيم لتقيم
لها فرحا تتحدث عنه الى أولادها وأولاد أولادها ، وهي لا تجلس
إلى زائرات إلا دعون لها بالزواج والفرح ، وها هي ذى تتزوج ،
ومن رجل عظيم مشهور طالما سمعت عنه من أبيها ومن أعمامها
وأخوالها وهو ابن باشا وغنى ويقولون انه جميل كالأمير الذى تروى
عنه الأقاصيص ، والذى تشهده فى التمثيل حين تصحبها أمها الى
التمثيل فى يوم السيدات •

ها هي ذى تتزوج اذن ، وها هو ذا الفرح يعد له اعدادا
ضخما رائعا •• فهي اذن فرحانة •• يبارك أبوها فرحتها وتنتشى
بها أمها •

وكانت السيدة اجلال سعيدة أيضا بزواج ابنها ، فهي زيجة

طالما تمتتها وسعت اليها •

الوحيد الذى انشغل عن أن يفرح هو وصفى ، وقد أراد
لنفسه أن ينشغل •• لا يريد أن يفكر فى هذا الزواج ولا يريد أن
يعرف حقيقة شعوره نحوه •• انه زواج فقط ، بلا مشاعر حوله
من ضيق أو فرح أو أمل أو ألم ، انه زواج يتم فى حياته كجزء
من طريق حياته ، ولا بد له أن يقطعه فهو لا يستقبله بشعور معين ،
وانما هو يشغل نفسه بالسياسة ، ويندفع فى غمارها يريد منها أن
يحقق أمله فى النجاح ، ويريد أيضا أن تشغله عن تفكير آخر ،
وعن زواج آخر • لم يعد يريد أن يذكره أو يذكر صاحبتة ••
سهر •

(٩)

أقيم فرح سهير الحزينة ، فكان على أروع ما أريد له أن يكون • وطرب الزوار وانتشوا بالغناء ، فكانوا هم ومعهم سليمان وسميحة رمز الفرحة في القصر •

كان سليمان فرحاً يغشى فرحه بعض اضطراب • فهو ان يكن قد ربط جأشه وسكن مضطربه بعد كتابة عقد الزواج ، الا أنه عاد لنفسه يسألها : ماذا هو قائل في ليلته تلك ؟

ماذا هو قائل لسهير في لقاءهما الأول • انه لا يفكر فيما هو فاعل ، لأن أمه منعتة أن يفعل شيئاً في ليلته الأولى ، فشأن العروس في الليلة الأولى أن تكون مضطربة ، ويجب على العريس أن يطمئن روعها ليلة أو أكثر من ليلة حتى يزول عنها الروع ويهدأ المضطرب •

فماذا هو قائل اذن •• لو أنه كان مثل وصفى لفتح للحديث أبواباً ، أما وهو لا يستطيع حديثاً فماذا يفعل •• آه لقد تذكر •• ألم يكن يحكى على صديقاته في أوروبا ما يجعلهن يضحكن حتى تسيل الدموع من عيونهن ، أو لم يكن أترابه وأصدقائه هناك يضحكون منه هم أيضاً •• نعم انه لم يجد بمصر منذ عاد من يضحك من حديثه الا أن هذا لن يقف به عن المحاولة ، فان عروسه مثقفة ولا بد أنها ستضحك كما كان أصحابه يضحكون •• لقد هداه الله الى الحل •• وانه لتبعه فبالغ ما أراد لنفسه أن يبلغ في ليلته •

وراح سليمان يعيد على ذهنه ما كان يحكيه بأوروبا لأصدقائه ،

منصرفا عن الفرح الى تلك الأيام المزدهرة في حياته ، والمدعوون في شغل عنه إلى الغناء وإلى أصدقائهم ، لا يحفل واحد منهم شأن سليمان ، فلم يكن ذا شأن بينهم أو بين غيرهم ، فهو من أولئك الذين اذا حضروا أو غابوا لم تحس حضورهم أو غيابهم • وقد كان في هذه اللحظة حاضرا غائبا ، يفكر ويبتسم ويفرح • • لقد هدى الى الحل : ووفق الى السبيل !

وكانت سهر في الطابق الأعلى ، يعينها على ستر ما بنفسها من ألم وحسرة الخجل الذي تنتشع به العروس في ليلة زفافها ، فهي صامئة عن ألم ، وتظن المدعوات أنها صامئة من خجل ، والله يعلم ، والباشا وأما ، على أى لاجع من أسى ينطبق صمتها •

وانتهى الفرح • وخلا العروس الى عروسه • ولم يجد سليمان من كل ما كان يعده في رأسه الا :

— مساء الخير •

ونظرت اليه سهر • • انه في القرب أبشع منه في البعد ، وجاهدت نفسها أن تجيب ، فلم تستطع فأشاحت متخذة من خجل العروس وقاء لها من الإجابة •

وتمطى سليمان وألقى نفسه إلى كرسى وهو يقول :

— متعب الفرح •

وسخرت سهر في نفسها من كلمة الفرح ، وظلت في صمتها •

— أليس عجيبا أن تكونى ابنة عمى ولا أراك الا الليلة ؟ عادات سخيفة • • عندنا في أوربا كان النساء يقابلن الرجال حتى الأغراب • • تصويرى • •

عندنا في أوربا .. لا .. لا أطيق .. أجمع إلى قبح المنظر ،
وصفاقة الوجه ، ثقل الدم أيضا .. لا .. لا يارب .. لم أقدر
لنفسى كل هذا العقاب .. النجاه يا رب النجاة .. عندنا في
أوربا .. ويقول تصورى .. أنا متصورة .. أنا عارفة فلا حاجة
بى إلى التصور .. الشئ الوحيد الذى لا أتصوره هو أنت يا زوجى ،
يا شريك حياتى يا مستقبلى كله ، يا بقية عمرى .. وأخشى والله أن
تكون بقية العمر طويلة .

— كان النساء يجلسن معى ، وهن لا يعرفننى .. وكنا نتكلم
ونتبادل الأحاديث ..

ثم يضحك سليمان في غرور سائه ثقيل :
— كن يعجبني بى اعجابا كبيرا .

بك أنت .. لا .. انى أعلم .. لقد كن يضحكن منك لا لك ..
كنت سخرية الأصدقاء والصديقات .. ويلي أنا ، لقد كنت تقيم
مع الواحدة منهن ساعة أو يوما أو شهرا ، ثم تنصرف عنك ،
ولا يمكن أن تنصرف أنت عنها لأنك صفيق ، أما أنا فالعمر ..
العمر كله .

— تعرفت هناك بنات كثيرات .. جميلات .. ولكنهن طبعا لسن
في مثلك جمالك .

وتغازل أيضا .. يا لها من مصيبة ! .. انه يستعرض أمامى
مهارته مع النساء ، ويغازلنى في وقت واحد . كأن من المفروض أن
أفرح أن كان له سوابق مع أخريات .. نعم والله كنت خليقة أن أتعزى
لأن هذا الذى يرويه حق .. كنت خليقة أن أعزى نفسى بأن أخريات
خكبن به قبلى ، ولكن من أدرائى أنه الحق !!

— أنت غيرى .. أليس كذلك .. لا .. لا .. لا تغارى ، فقد
انتهى ما كان بينى وبينهن ، ولقد شئت أن أقص عليك هذا الحديث ،
حتى أكون صريحا معك منذ أول ليلة .. هيه لا تغارى •

أغار ! .. عليك أنت .. ألم ينظر فى مرآة هذا الثور .. أنا أغار
عليه ؟ !

وقام سليمان عن كرسیه واقترب منها فى كرسیها الذى جلست
اليه ، وقد ألقت برأسها إلى كفيها تدیر إجاباتها على زوجها فى ذهنها
ولا تنطق منها بشيء .. اقترب سليمان من زوجته ووضع يده على
كتفها .. ولم تكن رأتة وهو يقوم عن كرسیه مقتربا منها .. لم
تر شيئا من هذا ولم تحس إلا بيده تهبط على كتفها ، فلم تشعر بنفسها
إلا وهى فى آخر الغرفة ، تصطك أسنانها من المقت والخوف ، محدقة
فيه مذعورة ، لا تنطق بلسانها شيئا ، وإن كانت عيناها قد نطقتا بك
شيء •

ولم يكن سليمان يفهم من لغة العيون شيئا ، وإنما قال فى
نفسه « ان أمى خبيرة .. انها تدرك الذعر الذى تلتقى به العروس
فى ليلة زفافها الأولى » •

وفى الصباح بكرت سهير تخرج من غرفتها ، وتركت زوجها
نائما هادىء البال مطمئنا ، لم تجد أحدا صاحبيا ، فالتفت لنفسها
مكانا فى البهو ، وراحت تفكر فيما أصابت به نفسها ، وحاولت
جهدا أن تنفى عن نفسها هذه الأفكار ولكن الأفكار كانت
أقوى منها ، فهى تمور بعقلها فى ثورة عارمة ، فليس لها منها نجاء •

قامت سهير تتمشى في أرجاء البيت ، وقصدت الى الشباك
 المنظر على باب البيت والشارع ، وكانت الحياة قد بدأت تدب
 هونا في الطريق ، فبائع الفول يدفع عربته لم تتحلق حوله الخادمت
 والخدم بعد ، وبائع اللبن يسير حاملا بيده اناء اللبن ، وفوق
 رأسه ذلك اللوح الكبير الذي استقرت عليه أطباق القشدة وأوعية
 لبن الزبادى الفارغة ، والموظفون يسيرون فرادى ، والتلاميذ
 يسيرون جماعات ، وعم ادريس يصلى ، وقد وضع بجانبه
 موقدا من الفخار اشتعلت فيه النار واستقر عليه اثناء الشاى والعيش
 ورأت سهير النار تشتعل وتكاد تلتهم العيش ، فما يملك عم ادريس
 الا أن يخرج من الصلاة بغير انتهاء ، بل انه حتى لا يستأذن ربه
 في الخروج من ساحته بأن يلقى السلام على الملائكة الذين يحفون
 به وهو قائم * لا يفعل شيئا من هذا ، بل هو يترك الصلاة في جزع
 عاجل وينكفى على النار ، يختطف منها العيش أن تلتهمه قبله *
 وتلوح ظل ابتسامة على شفتى سهير كانت جديرة بأن تكون ضحكة
 عريضة : لولا ما بالقلب من ألم * وتظل سهير رائية الى عم ادريس
 والى الشارع ، وقد ماجت فيه الحياة وتسارعت فيه الخطوات ،
 وجرت به العربات تجرها الجياد ، مطهمة حيناً أو كسيرة وانية
 الخطوة حيناً آخر ، وقد ترى من حين الى حين سيارة تخترق
 الطريق في زهو ، مدلة بسرعتها وأناقته ، فتلقاها الخيل وبسائقوها
 بكبر ، كبر صاحب الأصل الدارس صار الى الفقر ، وما يزال
 محتشبا بأصله العريض ، وان يكن قد تهدى الى فقر وارهاس
 بزوال *

واستطاعت الحياة أن تلهى سهير عما يمور بنفسها بعض الحين ،
 فلم تنتبه من وقفاتها الا على عربة مطهمة الجياد تقف أمام بيتهم

وينزل منها ابن خالها سامى عبد الحميد ، أمل أختها سميحة وفتاها • وحين تركت النافذة خشية أن يراها سامى ، سمعت جرسا يندق ، فأدركت أن أباه قد صا ، فذهبت الى غرفته ، وقالت وهى تفتح الشباك ، وقد حملت جرائد الصباح فى يدها :

— صباح الخير يا أبى •

وقال الأب فى بعض دهشة :

— صباح الخير يا بنتى •• صاح الخير يا عروسة ••

وكانت سهير قد أصبحت بجانب سرير أبيها ، تضم الكلة المسدلة عليه ، وهى تقول :

— أرو أن تكون جقد نمت نوما هائئا ؟ !

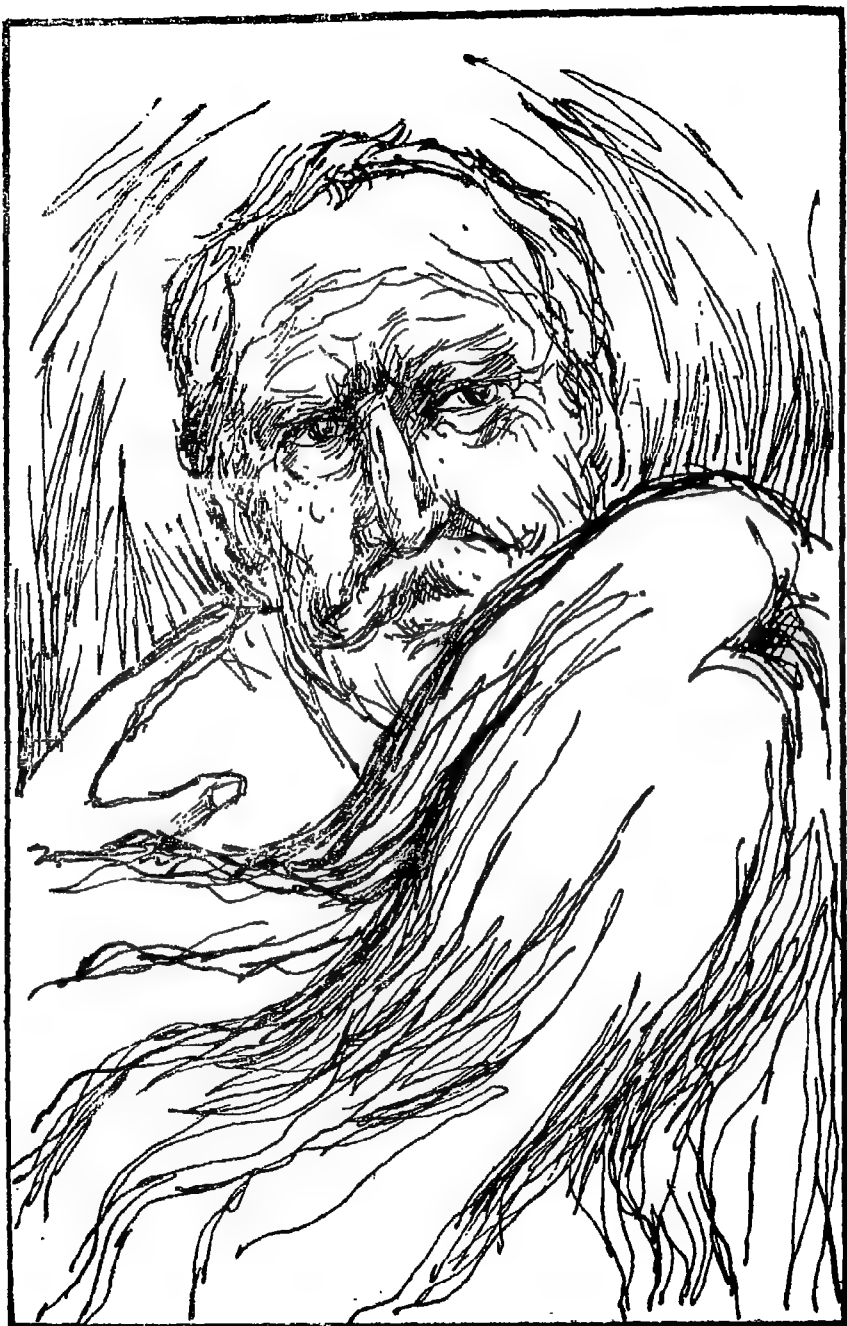
— أرجو أن تكونى أنت قد نمت نوما هائئا ، لقد صحت

مبكره يا سهير •• خير يا سهير •

— خير يا أبى •

— قولنى يا سهير •• هل أنت مرتاحة ؟

ولم تستطع سهير أن تحتمل حزنها أكثر مما احتملت •• لم تستطع أن تكتم الدموع الطافرة من عينها ، فأدارت وجهها عن أبيها ، وانهملت دمعات صامتة ، وألح الأب فى السؤال ، والدموع ما تزال تتراحم فى عيني سهير ، حتى اذا عجزت عن وقف دفعها جلست على سرير أبيها ، وألقت برأسها على حافته ، وقد تشبثت يداها بهذه الحافة وبكت •• فى مهمة خافتة أول الأمر ، ثم ما لبثت أن انفجرت عن بكاء صاخب ، تكاد تذرف فيه قلبها ، وأمسك أبوها بها ، واحتواها فى صدره ، فزاد



بكاؤها غفيا ، والأب الراسخ الصلب لا يجد ما يفعله سوى أن يربت كتفها ، وقد ثارت في نفسه عاطفة الأبوة جياشة ، رقراقة عنيفة ، حتى لم يستطع ، وهو الرجل عرك الحياة وعركته ، الى أن صار من الحوادث كالجلبل الأثم ، تدور به الرباح فلا تنال منه .. لم يستطع أحمد باثا الا أن يسكب دمعات ، سارعت يده الى تجفيفها قبل أن تراها ابتته .

وأحست سهر في حزن أبيها بعض راحة ، وأحست أن بكاءها لن يفيدھا شيئا الا أن تعذب أباه ، فتمالكت وانتفضت عن سرير أبيها الى خارج الغرفة ، لم تغب عنها كثيرا ، بل هي تعود الى الأب الحزين ، وعلى شفقتها شبح ابتسامة باهتة ، وتجد أباه يختم صلاته ، فتجلس رانية اليه في حب ، حتى اذا قام عن السجادة قالت :

— ان أكن قد آلمتك يا أبى هذا الصباح ، فانى أحمل لك خبرا تفرح له .

— والله يا بنتى لا أعلم أن شيئا يفرحنى وأنت حزينة .

— لا عليك منى يا أبى ، ان سامى قد جاء الآن ويرجو لقاءك .

— وأى شىء يفرح فى هذا ؟

— ألا تدري يا أبى ، انه يريد أن يخطب أختى سميحة ، فبحياتى عليك يا أبى الا قبلته .

— سامى ابن حلال ، ولكن هل سميحة تريده ؟

— نعم يا أبى ، انى سألتها .

— هل أعتمد على قولك هذا وأقبله ، وأحمل عن نفسى مؤونة

سؤالها وخجلها ؟

— نعم يا أبى •

— اذن فأرسلنى الىه من يصعد به الى هنا ، واخلى له الطريق •

وما هى الا دقائق ، حتى صعد سامى الى زوج عمته التى كانت قد صحت هى أيضا ، وانضمت الى زوجها فى حجرته • وما هى الا دقائق أخرى ، حتى خرجت تفيدة هانم من الحجرة ، وأعلنت الى ابنتها سميحة أن أباهما قد قبل خطبة سامى لها ، وانطلقت الزغاريد فى القصر ، صاحبة فرحة هذه المرة ، لا يعوق انطلاقتها نسيء •

وصحا سليمان من نومه على هذه الزغاريد ، فظن أنها موجهة له ، وحدث نفسه أنه لا يستحقها بعد ، ولكنه لم يستطع أن يصرح • ووضع على نفسه معطف المنزل ، وقصد الى حجرة عمه • وهناك عرف ما أطلق هذه الزغاريد من عقالها • فهنا سامى وأصابته نفسه غصة ، فقد كان يعلم أن سامى أغنى منه • ولكنه تذكر ما قال من عمه فى أمسه ، فثارت فى نفسه فكرة جاهد أن يكتمها • أنه يريد أن يدعو زوجته الى رحلة خارج القاهرة ، يتمتعان فيها بشهر العسل ، حتى يظهر لعمه أنه سينفذ أمره له باظهار كرمه أمام زوجته ، وحتى يستطيع أن يتيح لزوجته أن تأنس به من تلك الوحشة التى عرفها منها فى ليلة البارحة • وكان يجاهد نفسه ألا ينفذ هذا العزم ، حرصا على الأموال ، واحتفاظا بها ، ليشتري قطعة أرض يضيفها الى تلك الأقدنة القليلة التى تركها له أبوه •

وبينما كانت هذه الأفكار تتصارع فى نفس سليمان ، كان القصر يموج فى فرحة غامرة • فسهير مع سميحة تحضنها ، وتبكي بكاء اختلط فيه الفرح بانحزن •• فرح بأختها وحزن على نفسها ،

وتجيبها سميحة بالبكاء ، لا يبتعته الا الفرح الخالص ، تشوبه
الأحلام الوردية عن البناءة التي ترنو اليها في ظل هذا الزواج
السعيد .

وكانت الأم غرحة هي أيضا ، فرحة بريئة ساذجة ، ولكنها
لم تسعد بهذا الفرح كثيرا ، فهي تنظر الى وجه زوجها فتجد فيه
ألما يجاهد في إخفائه ..

— خير يا باشا .. أنت متعب ؟

— والله يا تفيدة نعم .

— ومالك لا تقول ؟

— اتركني البنات يفرحن .

— البنات لا يفرحن الا بك يا باشا .. صحتك أهم من كل شيء

وانكتم الفرح في الصدور ، وانكتم معه حزن سهر ، وحيرة
سليمان الذي وجد في مرض الباشا قرارا حاسما ، اذ لا يمكن أن
يدعو زوجته الى رحلة وأبوها مريض .

وسرعان ما جاء الأطباء . وهرول سامي ليشتري الدواء ،
وتكاسل سليمان مظاهرا أنه يريد أن يظل الى جانب عمه ، مرتثا
في هذا العذر اعفاء له من دفع ثمن الدواء . وجاء الدواء ، ولكن
متى نفع الدواء ، وقضاء الله مقضى ، سبحانه يهب الحياة ويختارها
الى جواره .. هو وحده صاحب الأمر فيها مبتدئة ومنتية .

(١٠)

لم يستطع شيء أن يعوق سليمان عن حقوق الزواج ، وإن يكن الحزن قد أجل نيل حقوقه بضعة أشهر ، ولكن أين المهرب لسهر والحياة طويلة ، ما المشهور فيها الا قطعة صغيرة من الزمن ، ينتلها الزمن . ويبقى الزمن ، وتبقى الحياة ، ويبقى زوجها ، وتبقى حقوقه .. وقد نالها ، ولكن سهر كانت تحس دائما أنها كأنما ترتكب اثما حرمه الله ، كان يداخلها شعور بالخزي والعار ، ولولا أن عقلها ما يلبث أن يذكرها بأنها أوامر الله لما زایل هذا الشعور نفسها .

ولم يكن الجنين يعلم أن أمه لا تحب أباه ، ولم يكن يعلم أنه يتكون على رغم أمه ، ولم يكن يعلم أنها تتمنى أن تموت قبل أن يصبح هو طفلا ، ولو كان يعلم ما استطاع أن يفعل شيئا ، وماذا بيده أن يفعل .. انه يتكون ويكبر على رغم أنفه وعلى رغم أمه ، ويكتمل وينزل الى الحياة .

واستقبل القصر الطفل الأول لسهر .. وقد كان اسم الطفل معدا له قبل مجيئه « أحمد » وقد رحب سليمان بالطفل ورحب أن يسمى أحمد ، وتخلّى عن بذل أى مال للحكيمة المولده أو للخدم ، فقد تعود الخدم منه ألا يعطيهم شيئا وإن يكن بعض الأمل قد داعب نفوسهم أن تسخو نفسه الجامدة ، يوم مولد طفله الأول ، الا أن هذا الأمل كان ضعيفا واهنا ، لم يحسوا في انهدامه برء الأمل المنهدم .

(قصر على النيل)

وكانت سهير قد عرفت عن زوجها هذا البخل القاتل ، ولم تشأ أن تنبيهه الى موقفه من الخدم ، فقد كانت تعلم أن لا أمل يرجى من تنبيهه ، وضمت هذه السوءة الى ما اجتمع فيه من سوءات وسكتت • وقد كانت تعلم أنه مهما يعطهم فانه لن يطيق أن يصبر نفسه عن ارتكاب الصغائر أمامهم • فقد استطاع سليمان في مهارة حاذقة أن يرغم زوجته على احتقارة ، فأصبح كرهها له كرهين ، ومقتها له ألوانا من المقت ، عديدة لا يخفت لها أوار •

استقبلت سهير طفلها أحمد ومقت أبيه يمهدها ، وحينما رآته في يد الحكمة يطلق صرخاته الأولى في وجه الحياة لم تحس نحوه شيئاً من عطف ، ولعلها لم تحس نحوه شيئاً على الإطلاق ، لولا أنها تذكرت ما يتناقله الناس من حب الأمهات لأولادهن • فطوت نفسها على شعورها المبهم ، ونامت بعد أن عرفت أن وليدها طفل ذكر • وما كان يعينها أن يكون ذكراً أو أنثى •• كل ما كان يعينها ألا يجيء هذا الطفل ، أما وقد جاء فسيان عندها أن يكون ذكراً أو أنثى ، فهو ان يكن ذكراً فقد يرث عن أبيه شر أبيه ، وهو ان يكن أنثى ، فهي قد ترث عن أمها تعاسة أمها •

صحت سهير من نوم عميق ، فوجدت أمها بجانبها تشرف على طعامها • حتى إذا أصابت ما قدموه لها ، دفعت أمها اليها طفلها لترضعه • وحين وضعت ثديها في فم الطفل راح سؤال يدور في ذهنها •• وأنت ما ذنبك ؟ ما ذنبك أنت يا ولدى العزيز •• العزيز •• أعزيز أنت •• أى شيء فيك عزيز ؟ ! أنت بلورة شقائي •• أنت تجسيد الأسباح القاتمة في ظلال حياتي ! أنت تعاستي حيه وترضع منى وأغذيها •• لا عليك يا ولدى ، فاني كما أتيت بك الى الحياة

أنتيت بشقائى الى الحياة .. انها أنا يا بنى التى خلقت شقاءها
 بيدها ، وهأنذا شقائى جاء من أحشائى مجسما بعد أن كان
 فكرا .. انسانا بعد أن كان خيالا .. حياة بعد أن كان رؤى ..
 حياة وان تكن شقية حزينه آسية ، الا أنها حياة ، وأنا صاحبها ،
 وأنا من أغذيها . سأغذيك يا بنى كما غذيت شقائى دائما ، وكما
 خلقت شقائى هذا .. لقد ولدتك أحشائى . كما ولد عقلى شقائى ..
 أنت بك أحشائى على رغم أنفيا . وولد عقلى شقائى مختارا
 لينتقم .. لقد خلت انى أنتقم ممن هجرنى : فإذا أنا أنتقم من
 نفسى ، فويلى من ظالمة ومظلومة . وقاتلة وقتيل .. أنا هى جميعها ،
 أنا الظالمة والمظلومة والقاتلة والقتيل .. ولكن أنت .. أنت
 يا ولدى .. ما ذنبك ؟ فاطعم .. اطعم يا بنى هنيئا لك ما ينساب
 الى جوفك الطاهر البرى ، الندى .. وأرجو الله اللطيف بعباده
 ألا ينساب فى دمي الذى يغذيك هذا الشقاء الذى خالط دمي
 على الأيام .. اطعم هنيئا ، فأنت يا ولدى لا ذنب لك .
 واقتحم سليمان الغرفة على زوجته . فألقت فضلة ثوبها على
 صدرها ، ومال سليمان على جبين زوجته . فطبع عليه قبلة ليس
 فيها الا ضم شفتين وانفراجهما عن صوت مرتفع مزعج وقال لها
 « كيف أنت يا سهير » ولم تزد سهير على أن تقول « الحمد لله »
 وحين حاول أن يجذب للحديث أطرافا لم تمكنه سهير مما يريد .
 فقد كانت فى غمرة من هذه المشاعر التى زحمت نفسها ، ولم يدرك
 سليمان شيئا مما يخالجهما ، فما كان يدرك شيئا فى نفسها ، واطمان
 باله الى أنها متعبة لا تطيق الحديث ، وخرج فرحا من الغرفة ،
 تشيعه نظرات سهير الحسيرة ، وقد ازداد جسمه امتلاء ، فأصبح
 سمينا ضخما ، لا يذكر ان رأيته الا بالعجل قواما وتفكيراً .

وبعد أيام قليلة من ميلاد أحمد عبرت باب القصر في خطوات وانيسة محبوبة زوجة عبد البديع ، تحمل على كتفها ابنها السيد وتمسك في يدها سلة كبيرة ، يغطيها البرسيم ، ويسير من خلفها زوجها عبد البديع ، يحمل هو الآخر سلة كبيرة مغطاة بالقماش خيبت أطرافه الى حوافي السلة * ان الأسرة قد جاءت الى قصر الباشا تقدم تهنئتها الى السيدة سهير وتحمل معها الهدايا التي ينتجها الريف الكريم ، وقد كان هذا المجرى يحمل في طياته شكرا عميقا من هذه الأسرة الى السيدة سهير فهي التي مدت حمايتها على عبد البديع فأبقيت عليه في وظيفته حين حاول سليمان أن يطيح به مدعيا أنه لص ، عاجزا في الوقت ذاته عن أن يثبت عليه شيئا من انحراف الضمير *

وقد أحست محبوبة بالرهبنة وهي تستقبل القصر ، ولكن يد زوجها من ورائها ألقت الى نفسها الطمأنينة ، فخطت باسم الله وبستره الى الرحبة الواسعة ، وسعت بين مغاني الحديقة الى القصر الكبير *

ولكن سيد أبى أن يجعل السيد يطمئن بهم ، فهو ينشق عن صراخ عال وعويل مزعج ، جاهدت أمه في كتمانها ، ولكن بلا جدوى فقد أبى حتى ثدى أمه الذي أخرجه لتسكته به *

وبلغ العويل مسامع السيدات ، فسألن وجاءهن النبأ عن زيارة عبد البديع ، فمست هذه الزيارة نفس سهير بنسمة طيبة أحست في عبيرها وفاء وحبا ، وان يكن صراخ الطفل قد أزعجها *

وقبل أن يختفى عبد البديع وأسرته الصاخبة في الباب الداخلي

سمع ضجة سيارة تقف عند باب القصر ، فالتفت وعرف فيها سيارة سميحة هانم ، فقال لزوجته :

— أسكتى السيد ، واذهبى لتسلمى على الست سميحة تهنيئها.
بوليد أختها •

ثم انتقل عبد البديع الى داخل المنزل ، ولم يطع السيد أوامر أبيه ، ولم يجد فى اسكاته جهد أمه ، ولكن هذا لم يمنعها أن تتقدم من سميحة هانم التى كانت تسير وئيدة الخطى يمنعا عن الاسراع أنها تحمل هى الأخرى وليدا غائبا فى ظلمات أحشائها •
وقالت محبوبة :

— الحمد لله على سلامة الست سهير يا ستى سميحة هانم •

— الله يسلمك يا محبوبة •• أهذا ابنك ؟

— نعم يا ستى • العقبى لك •• نفرح بالمحروس ، وتقومين
بالسلامة مجبورة خاطر ان شاء الله •

— لا ، فى هذه المرة أريد بنتا يا محبوبة •

— بنت يا ستى ! لا قدر الله •

— ولماذا يا محبوبة ؟ •• أنا عندى حسام •• ألا يكفى ولد
واحدا ؟

— لا يكفى أبدا يا ستى •• ولد يا ستى ان شاء الله وند •

— يا شيخخة اسكتى ، فانى أخشى أن يسمع الله دعائك •• بنت
يا رب •• بنت •

— لا حول ولا قوة إلا بالله •• أمرك يا ستى ، بنت يا رب ••
نولها ما تريد يا رب ، واجبر خاطرها •

— أَلَمْ تَرَى سَهِيرَ بَعْدَ ؟

— لَا وَاللَّهِ يَا سَتَى ، كُنْتَ دَاخِلَةً وَرَأَيْتُكَ فَجِئْتُ أَسْلَمَ عَلَيْكَ •

— نَعَالِي نَصْعَدُ مَعَا •

..

وَصَعِدَ ثَلَاثَتُهُمْ ، وَسَيِّدٌ لَا يَكْفُ عَنْ صَرَخِهِ إِلَّا بِمَقْدَارٍ مَا يُنْقَفُ
فِي حَلْقُومِهِ بَضْعَ شَهَقَاتٍ مِنَ الْهَوَاءِ ، مَا يَلْبِثُ أَنْ يَخْرُجَهَا عَالِيَةً
الْخَجِيجَ ، تَنْقُضُ عَلَى الْهَدْوِ الَّذِي كَانَ يَسُودُ الْقَصْرَ فَتَمْزِقُهُ
تَمْزِيقًا •

(١١)

كنت الكلمات لا تكاد تستقيم على شففى أحمد ، حين دخل
الى حجرة يجلس فيها أبوه الى أمه وقال :

- بابا .. هت لى شكولاتة •
- ولماذا .. أليس عندك شيكولاتة ؟
- عندى ، ولكن هات لى أنت •
- ولماذا أنا ؟
- لأن نينه تحب أختى هناء ، وأنا لا أحب نينه •
- ومن أدراك أنها تحب هناء ؟

— كل يوم .. كل ساعة أراها تحتضنها وتجعلها تبوسها
فى صدرها .. بوسة طويلة .. طويلة .. وتقول انها ترضعها ، وأنا
لا أبوسها الا بوسة قصيرة فقط ، وبعد ذلك تتركى لتجعل هناء
تبوسها ..

وكانت الأم غارقة فى الضحك ، بينما أكمل الأب نقاشه مع
ولده :

- طيب وما شأن هذا بالشيكولاتة ؟
- انشيكولاتة التى عندى من عند نينه .. هات لى أنت
شيكولاتة •
- ومن أدراك أنها من عند نينه ؟

- كل ما عندي من عند نينة .. هات لي أنت شيكولاتة .
- طيب يا سي أحمد .. أمرك .
- ويخرج الطفل مطمئنا الى وعد أبيه ، فقد كان طفلا ، ولم يكن قد عرف أباه بعد .
- وكانت الأم لا تزال في ضحكها من حديث ولدها حين قال سليمان :
- ألا يجب علينا أن نذهب اليوم الى وصفى لتهنئته ؟
- وفجأة تجمد الضحك على شفتيها ، فقد كان اسم وصفى لا يزال ذا رنين في نفسها .. واستطرد سليمان :
- يجب أن نذهب لتهنئته .
- ولماذا ؟
- لأنه ابن عمنا .
- انه ابن عمنا منذ ميلادنا ، ولم نفكر في زيارته أو تهنئته قبل اليوم . فما الذي جعلك تذكر هذا الآن ؟
- كنت مخطئا ، وأريد أن أصحح خطئي .
- سليمان .. قل الحقيقة .. انك تريد منه شيئا .
- لا والله .. ولكن ..
- ولكن ماذا .. انه رزق بجعفر ولم تهنئه ، بل انك حتى لم تشكره على الهديتين اللتين أحضرهما عند مولدي أحمد وهناء ، واليوم تريد أن تهنئه لأنه أصبح سكرتيرا لمجلس النواب ، ولا أرى المنصب كبيرا عليه ، فهو عضو نواب من سنوات ، وشخصية ظاهرة في الحزب ، وليس غريبا أن يكون في هذا المنصب .

- ولكنه فاز بثقة اخوانه ، ويجب أن نهنته بذلك •
- قل لى يا سليمان •• أئتم تحصل على الدرجة بعد ؟
- وما شأن هذا بالموضوع ؟
- ان هذا هو الموضوع •
- وبعد معك يا سهير •• أما تريدان أن تساعدننى فى شىء ؟
- والله أنا كرامتى لا تسمح لى بأن أزور ابن عمى متظاهرة بالتهنتة ، بينما أنا أريد منه شيئاً آخر ؟
- يا ستى ما لكرامتك وهذا ؟ !
- ان الكرامة هى هذا •
- ثم تنهدت سهير ، وكأنما أفاقنت الى أنها تحدث شخصاً لا شأن له بموضوع الحديث ، فقالت :
- وعلى كل حال أنت تعرف أننى لا أقابله •
- نعم أعرف ، ولو أنى غير موافق على هذا الحجاب • على كل حال اصعدى أنت الى زوجته ، وأقابله أنا •
- يا أخى ، أتريدنى واسطة إلى زوجته •• لا يا سيدى •• اذهب أنت وهنته ، ولن أذهب أنا الى زوجته •
- ولماذا ؟ •• انك لا تزورينها أبدا •
- انها ست غريبة عن العائلة ، وزيارتى لها لا تكون الا رداً على زيارتها هى •
- لقد زارتك عندما ولدت هناء ، ولم تردى الزيارة •
- لم تأت المناسبة ، ولو زرت كل اللواتى زرننى فى الولادة لما انتهيت •

— ها هي ذى المناسبة .. اذهبي اليها وهنئها ..

— سليمان *

— نعم *

— لن أذهب *

— أمرك *

وخرج سليمان غير غاضب وان كان آسفا ، فقد كان يأمل أن تتوطد الصلة بين عائلته وعائلة وصفى ، فهو يطمح أن يكون بوصفى سندا له في وظيفته ، فقد رأى وصفى واسع النفوذ ، مسموع الكلمة عند الوزراء وعند وزيره هو بالذات ، ذلك الوزير الذى لم يجزؤ هو يوما على طلب مقابلته ، ذلك الوزير صديق لوصفى ، والعجيب أن الوزير هو الذى يسعى الى توطيد هذه الصداقة وتثبيت دعائمها ، يريد من وصفى أن يكون عوناً له في الحزب وفي المجلس .. ومع ذلك تأبى سهر أن تذهب لوصفى .. أو لزوجة وصفى .. هو غير غاضب لأن الغضب لم يكن في طبيعته فان الغضب صديق للكرامة والعياذ بالله ، وهو رجل ألف ألا يغضب كما ألف البعد عن الكرامة .. هو غير غاضب ، ولكنه آسف .. آسف كما تعود أن يأسف دائماً حين تأمره سهر فيأتمر ، وهل كان له الا أن يأتمر ، انها الزاد والمأوى ، وانها المال والقصر والضياح ، حين هو لا شيء .. لا شيء الا أن يتلقى أوامرها فيطيع ، والا أن تريد هي فيسير ، غير غاضب أن أستقبل أمرا لا يريده ، ولكنه يأسف .. يأسف وينفذ . وهل كان بيده الا التنفيذ *

ولكنه اليوم يريد أن يصل ما بينه وبين وصفى ، وان يكن قد أهمل في شكره على هداياه ، وان يكن قد تأخر في تهنئته

بمولوده الأول ، الا أنه اليوم سيمحو هذا التقصير الذى كانت له أسبابه ودواعيه ، فهو ان كان قد ذهب للتهنئة بميلاد جعفر كان لا بد له أن يحمل معه هدية ، ان لم تكن مماثلة لهدية وصفى ، فهى على كل حال ستحملة مالا وهو يجب أن يبذل مالا . وهو أيضا كان لا يريد أن تتوثق العلائق بينه وبين وصفى ، بعد ما كان يشاع من أن وصفى سيخطب سهير . وهو أيضا لا يجب أن يجتمع ووصفى فى مجلس ، فوصفى رجل من رجال الدولة ، فى حين لم يستطع هو أن يصبح رجلا من رجال البيت ، وهو لا يجب أن تجرى المقارنة بينهما ، وخصوصا اذا جرت هذه المقارنة فى ذهن سهير . ثم هو أيضا لا يجب وصفى هذا الذى يتسلك الى المجد فى كبر وخيلاء ، بينما لا يستطيع هو أن يتسلك درجة . . درجة واحدة فى سلك الوظيفة ، ولو أن الأمور جرت فى سبيلها السوى . لكان هو الأجدر بالرفعة . فوصفى لا يملك الا لسانا وقلمًا ، أما هو فمهندس درس فى جامعات أوربا ، وهو رجل عملى ، ما الكلام عنده الا شغشقة عاجز ، وتهويم من لا يستطيع عملا .

ولو أن وصفى ارتفع بجهد وحده ، لقبل ارتفاعه هذا ، ولكنه ارتفع بغناه الذى خلفه له أبوه ، وبجاه أبيه أيضا الذى خلفه له فى الناحية ، فأصبح به عضوا بمجلس النواب ، أما هو فلم يترك له أبوه الا أوثالا من المال ، استطاع بها أن يذهب الى أوربا ، وأن يصبح مهندسا .

لهذا جميعه ، كان سئيمان حريصا على ألا يوطد صداقته بوصفى ، ولكنه اليوم حريص على هذه الصلة ، فهو اليوم شجاعة ابن عم وصفى ، وصديقه الأوفى ، وليس لهذه الأسباب مكان .

فهو لا يحتاج الى اهدائه شيئا ، لأنه ليس من المؤلف أن يتهدى القوم في التهنئات بالمنصب ، وهذا في ذاته أقوى سبب كان يقف به عن التهنئة في ميلاد جعفر .

وهو اليوم لا يرى بأسا أن تتوثق العلائق بينه وبين وصفى ، فقد مر على الشائعات التي كانت تربطه بسهير زمن بعيد ، والزمن قادر على ابتلاع الشائعات ومحوها من أذهان الناس ، وهو اليوم أيضا لا يرى بأسا أن تجرى سهر المقارنة بينه وبين وصفى ، فقد أصبح لهامنه ولد وبنت تحبهما الحب كله ، فما تمك إلا أن تظل الى جانبهما ، وهو أيضا مطمئن الى أن زوجته لا تكن له الاحترام ، لأنها من ذلك النوع الساذج الذي يقدر الكرامة ولا يقدر الحياة ، ويهيم في الخيال ، ولا يفكر في الواقع ، حتى انها تأبى عليه إلا أن يؤدي حق سميحة في أرضها كاملا اليها ، وان امرأة تبلغ بها السذاجة الحد الذي تأبى عنده أن تأكل أموال أختها خليفة بالألا يقيم لرأيها وزنا . أما أن يتسلق وصفى الى أعناق المجد ، فالواقع الذي لم يكن يفكر فيه من قبل أن وصفى كان يجاهد الانجليز ويهاجمهم بمقالات مشتعلة ، حتى لقد قبضوا عليه مرات ، وسجنوه ، وسليمان لا يرى بأسا أن يصيب هذا المتهور المجنون الذي يرمى بنفسه الى التهلكة مجدا ، ما دام لم يصب التهلكة ، ثم ان هذا المجد الذي بلغه وصفى مجد للعائلة كلها ، وما دام هو — سليمان شكرى — أحد أفراد هذه العائلة ، فمن حقه أن يحظى بنصيبه فيما أصابه ابن عمه . ومن ثم فهو يستحق الدرجة .

هكذا كان يفكر سليمان حين وجد نفسه واقفا الى باب ابن عمه وصفى ، وقبل أن ينزل من السيارة سأل البواب عن وصفى ، فحين علم أنه بالمنزل ترجل وهو يطلب الى البواب أن يبلغ سيده بمجيئه .

كان وصفى اذ ذاك جالسا الى زوجته وابنه جعفر ، وقد راح يداعبه في حنان ، والطفل يبتسم لأبيه ، ويحرك لسانه بكلمات لم تكتمل ، فيستقبلها الأب بفرح ونشوة ، ولكن هند لم تشارك زوجها فيما هو فيه من غبطة ، فهو يسألها :

— مالك يا هند ؟

— والله يا وصفى مشغولة بأمرى .

— مالها ، لا قدر الله ؟

— منذ مات أبى وصحتها تزداد سوءا في كل يوم .

— يا ستى ، طالما رجوناها أن تترك العزبة وتأتى هنا ليراها الأطباء .

— وماذا نعمل ، انها ترفض أن تترك العزبة وترى في بقائها هناك ما يسليها ، ولكنها لا تسلو .

— وهل سمعت شيئا جيدا ؟

— كلمتها اليوم في التليفون ، فلم يعجبني صوتها .

— يا ستى لعنك واهمة .. وعلى كل حال اطلبينها ثانية الليلة أو غدا .. واذا شئت سافرى اليها .

— وكيف أسافر ؟

— ولم لا ؟

— وجعفر ؟

— خذيه معك إذا اقتضى الأمر ••

— الولد صحته لا تحتل السفر •• على كل حال سأكلمها ثانية ••

— لا تشغنى نفسك بلا سبب •• لعلها كانت نائمة وأيقظتها

بالتليفون ••

ودخلت الخادم تنبئ وصفى أن سليمان فى انتظاره ، فتعجب بعض الشئ ، ثم قام للخادم :

— سأنزل اليه •

وانصرفت الخادم ، وعاد وصفى الى مداعبة ولده ، وطمأنه زوجه ، ثم قام الى سليمان •

وبينما هو فى طريقه الى الدور الأسفل ، لقيته أم وديدة على السلم ، فقال لها فى لهفة :

— هيه •

فهزت أم وديدة رأسها نفيا ، فلم يزد ، ونزل الى سليمان •
لقى سليمان وصفى بترحاب كبير ، فأدرك وصفى أنه يريد منه أمرا ، ولكن أخفى ادراكه هذا ، وراح يجيب الترحاب بترحاب •

— والله يا وصفى أنت لا تعرف كم فرحت بانتخابك سكرتيرا للمجلس •

— يا أخى المسألة لا تستحق فرحا •

— كيف •• ثقة زملائك بك ، وبلوغك الى هذا المنصب ، وأنت فى سنك هذه لا تستحق فرحا •

— لا تكبر المسألة يا سى سليمان . المهم عندنا أن نستطيع
الحكومة عمل شيء مع الانجليز . أما أن أكون سكرتير المجلس
أو لا أكون ، فوحياتك ما اهتممت بهذا ، ولقد اعتذرت وبالغت
في الاعتذار ، ولكن اخوانى ألحوا فقبلت .. على كل حال أشكرك
على زيارتك .. كأنما كان لا بد لك أن تجد سببا لتزورنى .. أين
أنت يا أخى ، ولماذا تختفى هكذا عنا ؟

— والله الوظيفة يا وصفى تبشع وقتى كله .

— وكيف رضاك عن الوظيفة ؟

— وهل رأيت صاحب حق ينال حقه فى هذا البلد ؟

— لماذا كفى الله الشر ؟

— يا سيدى الوزارة تأبى ألا أن تساوينى بزملائى الذين

عينوا معى .

— وما البأس فى ذلك ؟

— ما البأس ؟ ! يا أخى أنا سافرت لأوروبا ، ونلت شهادات

من أعظم الجامعات هناك .

— آه .. من هذه الناحية أظن أنك محق .

— بالله يا وصفى — ان كنت لا ترى بأسا — كلم الوزير ،

فهو صديقك ، وما أظن أنه سيخيب لك رجاء .

— أكله بكل سرور .

— أشكرك .. ومتى تتناول الغذاء عندى .

— وما المناسبة ؟

— المناسبة ؟ ! وهل لا بد من مناسبة ؟

— لا .. أبدا .. فى أى وقت .. ؟

— بعد غد ..

— وهو كذلك .. نقبل هذه الرشوة يا سى سليمان من أجل
خاطرك ..

— يا أخى العفو .. يا ليتك كنت ممن يرشون ، 'أذن لأرحت
قوما كثيرين ..

— نعم .. وتعبت أنا ..

— أبدا وحياتك ، الرشوة نتعب فى المرة الأولى تعباً بسيطاً ،
ما تلبث الرشوة الثانية أن تمحوه ، أما الرشوة الثالثة ، فهى
الراحة والهناء والمال والسعادة ..

— الله .. الله يا سى سليمان ، تتكلم كأنك خبير !

— خبير بماذا ؟ .. وظيفتى ليس فيها ما أرتشى عليه ..

— فاذا كانت ؟

— فيها نظر ..

— احذر يا سليمان .. الرشوة كالقتيل ، تفتنى يوماً أو بعض
يوم ، ثم ما تلبث الرائحة النتنة أن تفوح منها ..

— يا عم صل على النبى ..

— عليه الصلاة والسلام .. ولكن هذا هو الحق ..

— المرتشون يملأون المناصب الكبيرة ..

— ولكن لا يحترمهم أحد ..

- بن ويحترمهم الجميع وحياتك *
- لأنهم يرجون منهم خيرا . فهم يظهرون لهم الاحترام ، ولكن لا يكونون لهم الا الاحتقار *
- وماذا يعرف الناس عن ضماثر الناس .. المهم ما ظهر ، وأما ما خفى فالله به عليم *
- الاحترام .. أعظم الاحترام .. أن يحترم الانسان نفسه ، ويعلم أن الناس يحترمونه في دخيلة نفوسهم ، كما يحترمونه في ظاهراًمرهم * ولا تصدق أن انسانا يكبر وسمعته دلوثة .. ولا تصدق أن انسانا يكبر بغير احترام *
- نعم .. نعم .. أعرف مثلك العليا *
- هذه ليست مثلاً عليا .. انها المستوى الطبيعي للأخلاق وما أقل منها سفانة .. المثل العليا سمو عن طبيعة الأخلاق .. ليست الأمانة مثلاً أعلى : وانما هي طبيعة * انتشار الفساد جعل هذه المعاني العادية مثلاً عليا .. لا تعتقد أنك حين تكون أميناً تستحق المديح ، فهذا هو المفروض *
- فما المثل العليا إذن ؟
- أن أترفع بالمستوى العادى للأخلاق .. أن أعطى كل ما معى لفقير مثلاً ، وأظل بلا مال ، أن أضحي بحياتى فى سبيل الصالح العام *
- هذا تهور *
- بل هذه هى المثل العليا .. لا عليك ان لم تبلغ اليها ، ولكن عليك ألا تسفل *
- يا أخى أنت لا تعرف شيئاً عن الدنيا *

— لكل دنياه يا سى سليمان •• تلك هى الدنيا التى أعرفها ••
 النهاية ، لقد جعلتنى ألقى خطبة طويلة وأنت لا تحب الكلام ، أنت
 رجل مهندس تضع القلب على القلب فتبنى بيتا •
 — أما ترال تذكر •• يا أخى •• يا أخى ارحم الناس من لسانك •
 النهاية • لا تنس الغداء عندى بعد غد •
 — وهو كذلك •

واستأذن سليمان وانصرف ، وفى الطريق راح يفكر فى هذا
 النجاح الذى أصابه من زيارته تلك ، فهو قد ضمن أن وصفى
 سيكلم الوزير بشأنه فى غد ، لأنه من غير المعقول أن يأتى للغداء
 عنده دون أن ينبئه بما تم عند الوزير ، وقد قصد سليمان أن يكون
 الغداء بعد غد ، حتى يترك له الغد ليلقى فيه الوزير ، وسليمان يعلم
 أن مثل هذا لا يخفى على ذكاء وصفى ، وسليمان مسرور بنجاحه
 هذا أيضا ، لأنه لن يخسر فى هذه الدعوة شيئا ، فزوجه هى التى
 ستقوم بأعداد الغداء •• وسليمان مسرور أيضا ، لأن هذه الدعوة
 ستوطد الصداقة بينه وبين وصفى ، وهى صداقة يرى أنه أصبح
 محتاجا لها دائما • نجاح باهر اذن الذى أصابه فى زيارته تلك • وهو
 مصمم على تمكين هذا الانتصار والمحافظة عليه • وبلغ سليمان
 القصر ، فوجد زوجه كما تركها ، لم يزد عليها الا ابنتها هناء ، وقد
 تركت لها صدرها تقبلها فيه هذه القبلة الطويلة التى تثير الغيرة فى
 نفس أحمد •

— يا ستى ، وصفى سينتاول الغداء غدنا بعد غد •
 ونظرت اليه سهير نظرة طويلة لم يرها هو ، ولو كان رآها لما
 فهم منها شيئا •• وكيف !ه أن يفهم • انه لا يفكر فى شيء الا أن

يبلغ من نجاحه اقصاده . وانما ان يمكن هذا النجاح فيستقر به
التم ، وترسخ أقدامه في أعماق مستقبله • لا نسيء الا هذا . وهل
الحياة الا هذا •• ينظر الى سهير ويفول :

— سهير ••

فتجيبه سهير بعض مفيقه :

— نعم •

— ما المانع أن تقابلي وصفي ؟

وأفاقت سهير الى زوجها افاقة تامة :

— ماذا ؟

— وما المانع ؟ انه ابن عمك •

وقالت سهير في لهجة من لم يسمع : وفي غير استنكار :

— ماذا ؟

— أقول انه ابن عمك •• وأنا رجل درست في أوروبا ، ولا أوافق

مطلقا على هذه الرجعية •

— ولكن رأيك هذا لم تبده الا اليوم •

— نعم لأنه سيتغدى معنا . ولا أرى معنى أن يأتي ابن عمك

الى هنا ، وتقفل أنت الباب في حجرتك ، وأظل أنا وابن عمك

وحدنا •

— لا أرى في ذلك بأسا ، الا إذا كنت ترى في مقابلتى له فائدة •

— الحقيقة نعم ، أرى في ذلك فائدة •• فأنا لا أجد الكلام ••

ولن تمر دقيقتان حتى أجد نفسي عاجزا عن الحديث معه •

— من هذه الناحية •• اطمئن ، فهو الذي سيتكلم ••

ثم استدركت قائلة :

— فانهم يقولون انه كثير الكلام •

وأصابت نفسها غصة أن اضطرت الى مهاجمة وصى لتعمى
على زوجها فقالت :

— ويقولون ان حديثه جميل •

— نعم ولكن بماذا أجيب حديثه •• انه يتكلم فى أمور لا أفهمها
ولعلك أنت أن تفهميها •• فانك منذ تزوجنا وأنت لا تكفين عن
القراءة •• أنت تقرئين الجرائد ، وهو يكتب فيها ، وأنت تقرئين
كتب الأدب • هو يهوى الأدب ، ولن يخرج حديثه عن سياسة
وأدب •• وأما أنا فلا أحب السياسة ولا الأدب •

— وماذا يقول الناس يا سليمان ؟

— الناس •• وهل تنتهى أقوال الناس •• الناس عندك هم أنا •
وما دامت أنا موافقا فلا شأن لك بالناس •

— أخشى أن يقولوا انك جعلتني أقاله ، لأنك تريد الدرجة •

— بل جعلتك تقابلي ، لأنه ابن عمك ، وأنا لا أوافق على الحجاب •
— ولكن تعلم أنه هو رجعى ، ولن يسمح لزوجته بمقابلتك •
— لكل رأييه يا ستى ، هو من أنصار الحجاب ، وأنا من أنصار
السفور •

— هذا رأيك ، ولكنك تنسى العائلة وكثرة كلامها ، وتنسى أن
رأيك هذا لم يظهر الا مع ظهور رغبتك فى الدرجة •

— سهر •• الحقيقة أننى لا أريد لك هذا الحجاب اطلاقا ••
ولن تقتصر مقابلتك على وصى وحده ، بل اننى أحب أن تقابلى
الجميع •• اننى رجل متعلم فى أوربا ، ولا أحب هذه الهمجية •
لا يا ستى انك ستقابلين الجميع •• الجميع !

وارتفع صوت سليمان كأنه رجل ، وأحبت سهير أن يظهر
سليمان حماسته في هذا الأمر بالذات ، فقد كانت تريد أن تقابل
وصفى ، بل انها كانت تتوق الى هذا اللقاء ، ولكنها تريد أن تدفع
اليه دفعا عنيفا يهيء لها أن تقول لنفسها انها لا قبل لها بالنكوص ،
كانت تريد أن تعتذر لكبريائها عن هذا اللقاء ، وها هو ذا زوجها
يدفعها ، وانه زوجها ، فماذا يمكن أن تقول له .. انها ستلقى وصفى
وأمرها الى الله ..

وصمت سهير ، وأدرك زوجها أن صمتها موافقة ، وارتاح
خاطره ، وهدأ الى مستقبل زاهر تلوح له بشائره ، فهو يعلم أن
وصفى اذا لقي سهير سيطيّب له أن يكثر من الزيارة ، وهو يعلم
أن زوجته شريفة ، ويعلم أن وصفى أمين الضمير ، فهو لا يخشى من
اللقاء مغبة ، ولو كان يخشى ما أصر على هذا اللقاء ، ولكنه يعلم
أن سهير تحب الأدب والسياسة ، وتستطيع أن تكون طرفا في
الحديث يلقى وصفى ، ويعلم أنه بهذا يحب بيته الى وصفى ، وهو
يأمل أن يحب وصفى بيته ..

وقامت سهير الى حجرتها ذاهلة النظرة ، شاردة الفكر ، أحقا
ستلقى وصفى .. وصفى .. هذا الخائن الذى ألقى بها الى أعماق
هذه الحياة التى تحياها وتصلها ، ويلتهب سعيها فى كل أيامها ،
وصفى .. ستلقاه .. انها ستنتقم .. ستنتقم .. ولكن ما الذى يكفى
لانتقامها .. أتقتله .. وصرخت نفسها .. لا .. ثم سخرت منها
نفسها .. وهل أستطيع .. إذن .. إذن ماذا ؟ .. ماذا ماذا ؟ .. كيف
أنتقم .. أتجاهله .. وكيف أستطيع ؟ سيكون ثانى اثنين : أحدهما
أبكم فكيف أستطيع أن أتجاهله ؟ وماذا سيقول زوجى ، انه ليس

غيبا . ألا يجوز أن يدرك من تجاهلى ما كان بينى وبين وصفى ؟
ربما ظن أننى أتجاهل وصفى ، لأننى غاضبة لزواجه من غيرى ..
اذن .. إذن لا سبيل لى إلا أن أترك نفسى على سجيتها .. سجيتها ..
سجية نفسى .. أخادع نفسى ، اننى لو تركتها على سجيتها لظهر
ما تخفيه من .. من حب .. حب عميق ، زاده عمقا هذا الألم الذى
أقاسيه فى ظلال رجل قائم ، مظلّم ، أصم ألفؤاد .. على سجيتها ..
ويلى من نفسى .. ويلى من حبى .. أبدا لن تكون نفسى على سجيتها
فى هذا اللقاء .. أبدا لن تكون ، وكيف لها أن تكون . وأنا مع
اثنين ، أحدهما أضاع آمال شبابى وحياتى ، وأضاع الآخر شبابى
وحياتى جميعا ، وكيف لها أن تكون . وأنا أجلس الى اثنين ،
أحدهما ألقى بى الى السعير ، والآخر هو السعير ذاته ، ألقى
وصفى .. سألقاه ، فما هذا الليل الطويل الذى يفصلنى عن لقاءه ،
بل هناك نهار آخر وليل آخر ثم اللقاء ، لماذا لا يستمر هذا الليل
ليلا أنامه ، فلا أصحو الا على لقاءه ، أو لماذا لا يظل النهار نهارا
ألهو فيه عن شوقى بأطفالى حتى ألقاه .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ انها
الحياة .. لذتها أن تسير هى طريقها المرسوم ، بسرعتها المرموقة ،
بليل يخلف نهارا ، ونهارا يخلف ليلا ، ونتمنى نحن وننتظر ، نتحرق
شوقا ونثال ونمنع ونمنع .. وتظل الحياة سائرة ، لا شأن لها بما
نريد أو ما نأمل .

(١٢)

تسير الأمور في الطريق الذي أرادها سليمان ، فقد جاء
وصفى في موعد الغداء ، وقصد الى حجرة الجلوس التي يعرف
الطريق اليها تمام المعرفة ، وبعد هنيهة فتح الباب وفي انفراجته
رأى وصفي .. من ؟ ! سهير ؟ ! سهير .. ومن ورائها سليمان ..
ماذا فعلت بي يا سليمان .. حملق وصفي دهشا . حتى كاد ندهشته
ألا يستطيع قياما عن كرسیه !

وأقبلت سهير جامدة الوجه لا تبين نأμάτωνها عن خلجة تشف
عما يصطرع بنفسها من حب ، وغیظ ، وشوق . وإقبال ، واحجام ،
وتساؤل ، واستسلام ، وتقدم سليمان في بلاهة ومحاولة مقیة
للتظرف :

— أقدم اليك ابنة عمك التي لم ترها طول حياتك •

وجمع وصفي على شفتيه « أهلا وسهلا » مترددة حائرة ،
لا تكاد تبين ، وجلس ثلاثتهم : وسليمان أثبتهم جأشا ، وأروجهم
نفسا ، لا يدري ما يثور في نفسيهما من تيارات ان اختلفت في
مجرأها ، فهي مندفعة عن معين واحد ، نابعة من خلجات متشابهة ،
وراح سليمان يثرثر بحديث لم يع واحد منهما شيئا منه ، حتى
اذا فرغ عقله من أى حديث ، لم يجد شيئا يقوله ، صمت ، فانتبه
كلاهما الى الصمت الذي ران عليهم ، وانتفض وصفي متمالكا أمر
نفسه في دربة ، وقال لسليمان :

— مبروك يا سليمان .. ذهبت الى الوزير وسيمنحك الدرجة ،
ان لم يكن قد منحك اياها فعلا .
— يا سيدى متشكر .
— وهل بيننا شكر ؟
— سأكلم أحد أصدقائى فى المستخدمين لعلى أجد عنده خبرا .
وقام سليمان فى فرحة غامرة وخلت الحجرة بالمحبين ، وفى عيني
سهير تساؤل ، وفى وجهه وصفى حيرة ، ولم يجد وصفى شيئا
يقوله الا :

— كيف أنت يا سهير ؟
وجاهدت سهير نفسها حتى تقول :
— الحمد لله يا وصفى .
ثم جذبت شهقة من أعماق نفسها لتقول ثانية :
— الحمد لله .. وأنت كيف حالك ؟
— الحمد لله .
— وكيف حال هند وجعفر ؟
— بخير .. وأولادك ؟
— الحمد لله .

وران الصمت عليهما .. لم تستطع سهير أن تسأل .. لماذا فعلت
ما فعلت ، ولم يستطع هو أن يبين .. ضمت كلاهما ، وصفى يعلم
ما يدور بنفسها ، وهى لا تعلم الا أنه يدرك ما يدور بنفسها ، ثم
لا تعرف جوابا على هذا السؤال الذى ظل أعواما يلح عليها فلا تجد
له جوابا شافيا .. أو لعلها تعرف الجواب ، ولكنها أيضا تعرف
أن وصفى لن يستطيع أن يطالعه بهذا الجواب الذى تعرفه ..

ماذا تراه قائلًا •• أيقول لها انه لم يعجبه منها أن تلتقي به قبل
الزواج •• ماذا تراه قائلًا •• انها تريد أن تسأله •• تريد أن تبلو
لباقته الى درب عليها في ميادين الأدب والسياسة والمجتمع ••
كيف سيفسر لها هذا الشقاء الذى ألقى بها اليه ••
وفجأ قال وصفى :

— سهير أريد أن ألقاك ••

وذهلت سهير لحظة ثم قالت في تخابث وعدم مبالة :

— هأنذا تلقانى •

— وحدنا •• فى مكاننا •• هناك عند القارب •• اليوم • الساعة
السادسة من مساء اليوم •

وقبل أن تقول « لا » دخل سليمان فراح وصفى يتكلم • وكأنه
يكمل حديثا لم يقطعه دخول سليمان •

— بل ان الشاعر الذى يقوله :

وقد يجمع الله الشئيتين بعد ما يظنان كل الظن ألا تلاقيا
أحب الى من الشعراء المتشائمين •• فالأدب عندى متعة ••
والنفاؤل أجدر بالشعراء •

وقال سليمان :

— ماذا ؟ ! فتحتم باب الشعر •• لا مكان لى اذن •

وقال وصفى :

— هيه ؟ ماذا قالوا لك فى المستخدمين ؟

— يا سيدى ألف شكر •• لقد أمر الوزير بترقيتى •

ونظرت سهير الى سليمان ، ثم نظرت الى وصفى وكأنما تشهد
على ما فعله بها ، ثم قامت من الحجرة •

وحين أقبلت سهر لتدعو الضيف وزوجها الى الغداء ، ثم يلحظ سليمان بينما لاحظ وصفى جفونها المخضلة ووجهها الشاحب لقد سكبت بعض دموع مكنتها من أن تتمالك نفسها وتجلس الى ضيفها الحبيب ، فتجرى الحديث في بساطة ورقة ، حبيت انجلسة اليه ، تحادثا في كل شيء .. في السياسة وفي الدور الذى يلعبه فيها ، ووجدتها على علم دقيق بكل خطواته في هذه السنوات التى غابها عنها .. هيه يا حبي الأول الكبير • ان زوجتى التى لا تفرقنى يوما لا تعرف غنى ما تعرفين .. رحمتك في بلواك فمن يرحمنى في بلواى .. انى أعيش في بركة هادئة ، صافية هذه انبركة ، ولخنها راكدة ليس فيها تيار ، ولا هى مشوبة بقذى ، وهذا الهدوء فيها . وهذا الصفاء هو أنعس ما ألاقيه في حياتى ، ركود يصدر عن الغباء ، وصفاء لا يبتعثه الا الجمود • وأشد ما أعانى في حياتى أنى لا أجد شيئا أذمه فأشكو وأستريح .. ان زوجتى سدت على منافذ الشكوى بطاعة عمياء ، وأدب بالغ أقصى المدى ، فمم أشكو ؟ وماذا أقول .. رحمتك يا سهر فمن يرحمنى .. هى الحياة في بيتى أقطعها رتيبة النعمة لا تتغير ، ان دخلت بيتى قطعت ما بينى وبين الحياة ، وأصبحت لا شيء الا زوج هند وأبى جعفر ، فلا هند تعرف عن شأنى في الحياة شأننا ، ولا جعفر يفهم ما أبوه صانع ان هند في البيت شأنها شأن جعفر ، كلاهما طفل .. مطيع كلاهما هادى ، ولكن طفل .. أما أنت .. أنت فحياة .. أنت التى كنت جديرة أن تهبى للنصر معناه حين انتصر في المعترك ، وأنت التى تشفين جراح الفشل حين الفشل .. أنت معنى النصر ، ويلسم الجراح تخلفت عن الصراع ، وحياة الحياة التى أحياها ، والنعمة العذبة في كل معنى يطالعنى ان يكن فرحا ، فأنت النعمة الفرحانة .

أو حزنا فأنت النعمة الآسية .. وأدركت سهر ما بنفسه .. قرأته
 في عينيه .. عينيه الحلوتين . هاتين اللتين تستطيع فيهما أن تقرأ
 ما وراءهما .. فيهما شفافية حبيبة وطالما افترقت الشفافية في عيني
 زوجها فلم تجدها .. طالما نظرت الى عين سليمان وأنعمت النظر ،
 فما زادها الانعام الا عجا .. كيف يرى سليمان بهاتين العينين ..
 انهما مطفأتان .. لا نور فيهما ولا حياة .. بل ان وجهه جميعا جامد
 صلب لولا أن صاحبه يسير جيئة وذهوبا ، لما عرفت ان كان ميتا
 أم حيا .. ويلى .. لماذا يحيا وجه سليمان كما يحيا وجه وصفى ..
 الحياة كلها هنا في هذا الوجه .. انها طالما أنعمت النظر في وجه
 وصفى وعجبت كيف لهذه الحياة جميعها أن تموج في وجه واحد
 فقط ، حتى ليخيل اليها انه ليس هناك حياة الا في هذا الوجه ..
 على ثناياد فرحها وغضبها واقبالها وادبارها .. المعانى كلها هنا
 في هذا الوجه .. لماذا أيها الوجه .. لماذا فعلت بى هذا .. ما الذى
 جنيت ؟ .. لم أجن — علم الله — الا حبك ، وانه لجناية أنا وحدى
 من صليت أخلاقها وعواقبها .

وقاربت الساعة الخامسة . وقام وصفى ، ولولا موعد تهفو له
 نفسه ما قام ..

انه ذاهب الى مواعده لا يدري ان كان سيلتقى هناك مع نفسه
 وحدها ، أم أنه سيلتقى أيضا مع هواه القديم الجديد .. ولكن
 بحسبه أن يلتقى مع نفسه هناك .. بحسبه ذاك ، فهو ذاهب ..
 أما هي ..

ركب وصفى سيارته . وأمر سائقه أن يسير دون أن يبين له
 عن هدفه ، حتى إذا اقترب من مكان يستطيع منه أن يستأجر قارب ،

نزل وأمر السائق أن ينصرف الى البيت ، وذهب الى النيل ،
 واستأجر قارباً وأمر صاحبه أن يسير به في اتجاه القصر .. انه الحب
 يعود .. يعود بجميعه حتى بهذه الأفعال الطفلة التي لم يقدم عليها
 يوماً وان يكن قد سمع بها سماعاً .. لقد نسي في غمرة من أمواج
 حبه من هو .. نسي أنه النائب الخطير الذي يهتز الوزراء من نقده ،
 ويرجف أعداؤه من هجومه ، ونسي أنه أحد هاته الرموز القليلة
 التي يتمثل فيها جهاد شعبه ضد الاحتلال ، نسي هذا جميعه ولم يعد
 يذكر من أمر نفسه الا هذا الخافق الذي عاد اليه الوجيب أعنف
 ما تكون العودة ، فهو في طريقه الى هواه .. الى ماضيه ، بل انه
 في طريقه الى الحاضر .. الحاضر الذي كثيراً ما تمنى لو أنه حققه
 لنفسه .. لقلبه .

حاذى القارب قارب عمه الراسى هناك ، ونزل انى المرسى.
 وطلب الى صاحب القارب أن يعود اليه بعد حين .

جلس وصفى في مكانه المعهود والبيت الذى ألقاه عفو الصدثة.
 يطن في خاطره في اصرار عنيف لا يبتغى عنه حولا .

وقد يجمع الله الشئيتين بعد ما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وفي البيت يدور في ذهنه كنغمة تعودتها الأذن فما تحس بها ،
 وراح وصفى يفكر فيما كان من الأيام التى تفصل بين هذه اللحظة
 التى هو فيها وبين آخر مرة كان فيها هنا .

وفي القصر جلست سهر وحدها .. أتذهب .. أتلتقى به هناك ..
 لا .. لن تذهب .. ماذا أفادت من هذا المكان ، ومن هاته اللقاءات
 التى كانت فيه ، لا شئ الا الحسرة والألم والحزن .. ولكن أكان



الحزن نابتا من اللقاء أم من انقطاع اللقاء .. طريق واحدة .. النقاء
أسلم الى عدم اللقاء الى الحزن .. الحزن منتهاه والألم والحسرة ..

ما الجديد ؟ أهى المرة الأولى التى يدعوك فيها الى اللقاء بعد
زواجك .. ليست الأولى ، لقد طالما جاءت اليك أم وديدة بموعد له
غرددتها .. نعم انك لم تطرديها ولكنك رفضت موعدها .. لم تمنعها
من دخول البيت . لأنه كان يطيب لك أن تعرفى أنه يفكر فيك وأنه
يريد لقاءك .. ولكنك كتبت ترفضين اللقاء .. فلماذا تريدين هذا
اللقاء اليوم ؟

ماذا تريدين من الذهاب .. مكانك .. لا تذهبي .. مكانك
فكبرياؤك أعظم من هذا اللقاء ، وكرامتك أغلى من هذا الحب ..
فهو للحب اذن .. نعم وأدريه .. فلأذهب اذن .. انه الحب يدعونى
وهو كل شيء .. حب أبتر لا يلاقيك فيه .. حب بلا أمل .. بلا أمل ؟
من يعرف المستقبل ؟ من هذا الذى يستطيع أن يؤكد أن لا أمل ؟
وأين لى بالأمل .. مكانك .. فقد مرت السنون ، وأخشى أن ينفض
القلب أغلفة الأيام ، ويصبو الى هواء الأول .. ويحك ! ان الأيام
لم تغلف قلبك . انه ما زال الى حبه الأول يرنو عصى الجمحات ،
واله الخفق . ملتهب الحنين .. مكانك فلن تزيد قلبك الا جموحا
وخفقا وحنينا ، وهل ثمة زيادة للمستريد .. مكانك فلا أمل ثمة
الا سراب ، ولا شيء هناك الا ألم .. لا .. لن أذهب .. ونظرت الى
الساعة ، فاذا هى السادسة والنصف ، فحزمت أمرها على
ألا تذهب .. ولكنها لم تر بأسا أن تنزل الى الحديقة وتسير فى
طرقاتها تحاول ما وسعها الجهد ألا تعود الى ذلك النقاش مع
نفسها .. وسارت تفكر فى ألا تفكر فى موعدها .. وعصيت الخطى

تفكيرها ، فاذا هي عند السلم .. وإذا هي دون وعى تنفض الحديقة
بعينها ، ثم تسلم الى السلم أقدامها ..

— سهير *

— وصفى *

واتمت على المقعد الحجري ، وألقت برأسها الى راحتها ،
وانطلقت في بكاء ، يعلو نشيجه في صدرها ، حتى إذا أراد أن ينفجر
كتّمه حذر وكبر *

وارتمى وصفى الى جانبها حائرا تسيل الدموع على وجهه فياضة
السكب ، صامتا منقيا برأسه الى قبضته : ناظرا الى الأرض لم يجد
غيرها يحتمل نظراته *

وطال بهما الصمت والبكاء لم يفيفا إلا على صوت يأتيهما من
النيل :

— يا بك *

ولم يجب أحدهما ، ولكن الصوت ألح :

— يا بك .. القارب يا بك ..

وقام وصفى الى حافة المرسى ، فوجد القارب وبه صاحبه ، فنفضه
مبلغا من المال ، وطلب إليه أن يعود بعد حين آخر .. وعاد الى
سهير ، فوجدها ترقأ دمعها وهي تقول :

— لماذا ؟ لماذا يا وصفى ؟

— ماذا تريد أن أقول !!

— لماذا ؟

— حمق وجهل وطفولة ورعونة *

— ولكتك أضعت حياتنا .. ألقيت بي الى الشقاء والبؤس والألم

والحسرة .. حياتى كلها أضعتها .. لماذا لقيتني ما دمت كنت تنوى
أن تفعل بى ما فعلت *

— سهر .. إننى أحاسب نفسى حساباً أشد عسراً ، فـدعيني
وما بى ، ولا تريدنى ألباً وحسرة *

— ماذا تريدنى أن أقول .. ماذا تنتظر منى أن أقول *

— سنوات مررن لم نلتق ، ألا تجددين شيئاً تقولينه ؟

— سنوات مررن .. لا .. لم تحسها أنت .. لقد شغلتك الحياة
عن السنوات تمر ، أما أنا فقد أمضى كل يوم من هذه السنوات ،
بل لقد شقيت بكل لحظة فى كل يوم من هذه السنوات .. حرمت
فرحة الزواج : بل شقيت بهذه الفرحة ، وحرمت فرحة الأمومة ،
وأنا أم لطفلين ، كلاهما جميل .. أحبهما ولكنى لم أفرح بمجيئهما ..
حرمت كل شىء جميل ، وكل شىء حولى كان حرياً أن يكون جميلاً
لولاك .. لولاك الذى تجيء اليوم نتقول لى فى سهولة ويسر حق
ورعونة ، ولتقول لى سنوات مررن ! ماذا تدري أنت عن هذه
السنوات ؟

— أدرى الكثير ، أدرى الألم كلما خلوت إلى نفسى أو إلى بيتى ،
أدرى أننى لم أستطع أهوى زوجتى أو أرى فيها غير زوجة بلا حب
جامح عرفته لك ولم أجده لها .. ظننت الحب يأتى هونا مع الأيام ،
فاذا المودة هى التى تأتى لا الحب .. عرفت الليالى الطويلة ،
تصطرع حولى الأحداث ، وأجاهد ما وسعنى الجهد ثم أعدم فى بيتى
اليد المؤاسية والعقل الذى يعى جهادى : والأحداث والصراع ..
أحسست السنوات بطيئة : وانية الخطو ثقيلة الليالى *

— عرفت الليالى ؟! .. لعلك عرفت ساعة من ليلة أو ساعتين ،

أما أنا فالأيام والنيلالى والدقائق واللحظات •• سوداء كلها بلا صراع
ولا أمل ولا حياة ولا شيء •• ماذا عرفت أنت ؟

— بعض هذا يا سهير •• بعض هذا •• كلانا شقى ببيته •

— وماذا تريدنا أن نفعل ؟

— أما أنا فبيدى أن أفعل ، فهل تستطيعين أنت ؟

— ماذا •• إلى أى هدف ترمى ؟

— أنا فى حياة لا أطيق المخى فيها •

— وأنا فى حياة لم أطق العيش فيها •

— سليمان سهل •

— لا •• ليس سهلا •

— تعرفين ضعفه •

— المال والبنون •

— والبنون ؟ !

— إذا كانوا لا يكفون مالا •

— قولى له لا أحبك •

— إنه يعرف •

— قولى له لا أطيق العيش معك •

— أتظننى أستطيع ؟

— ألا يستطيع حبك لى وكرهك له ؟

— لا أدرى •

— اجعلى له من المال ما يريد •

— يرضى •

— إذن •

— وأنت ؟

- أطلق زوجتى ••
- إذن •
- فالليلة تخبرين زوجك •
- أدع لى أن أستطيع •
- حبنا أقوى من الخوف ومن الاشفاق •
- أطبئنى غدا فى التليفون •
- فإلى الغد •

وقامت سهر إلى القصر ، وظل وصفى فى مكانه ينتظر القارب ،
وهو شارد الذهن حيران اللب ، يجمع أمره على أمر ويخشى عواقبه
فيمحو عنه الخشية حب جامح وملالة من حياة يقطعها وأمل فى جديد
من الحياة •

ويصل وصفى إلى منزله ، فيجد البيت خاليا •• ماذا ؟ وكأنما
خشى أن كون زوجته قد أدركت مكان من أمره • ثم ما يلبث أن يعرف
أن أم زوجته تعانى أزمة مريرة ، فلم تجد زوجته بدا من السفر
دون اذنه • فقد أدركت من ارساله للسيارة أنه سيطول به السفر
خارج المنزل ، فركبت السيارة ، وسافرت لم تفتظر •

خلا به البيت •• انقطعت الرتابة التى كان يشكوها •• طابت
نفسه بعض الحين بفراغ البيت •• إنه يستطيع أن يفكر •• وهل
يحتاج إلى تفكير •• لقد استقر إلى رأى •• ولكن •• ولكن ••
مشوق لجعفر •• بل إننى أريد أن أرى زوجتى •• لماذا ؟ أتحبها ••
لا أدرى •• لا تدري ففيم كل هذا ؟ •• ففيم تريد أن تفصل أما
عن أولادها •• لقد جنيت عليها فى أول طريقها إلى الحياة ، فجاءت

بهم • وتريد أن تجنى عليها ثانية بالانفصال عنهم من أجل فكرة
لا تدري إن كانت قائمة في نفسك أم غير قائمة • لا أدري • ولكنى
أريد أن أرى زوجتى • أهى لهو هذه الوشائج التى تقطعها ،
وهذه الآمال التى تمزقها • أهى عبث أطفال • إنها الحياة •
إنها آمال قوم ، ومستقبل أطفال سيظالمهم غدا بحديث أم تركتهم
من أجل رجل آخر ، ومستقبل طفل هو طفلك سيلقاه الزمان وهو
مجرد من حنان الأبوة الذى نعمت أنت به والذى صرت بفضلله
إلى ما صرت • ألا تدري • ألا تدري ؟

ومد وصفى يده إلى التليفون ، وأدار القرص ، دورة واحدة ،
وطلب من الترنك أن يصله بعزبة زوجته •

(١٣)

دلقت سهير إلى القصر فوجدت القصر مائجا ، فالخادومات رائحات غاديات في شغل عنها شاغل ، فممن من تحمل زجاجة وتهول بها ، وأخرى ممن تقف إلى جانب التليفون في دعر لا تكف يد لها عن إدارة القرص ، بينما انهمكت اليد الأخرى في وضع السماعة ورفعها في حركة آلية ليس فيها من فهم أو عقل •• ووقفت سهير في البهو حائرة تلاحق كل سائرة ، أو مشغولة بعينيها ذاهلة النظرة ، مفتوحة الفم ، لا تملك أن تضم شفيتها لتكون سؤالا واحدا يشرح لها الجواب عليه هذا الذعر الذي يسود القصر •

واستطاعت إحدى الخدم أخيرا أن تجمع شتات نفسها وتراها وكأنما انتشلت الخادمة من وهدة عميقة الحيرة :

— ستي •

— خير يا نبوية !

— سيدى أحمد يا ستي •

ولم تزد الفتاة ، وما كانت بحاجة إلى زيادة ، فقد اندفعت سهير في ثورة مجنونة إلى حجرة ولدها :

— ابنى •• ابنى •

ووجدت ولدها صاحب الوجه ملقى لا حراك به على الفراش ، وقد تفتحت عيناه لا تريان شيئا ، يجتذب أنفاسه وكأنما ينازعه

عليها خصم عنيف قوى الأسر ، فما يكاد صدره يخرج إلا حشجة
مجهودة متقطعة غير مكتملة • وارتمت أمه بجانبه :

— أحمد •• مالك يا أحمد ؟

ولو كان أحمد يستطيع نطقا لما كان هذا الذعر الذى انقض على
القصر • وقالت الأم :

— دكتور •• أين الدكتور ؟

وجاءت الخادمة التى كانت بجانب التليفون وهى تقول لاهثة :

— طلبته يا ستى ، سيأتى حالا •

وفزعت الأم إليها :

— طلبته ! أئتم يذهب أحد إليه •• أين السيارة ؟ •• أين عم

ذهب •• لماذا لم يذهب إلى أى دكتور فى الجوار ؟ دكتور ؟ ••

أما زلتن واقفات ••

وانتبهت الخادما إلى صراخ سيدتهن ، فتسارعن إلى السلم

يدعون عم ذهب •

وجلس الأم إلى جانب ولدها •• ولدى •• إياك أن تتركنى ••

إنك كل شئ لى •• إنك أنت •• أنت وحدك الذى أحيا له وبه ••

ولدى •• إياك أن تتركنى •• إننى الوحيدة بين الأمهات التى منحت

وليدها ما منحت •• لقد تلقى الأخريات أولادهن وحب آبائهم

يكلا الجميع •• أما أنا فعانيت من أجلك يوم حملتك ، وعانيت من

أجلك سنوات طوالا عشتها إلى جانب أبيك من أجلك •• لم أترك

أباك فى كل هذه السنين من أجلك أنت •• حياتى الماضية أنت

والمستقبل وما بعد المات ، فالى أين تاركى •• أحمد •• لولاك

لكنك تركت أباك من زمن بعيد .. أحمد .. أنت لا تدري ما أنت لى .
 الأمهات حياتهن موزعة بين أزواجهن وأولادهن .. أما أنا .. أنا
 وحدى بين كل الأمهات التى تتمثل حياتها فى ولديها برغم أبيهما ..
 أنت جهادى لنفسى السنوات الطوال ، أنت الشئ الذى قلبت من
 أجله أبهى سنوات حياتى إلى أنكدها ، إن أحب الأمهات أبناءهن
 لأنهم أبناءهن ، فأنا أحبك أنت وأختك ، لأنكما أبنائى ، ولأننى
 قاسيت من أجلكما المارة والبؤس والشقاء والألم ، قاسيت أن أحيا
 مع زوج أكرهه وأبذل له نفسى ، أحتقره ولا أتركه أمقته وأظل إلى
 جانبه زوجه .. أحمد .. لى فيك ولى عليك حق الأمومة ، ولى فيك
 ولى عليك حق الشقاء الذى ألقاه ، والشباب الذى يمر والسنين
 التى مضت .. سعادة الأمهات بأبنائهن مجرد سعادة ، أما أنت
 فجزائى عن الشقاء بأبيك ، فأنت كل شئ .. فان يكن لحياتى
 معنى .. فأنت .. أنت وأختك .. أحمد .. لا تتركنى .. ارجمنى
 يا رب .. دع هذا الطفل لى يا رب .. فما الحياة بغيره ..
 أرحم يا رب .

ويدخل سليمان هالعا :

— خير ماذا به يا سهير ؟

. — سليمان .. ماذا تنتظر ؟ .. دكتور يا سليمان .. أسرع .

وخرج سليمان من فوره حائرا لا يدري أين يذهب ، لم يعد
 يذكر طبيبا واحدا ممن يعرفهم ، فهو يذهب إلى التليفون ، ثم يبحث
 عن المذكرة التى بها الأرقام التى يحتاجون إليها ، ثم يترك هذا
 جميعه ويهرول إلى السلم ، فما إن يبلغ منتصفه حتى يصعد مرة
 أخرى إلى التليفون ، ثم يتركه ويهم بأن يقضد إلى حجرة ولده ،

متخيلا أنه قد صنع شيئا ، واهما أن طفله قد أفاد شيئا من هذه
الهرولة التي ذرع بها البهو والسلم ، وقبل أن يصل إلى الحجرة
يسمع صوتا من أسفل يقول •

— الدكتور •• جاء الدكتور •

ويسرع سليمان إلى السلم ، ويلقى الطبيب فيرجوه أن يسرع
ولا يجد الطبيب فرصة يسأل فيها عما دعى له ، وإنما هو يقاد
إلى حجرة أحمد • ويفتح الطبيب حقيبته ويخرج حقنة صغيرة يملؤها
دواء ، ثم ما يلبث أن يغرس إبرتها في فخذ الطفل ، ثم يوالى اسعافاته
وهو لا يكف عن ترديد :

— خير يا ستى إن شاء الله •• بسيطة إن شاء الله ، لا شيء
يا ستى •• مجرد إغماء بسيط •

وما لبثت أنفاس الطفل أن هدأت شيئا فشيئا ، حتى انتظمت ،
وغمغم :

— نينة •

وصاحت الأم :

— أحمد •• نعم يا أحمد •• أنا هنا •• الحمد لله على سلامتكم
يا أحمد •

ونام الطفل هادئ الأنفاس ، وطلب الطبيب أن يتركوه
ليستريح ، ولكن الأم أصرت على البقاء ، وخرج سليمان مع
الطبيب •

وما إن خنت الحجرة بالأم وطفلها ، حتى ألقت رأسها على
سرير الطفل ، وانطلقت تبكى في نشيج يمنعه خوف الأم من إيقاظ
ابنها أن يعلو ، وإنما هو بكاء حار مكتم النشيج ، دفاق العبرات ،

ولكنها تمايلكت أمر نفسها فجأة ، وقامت إلى البهو ، فأحضرت
التليفون ، وعلى الضوء الخافت أدارت القرص : ولم تلبث أن وضعت
الساعة ، فقد حمل إليها أزيز الرقم مشغولا عن طلبها ، وبعد
دقائق رفعت الساعة مرة أخرى ، وأدارت القرص نفس الدورات
ولم تلبث أن قالت :

- وصفى •
- نعم •
- أستطيع أن أكلّمك ؟
- أنا وحدي •
- لا يمكن يا وصفى •• لا أستطيع •
- نعم أعرف •
- فلنكن صداقة •
- صداقة عميقة ودائمة يا سهير •
- إلى اللقاء يا وصفى •
- إلى اللقاء يا سهير •

(١٤)

كانت الصلاة جماعة في المسجد الكبير بقرية العواسجة ، ولم يكن وراء الشيخ إلا قلة من الفلاحين ، وقفوا وماء الوضوء يقطر من وجوههم ، وكان يتقدم هؤلاء الفلاحين نفر من الطلبة ارتدوا الجلابيب الأفرنجية ، وغطوا رؤوسهم بالمناديل ، وألقوا بعيونهم الى الأرض في تخشع . وكان ضوء المصباح المرتعش ينسكب على وجه جامد النأمت ، مسبل العينين ، تقوم من تحته بنية قوية التركيب ، ثبته القوام ، وقد ارتدى صاحبه جلبابا أبيض موشعا بالخطوط الحمراء ، وأحكم على رأسه منديلا كان ناسجه يريد له اللون الأبيض لونا ، ولكن عدا على ارادته أيد كثيرة العبث قليلة العناية نزرة النظافة ، ذلك هو السيد أفندى عبد البديع النجل الأكبر لعبد البديع أفندى الذكر وزوجه محبوبة . حصل في عامه هذا على شهادة التوجيهية ، وعاد الى القرية ليهنأ بين أمه وأبيه وأكله بلذة النجاح .

انتهت الصلاة ، وخرج بعض المصلين من الجامع ، وبقي فيه السيد والتلاميذ الآخرون وقلة ضئيلة من الفلاحين لم يتركوا الجامع ، بل ان منهم من استقر على الجلسة التي كان يقرأ بها التحيات ، ومنهم من أخرج قدمه من تحت حسمه وأدارها ، فأصبحت مثنية أمامه ، ثم ألقى ذقنه الى يده ومد بصره في تشوف الى السيد . واتخذ السيد جلسة مستقرة بعد أن أدار ظهره الى

القبلة وراح ييسمل ويحوقل منتهياً لالقاء درسه لدينى ، وقد خلا له الجو ، وانفرد فى الجامع بالفلاحين ، ومن يصغرونه من الطلبة ، منتهزا فرصة جهلهم جميعا ، وفرصة علمه الضئيل الملىء بالخزعبلات والأحاجي • وراح انفلاخون — قبل أن يبدأ — يمصون شفاههم ، كأنهم يختبرون الصوت الذى يصدر عنها ، أشبه ما يكونون بأفراد تختب موسيقى يجربون آلاتهم قبل البدء فى عزف الدور الذى سيعزفون •

وبين أصوات الشفاه يمصها الفلاخون ، وأسئلة صغار الطلبة يطلقونها لاثبات وجودهم ، بدأ الدرس وانتهى •

وخرج سيد منتفخ الأوداج ، مزهوا أن ألقى الدرس على هؤلاء النجوم الميساكين ، وزاده كبرا وزهوا اثنان من مريديه لحقا به ، وراحا يسألانه فى اكبار واجلال :

— منذ متى يا سيد وأنت منضم الى الشعبة الرئيسية فى المديرية ؟

— من زمان •

— ولم تخبرنا يا أخى ونحن معك كل يوم ؟

— لا بد أن أثق بكما أولا لأخبركما •

— وهل لك فئة خاصة تتفرع من هذه الشعبة ؟

— نعم •

— وما اسمها ؟ • • أهى الأسرة التى يقولون عنها ؟

— هذا سر •

— ومن رئيسها ؟

— لا أستطيع أن أقول • • هذا أيضا سر لا أستطيع البوح به • •

— لا بد أنك أنت الرئيس ..

وعلى خيوط القمر الزرقاء رأى الصاحبان شبح ابتسامة تلوح
مخايبها على شفاه السيد ، فصاح أحدهما قائلاً : .

— نعم انه هو .. انه هو يا حسين *

وقال السيد نافيا في لهجة تزيد ظن الصاحبين اثباتا :

— لا يا شيخ .. لا يا محمد .. هذه أسرار يا رجل .. أستغفر
الله العظيم *

وسأل حسين :

— ولكك يا سيد لا حياة لك *

وقال السيد مغیظا :

— أنا بلا حياة .. ألا ترى لحيتي ؟

وقال حسين في بلاهة :

— لا ..

وقال السيد في حدة :

— هات يدك .. هات *

واجتذب يد حسين المسكين وحك بها ذقنه فقال ذاهلا :

— آه صحيح !

— لقد بدأت في اطلاقها قريبا *

وكانت يد حسين لا تزال على حياة السيد حين انغرز كوع

محمد في بطنه ، وهو يهمس :

— أنظر *

ونظر حسين الى حيث يشير محمد فرآها ، فاذا هو بغير وعى
منه • يضرب محمد بكوعه ويضع سبابته أمام شفثيه ويهمس :

— أسكت •• أجننت ؟

وكانت أنظار سيد كلها ناشبة في الفتاة التي تمر منهم على
مقربة ، تمشى رهوا في خفة واصرار ، ولكن أذنه كانت صاغية
الى همس صاحبيه ، فهو يقول :

— ماذا يا محمد •• ؟

وسارع حسين قائلا في لعثمة :

— لا شيء •• لا شيء يا سيد •• لا شيء والله •

فقال سيد :

— يا أخى أنا لا أسألك •• أنا أسأل محمد •

وقبل أن يلفظ حسين مجموعة أخرى من اللاتىء ، قال محمد في
صوت تبين فيه الرغبة الالهية في أن يلقي ما يزدحم في نفسه من
أسرار :

— لا •• لا شيء ••

وقال سيد :

— وأنت أيضا تقول لا شيء •• يخيل الى أن هناك علاقة

بين ناعسة وبين حسين •

واذا محمد يقول في فرحة غامرة :

— شفت يا عم •• أنا لم أقل له •• عرفها هو وحده •

وقال سيد :

— أى علاقة بينكما يا حسين ؟

وتلثم حسين ، بينما استطرد سيد قائلاً :

— قل يا أخى •

وازدادت لعنمة حسين : واشتعلت رغبة السيد فى أن يعرف تفاصيل هذه العلاقة •• كان يريد أن يعرف تفصيل كل وشيجة من هذه العلاقة ، ولم يجد غير مركزه الدينى يركبه ، ليصل الى ما يريد ، قال السيد ضائقاً :

— قل يا أخى •• فكل انسان عرضة للخطأ ، ولكن الاصرار على الخطأ هو الشرك والكفران •

قال حسين فى تردد :

— لا شئ يا سيد •• لا شئ الا ••

— هيه •• الا ماذا ؟

— بوسة •

وقال سيد وقد اتسعت عيناه ، وجف ريقه ، وسرت فى دمائه نشوة نائرة :

— بوسة ؟ •• أين ؟

وتمالك حسين أمر نفسه بعض الشئ وهو يقول :

— فى خدها •

— لا ! أنا أقصد أين كنتما حينذاك ؟

— أتعتقد ان لمكان وجودنا شأنًا كبيرًا من الناحية الدينية ؟

وآن السيد أن يتلثم بعض الشئ وهو يقول :

— لا •• لا طبعًا •• وانما •• أحب أن أعرف المكان ، وسأخبرك

لماذا •

— في الذرة •

وقال محمد :

— وقعت يا بطل •

وصاح سيد في لهجة ظافرة :

— آه •• رأيته ! لم تكن قبلة على الخد اذن •• لقد كانت
قبلة في الفم •• في صميم الفم يا أستاذ •• الذرة لا يذهب اليها من
يريد قبلة على الخد •• هيه ما قولك ؟ !

— والله يا سيد مرة واحدة فقط ، وتبت بعدها ورجعت
الى الله •

— هذا حرام يا حسين •• لا بد أن تتوب الى الله •• وترجع
الى الله •• لا حول ولا قوة الا بالله •• انا لله وانا اليه راجعون ••
لماذا يا حسين •• لماذا •• وماذا فعلت معها ؟
— ماذا ؟

— ماذا فعلت معها •• لعلك ان شرحت لى ، استطعت أن
أطمأنك انك لم ترتكب الا اللمم ، وحسابه عند الله يسير ••
اشرح لى يا حسين •• اشرح لى بالتفصيل •

وراح حسين يشرح ، وكلما أغفل هنة نبهه اليها السيد في
يقظة صاحية ، لا يننى عن القول كلما توقف حسين ليلتقط أنفاسه
« يا سلام » ودون أن يحس حسين يجيب في ذهول نشوان
« والله » •

وأتى حسين القصة وصمت ، وظل ناظرا الى السيد ، منتظرا
منه أن يقول شيئا ، وظل السيد ناظرا الى حسين ، متوهما أو متمنيا

أن تكون للقصة بقية ، وظل الاثنان يحملق كل منهما الى الآخر
فترة لم يدريا أطالت أم قصرت ، حتى تنبه حسين أخيرا وتلفت
حوله :

— الله .. محمد مشى .. أنا أعرف أين ذهب .. مسكين سيمرض

من كثرة اختلاؤه بنفسه •

وقال السيد :

— ماذا ؟

— لا شيء •

— هيه .. وبعد ؟

— وبعد فيم ؟

— في حكايتك •

— حكايتي ! ؟ حكايتي انتهت من زمان •

— وكم دفعت لها ؟

— ربع جنيه •

وهمس السيد لنفسه : ربع جنيه بنت الكلب .. النهاية •

ثم عاد الى حسين :

— هيه .. وبعد ؟

— وبعد فيم ؟

— في حكايتك •

— أقول لك انتهت •

— انتهت ؟

— نعم •

ولكن السيد لم يقتنع بهذه الاجابة ، بل انه راح يسأل مرة

أخرى عن تفاصيل معينة ، في اهتمام شديد ، وانصات واع الى
أن استعاد القصة جميعها على طريقة سقراط من أسئلة وأجوبة ..
حتى اذا فرغت أسئلته ، ظل محمقا في وجهه حسين ، وظل حسين
محمقا في وجهه هنيهة هو الآخر ، ثم قال :

— هيه •

وقال السيد وهو في غمرة من الأفكار :

— هيه ماذا ؟

— أحرام ما فعلت ؟

وانتفض السيد متذكرا السبب الذي أبداه ليستدرج القصة
الى الخرج ..

— آه .. آه .. حرام طبعا .. حرام يا بنى والله .. حرام ..
ولكن الله غفور رحيم .. اذهب الى البيت وصل .. وارج الله
أن يغفر لك •

وانصرف حسين خجلا يتعثر في مشيته ، مزمعا في نفسه توبة
لا يعود بعدها الى هذا الاثم •

واقترب السيد من الطريق الذى عبرته ناعسة ، وأقام مستخفيا
يرصد الطريق من حيث ذهبت ، فهو يعلم أنها عائدة ، فما كانت
وجهتها الى بيتها ، ولا بد لها أن تعود وأنه ينتظر •

كانت ناعسة فتاة ريانة العود ، مليحة القسمات ، وكان أبوها
قد زوجها الى رجل عجوز ، طامعا أن يعوض الرجل ابنته عن شبابه
بالمال الوفير • ولكن الرجل خيب ظن حميه ، فهو وان ملك مالا ،

الا أنه لا يملك الجرأة على اخراج المال ، ففقدت ناعسة في زوجها
الحسنين من شباب ومال • ولم تجد ناعسة خيرا من بيع محاسنها
لتكسب بذلك كل ما خسرت في زواجها •

ولم يعرف سيد هذه التجارة التي افتتحتها ناعسة الا حين
عاد الى القرية ، وقد تقبل هذه الأنباء في تأفف ظاهر ، وفي رغبة
مختفية أن يكون زبونا لها • ولكن عاقبه عن ذلك أمران : أولهما
تظاهره بالتقوى ، تظاهرا يسد عليه المسالك أو يكاد ، وثانيهما قلة
المال في يده ، ولو كانت ناعسة قد بدأت تجارتها قبل أن ينحاز
سيد الى ناحية الدين ، لأصبح شأنه غير هذا الشأن ، ولاحتال
على المال ، وبلغ به من ناعسة ما يريد ، ولكنها تأخرت ، واتخذ
هو مظهره هذا الذي يضيق به غاية الضيق • فما كان مؤمنا بما يقول
أو يفعل ، وانما انضم الى فئة الدين حين أعجزته الحيلة أن ينضم
الى فئة الفجرة ، وان كان الى هذه الفئة الثانية أشد ميلا وأكثر
شوقا • على أن هذا لم يفت في عضده ، فقد وعد نفسه خيرا ،
وطلب اليها الصبر الى أن تحين فرصة في طريق خال •

وها هو ذا الطريق خلا ، وناعسة تقترب منه •

— مساء الخير يا ناعسة •

— مساء الخير يا سى سيد أفندى •

— الى أين ؟

— الى البيت •

— وفيم العجلة ؟

— تأخرت •

- أريدك في كلمتين ♦
- وأى كلام بيننا يا شيخ سيد ♦
- كلام مهم والله ♦
- تفضل ♦ قلّه ♦
- لا ♦♦ لا ينفع الكلام هكذا ♦
- وما الذى ينفع؟
- تعالى ♦
- الى أين؟
- الى الذرة ♦
- الله ♦♦ شيخ سيد !
- ماذا ؟
- شيخ سيد ♦♦ حتى أنت يا شيخ سيد ؟
- لا والله ، وإنما كنت أريد أن أكلّمك ♦
- تكلم ♦♦ المكان الذين نحن فيه يصلح للكلام ، أما الذرة
يا شيخ سيد ♦♦
- شيخ سيد ♦♦ شيخ سيد ♦♦ هل شفتنى ألبس العمامة
والجبة ؟
- لا ، ولكن شفتك فى الوعظ يا شيخ سيد !!
- يا شيخه ♦♦ تعالى ♦
- عيب يا شيخ ♦
- العيب ما فعلته مع حسين ♦

- أقال لك ؟
- نعم •
- طيب •• هل معك المبلغ ؟
- والله ليس حاضرا معي •• أعطيك غدا •
- غدا لا ينفع يا شي •• يا سيد أفندي •• كيف أستطيع أن
أطالبك غدا •• الدفع مقدما يا سيد أفندي •
- وان كنت مفلسا ؟
- فلا أعطك •
- ولكنى أريد أن تعطينى •
- هات كيلة ذرة •
- كيلة ؟ !
- نعم •• كيلة •
- فانتظرينى حتى أحضرها •
- أين ؟
- فى ذرة أبى •• على طرف الغيط من ناحية التربة •
- لا تتأخر •
- حالا •

وانصرف سيد الى بيتهم مسرع الخطو ، فما ان بلغه حتى
خلع حذاءه وتسلك على أطراف أصابعه الى الحجرة التى يعلم أن
بها الذرة ، وملا طرف جلبابه ذرة تزيد على الكيلة ، فما راجعها
فى الكمية الا حبا فى المراجعة ، وخرج سيد متلصبا كما دخل ،
ونفض المكان بعينيه ، وخیل اليه أنه لم ير أحدا ، ومشى سبيله الى
المكان ، وما ان بلغه حتى همس :

— ناعسة .. ناعسة أين أ ..

ولم يكمل الكلمة : فقد انصبت على قفاه يد حديدية صاحبها
صوت أبيه مغيظا صارخا في حلق ، دون أن ترتفع نبراته :

— أهى ناعسة يا ابن الكلب .. وعامل لى شيخا تتقصك العمامة
يا ضال يا زانى يا ابن الكلب .. قدامى الى البيت .. قدامى أنت
وذقتك .. والله لتسافرن غدا الى مصر *

— أبى ؟

— اخرس وامش .. امش *

— انها .. انها ..

— اخرس قلت لك *

ومشى سيد يتعثر في خطاه ، ومن ورائه أبوه ، حتى اذا بلغا
البيت قاد الوالد ولده الى المخزن ، وأعاد الذرة الى مكانها ،
ولم يستطع أن ينتظر حتى يخرجوا من الحجرة ، بل هو يقفل الباب
ويحكم رتاجه ، ويمسك بتلابيب ولده ، ويخلع النعل من قدمه ..

(١٥)

كان أحمد جالسا الى أمه فى احدى غرف القصر حين دخله اليهما
حسام الذى حيا خالته وقبلها ثم جلس .. وقالت سهير :

— كيف حال سميحة وأختك نوال ؟

— بخير والحمد لله .

— لقد قالت لى أمك اليوم انها ستأتى .

— والله لا أعرف ، فأنا لم أقل لها انى قادم اليكم .

وسكنت سهير ، وران الصمت عليهم بعض الحين ، ثم قطعه
حسام متسائلا ، وهو يظهر عدم الاهتمام ، فيخيب تظاهره :

— أين هاء اذن ؟

وقالت الأم :

— يا سيد صمت أن تشتري هى لأخيها ما يلزمه من أقمشة
الطلل والقمصان ليدخل بها الكلية .

— ولماذا لم تذهب أنت يا أحمد ؟

— يا أخى .. أنا لا تهمنى الأناقة ، ولكن نينه هى التى تريد
أن تشتري لى ثيابا جديدة ، وقد صمت هاء أن تختار هى
الملابس .

وقال حسام :

— وهل نزل معها عمى سليمان ؟

فقال أحمد في شبه سخرية :

— وما شأن عمك سليمان بهذا ؟

فقال حسام متلعثما :

— لا .. لا شيء .. ولكن هناء وحدها ؟

وابتسمت سهير في فرح وهي تقول :

— لا تخش شيئا يا سى حسام .. لقد خرجت في السيارة مع

السائق ، ولن تذهب الا الى محل واحد ، وتعود في السيارة ..

اطمئن يا حبيبى ، والله لولا مرضى لخرجت معها .

وازدادت لعنمة حسام ، وقد أحس أنه قد كشف خبيثة نفسه :

— لا .. لا شيء .. لا شيء ولكن ..

وبحينئذ جاء الخادم ليعلن الى أحمد مجيء فوزى عبد المجيد ،

ووجد حسام طريقا آخر يسلك فيه بحديث جديد ، فقال :

— يا أخى فوزى .. هذا لا أطيقه أبدا .

فقال أحمد :

— ولماذا يا سيدى .. لأنه يقول الحق ؟

— أكان حقا هذا النقد الذى راح يكيله لعمى وصفى باشا .

فقالت سهير في اهتمام :

— ينتقدا وصفى باشا .. وأمامك يا أحمد ، كيف تسمح له ؟

فقال أحمد في لعنة :

— انها مرة واحدة ، وقد رددته في خشونة ، وأخبرته أننى

لا أحب أن يذكر أمامى عمى وصفى باشا الا بالخير .

وتدخل حسام ثانية قائلاً :

— ليس هذا فقط ، ولكنه كثير الانتقاد للأغنياء ، وكثير الكلام عن الغنى ، فهو لا ينسى مرة أن يقول : ان الغنى لا بد أن تصاحبه الميوعة والجمود ، وعدم الاحساس بالفقراء ، وكدهم وشقائهم •

وسارع أحمد قائلاً :

— أليس هذا صحيحاً ؟

ودهشت الأم من كلام أحمد ، فسارعت تقول :

— لا يقول هذا الا حاقد •• انما الغنى والفقير بيد الله ، والغنى رجل كد واجتهد حتى أصبح غنيا •

فقال أحمد :

— أنا لا أرى أبى قد كد واجتهد •

وأرتج على سهير هنيئة ، ثم قالت :

— بل انك تعلم أن أباك قد نال دبلوم الهندسة ••

فقاطعها أحمد قائلاً فى سخرية خبيثة :

— من أوروبا •

وأحسست الأم تهكم الابن ، ولكنها تجاهلته ، وقالت :

— وهل ترى أباك غنيا ؟

— هو غنى بلا شك •• انه يعيش عيشة الأغنياء •

— أنت تعلم أنه ليس غنيا •

— اذن فأنت الغنية •• كم اجتهدت أنت وكم كدحت ؟

— أبى كد واجتهد ، حتى يوفر لى السعادة •

— أبوك اجتهد ، فلماذا تستفيدين أنت ؟

— انه لولائى ما اجتهد •• أى غريبة فى ذلك ، انها سنة الكون
الأبناء يخلقون الطموح فى نفوس الآباء ، انك غدا حين تنجب
أطفالا ستعلم كيف يكون الطموح ، وحينئذ تسعى الى أن تجعل
أولادك أغنى الأولاد • تلك يا بنى حكمة الله وسنته ، وبها تدور
عجلة الحياة •

— نعم أعرف •• فكلما أريد لنا أن نسكت فلا نفكر ذكر الله ••
فلماذا لا يعطى الله تفكيرنا حتى لا نفكر فى عدله وحكمته وسنته
وكل هذه الأشياء التى تبدو لنا ، وغيوم الشك تغشاها •

وصاح حسام :

— رأيت يا خالتي هذه أقوال فوزى •

فقال أحمد :

— وانها حق •

وأصبح وجه الأم باسرا قلقا :

— ما هذا الكلام يا أحمد •• ما هذا الذى تقول ؟

— رأى •

— لا تظن أنك بهذا رأى تبدأ طريقا جديدا •• انها طريق

سبقك فيها الكثيرون ، وعادوا عن رأيهم •

— انهم سجناء •• جبنا لا يقوون على فك قيودهم •• انهم

سجناء العادة والوهم والتقاليد ، لو أمعنوا التفكير فكوا قيودهم

لما عادوا • انهم القطيع •

ورأى حسام ان النقاش سحقدم ، ورأى وجه خالته يحتقن ،
وخشى أن تصاب بالنبوة القلبية التي تعاودها ، فسارع قائلاً :

— قم •• قم يا عبقرى انزل الى صاحبك العبقرى الآخر ••

وفهمت سهير ما أراد اليه ابن أختها ، فسكت مذعنة ،
فما كانت تطيق أن تغضب ابنها ، وقال أحمد :

— وأنت •• ألا تنزل معي ؟

— نعم سأنزل معك ، وأمرى الى الله •

وصاحت سهير بالخادمة :

— يا نبوية •• هات سجادة الصلاة •

ونزل الشابان ، وأقامت سهير الصلاة • وبينما هي تصلى دق
جرس التليفون وأجابت نبوية فسمعتها سهير وهي تقول :

— لا يا سعادة الباشا •• انه ليس هنا •

ثم سمعتها تقول :

— انها تصلى •

ثم قالت :

— لا •• لن تتأخر •

وتركت السماعة الى جانب التليفون ، وسرعان ما أنهت سهير
الصلاة ، وانتقلت الى التليفون ليقول لها وصفى :

— أين سليمان ؟

— خرج •

— أنا فى البيت ، بمجرد مجيئه أخبريه انى منتظره •

- هل حصل شيء يا وصفى ؟
— لا أبدا .. ولكن أريد أن أراه في مسألة تهمه •
— طيب •
وبدت هناء صاعدة من السلم ، حتى إذا بلغت مجلس أمها
رأت على شفتيها مخايل ابتسامة يحيط بها شيء من الفرح ، فقالت
لأمها :
— خير .. ما هذه الابتسامة ؟
— لا .. لا شيء ، ولكن ابن خالتك حسام كان هنا ، وزعل
لأنك خرجت وحدك •
فتجهت هناء قائلة :
— وما شأنه هو ؟
— شأنه .. ان له شأننا ليس لأحد .. انه يحبك •
— وأنا أحبه أيضا .. أحبه كما أحب أحمد .. لقد ربي معي
ولا أستطيع أن أنظر له الا كأخ •
فقالت الأم في جد :
— اسمعي يا هناء .. مسألة الأخوة هذه عذر فقط ..
ثم تنهدت من أعماق ذكرياتها ، وقالت :
— من قال ان القريب لا يحب • هناء .. هذا عذر فقط
فاذكرى لى الحقيقة •
— الحقيقة انى غير معجبة به ..
— ولماذا ؟ انه شاب غنى متقدم فى دروسه •
— عقليته يا نينا •
— مالها ؟ !
— عادية .. انسان عادى جدا •
— ألا يشفع له غناه ؟

— على العكس •• أنا أريد انسانا فقيرا ، يغنى بعمله واجتهاده
ونكبر معا •

— هذا هراء يا بنتى •• فأنت غنية ، وإذا تزوجت فقيرا ، فسوف
يركن الى غنائك ، ولا يسعى للغنى •
— يا نينا لا أستطيع أن أفكر فيه كزوج •• انه ابن خالتي
مثل أخى تماما •

— عدنا الى هذا •• وأنا أأست متروجة من ابن عمى ؟
وترددت هناء هنية ، ونظرت الى حيث لا تلتقى عيناها
بمعنى أمها :

— وهل أنت سعيدة يا نينا ؟

وأرتج على سهر ، فما تدري بماذا تجيب ابنتها ، وقبل أن
تصوغ جوابا ، سمعت أقدام سليمان صاعدة على السلم فنادت :

— سليمان •

— نعم •

— وصفى منتظرك فى بيته ، ويريدك أن تذهب اليه الآن •

— الآن ؟

— نعم •

وعاد سليمان طريقه الى الباب الخارجى ، وما أكاد يتركه حتى
دخل البيت عبد البديع ووراءه السيد حاملا حقائبه •

وأرسل عبد البديع الى سهر يستأذنها أن يلقاها فأذنت ،
وصعد اليها ينبئها أنه جاء بسيد ليقم لديهم ، فرحبت به وطلبت
الى عم دهب أن يعده حجرة للسيد ، وينصرف عبد البديع داعيا
لسهر وأولادها بظول العمز والرفاهية ، ولا ينسى عبد البديع
أن يدعو لسليمان بأى خير ، فما كان يرجو له خيرا •

(١٦)

كان وصفى جالسا في بيته ثائر الأعصاب يفكر في هذا الأمر الذى لقيه به وزير الأشغال في يومه هذا .. أى مخجلة تلك التى يطالعه بها أقاربه .. وأى قريب .. انه زوج سهير ، لا يطيق وصفى أن يروى حياة سهير وأولادها بأكثر مما روعها .. انه يشعر أنه المسئول عن هذا الزواج الذى ألقىته إليه سهير .

ولم يشأ جعفر أن يترك أباه في زحمة من ضيقه هذا ، بل هو يدخل إليه يطلب بعض المال ليشتري كتبا جديدة ظهرت ، وقد تعود وصفى ألا يرد لابنه طلبا مثل هذا ، ولكنه في ضيقه هذا يوشك ألا يحفل أمر ابنه ، ثم ما يلبث أن يعطيه ما طلب ، ويخرج جعفر ، وما هي الا بعض دقائق حتى يدخل سليمان :

— خير يا باشا ؟

— أى خير يا سى سليمان ؟

— ماذا .. ماذا حصل ؟

— يا سليمان أنت تعلم كم جاهدت من أجلك ، حتى تصل

إلى مركزك هذا .

— نعم أعلم .

— أليق بك بعد هذا أن تلوث سمعتنا ، ونحن نعتمد على

الشرف في حياتنا ، ونحارب أعداءنا بنزاهتنا ، ماذا يقول الناس

عنا .. ؟

وأحسن سليمان أن وصفى عرف ما ارتكبه ، وأوشك أن يمارى
لحق . ولكنه عدل عن ذاك وارتأى أن يستمر في تغاييه :

— ماذا ؟

— احسان بك عبد الفتاح •

وأرتج على سليمان لحظة ، ثم قال :

— ما شأنه ؟

— ماذا جرى يا سليمان ؟ • أترانى فارغا لهذا التغايى ؟ ••

لقد كنت عند وزير الأشغال الآن وهو الذى أخبرنى ••

— أخبرك بماذا ؟

— بأنك أخذت رشوة من احسان •

— أنا ؟ •• أنا ؟

— نعم أنت •

— لماذا ؟

— لتحفر له ترعة فى أرضه التى اشتراها حديثا بعقد عرفى •

— انه لم يقل انها رشوة •

— فماذا قال ؟ •• هدية ! ؟

— أبدا ، وانما قال انه يتبرع بها •

وقال وصفى ساخرا :

— يتبرع بها •• ! ؟ لماذا •• ؟ هل أصبحت جمعية خيرية على

آخر الزمن ؟

— لا ولكن كنت أفكر أن أشارك فى جمعية العميان ، وكان

الحديث معى فى ذلك الشأن يجرى أمام احسان بك فتبرع بالمبلغ •

— بخمسائة جنيه ؟ ! أهذا تبرع ؟ .. انها رشوة يا باشمهندس
رشوة ..

وحاول سليمان أن يفتعل ثورة :

— لا .. أنا لا أقبل الرشوة .. لا أبدا ..

وقطع وصفى افتعاله في جمود :

— اسمع .. هات الفلوس ..

وامتقع وجه سليمان :

— ماذا ؟

— أقول هات المبلغ ..

— ولكنه ليس معي ..

— انه معي أنا ..

— لا أفهم ..

— لقد دعوت احسان ، وهو قادم الآن ، وقد أعددت له

المبلغ ، وسأعطيه له الآن ، فاكتب أنت لى شيكا بالمبلغ .. الآن ..

— أكتب شيكا ؟ !

— نعم ..

— ولكن ليس معي دفتر الشيكات ..

فقال وصفى في حزم صارم ثمر في ثورة وتهديد :

— سليمان اكتب الشيك على ورقة بيضاء ..

وفهم سليمان كل المعانى التى تصاحب هذا الأمر فسارع يكتب

الشيك مذعنا ، وما إن فرغ من كتابته ، حتى جاء الخادم يعلن قدوم

احسان بك ، فأذن له وصفى ودخل ، وما كاد يجلس حتى أخرج
وصفى من جيبه ظرفا وأعطاه لاحسان قائلا :

خذ هذا •

— ما هذا يا باشا ؟

— الرشوة التى دفعتها لسليمان •

وتلاقت عيون احسان وسليمان ، ثم أطرق احسان خجلا
قائلا :

— ولكنها ليست رشوة يا باشا •

— اسمع •• اما أن تأخذ المبلغ ، فأعتبر المسألة كأن لم تكن ،
وأجعل طلب التربة الذى تقدمت به يسير فى طريقه الطبيعى بلا عرقلة
ولا محاباة ، واما أن ترفض قبوله فأعلم أن التربة لن تنشق أرضك
ما دمت أنا على وجه الحياة •

وبوضع احسان المبلغ فى جيبه فى تخاذل ، وهو يقول :

— أمرك يا باشا •

— على ألا تعود الى هذا يا احسان بك •

— أمرك يا باشا •

— شكرا •

— تسمح بالانصراف ؟

— لا مانع •

وخرج احسان دون أن يدعوه وصفى ليشرب القهوة ، فقد
رأى فيه صورة بشعة تشبه المرأة الداعرة التى تغزى الشباب

بالخطيئة • وجين أراد سليمان أن ينصرف استبقاه وصفى
ليقول له :

— أتذكر حديثا بيننا منذ سنوات بعيدة •• بعيدة جدا حين
جئت لتطلب أول درجة ارتقيتها في سلك الحكومة •

ونكس سليمان رأسه قائلا :

— نعم أذكر •

وقال وصفى في حزم :

— حسنا ، فأنا لا أحب أن أعيد هذا الحديث ثانية ، وبطبيعة
الحال لا لزوم أن تعرف سهير شيئا من هذا ، فمرض القلب الذى
تعانيه لا يحتل هذه الأزمات ، قل لها إذا سألتك عما أردتك فيه ••
قل لها اننى •• اننى ••

وداخل صوته شيء من السخرية وهو يقول :

— قل لها اننى أردت أن أبلغك رضا الوزير عنك •

وأطرق سليمان ، لأنه لم يعرف أين يولى وجهه ، وقال وهو
خارج :

— نعم •• نعم هذا ما سأقول •

وخرج •

(١٧)

شهور مضت تليها شهور وأنا هنا حبيس في هذا البيت أو القصر
أو أى شىء كبير ، لا أملك أنا فيها شيئاً إلا هذه الملابس التى أتلقفها
من أحمد بك • شهور مضت وتنتها شهور ، وأنا حبيس لا أصنع شيئاً
إلا أن أجلس مع أحمد بك ومع صديقه ، هذا المتذاكى الذى لا يكف
عن الانتقاد والسخط •• شهور وأنا أرى هناء •• هناء هانم تأتى
إلينا فى حجرة المكتب ثم تتركنا بعد أن تسمع الحديث الطويل الذى
برع فيه السيد الحكيم ، العالم النابه فوزى عبد الجيد ، ذلك
الحديث الذى ينقيه فلا يجد أحدا يرده ، فالجميع به معجب ، وأى
جميع ! إنهم أو إنهما أحمد وهناء ؟ ألا تكفى هناء حتى أقول
الجميع ، إنها الجميع لا شك ! إنها كل شىء حين أنا لديها لا شىء •
وماذا أكون أنا ، وأنا لا أتحدث فى أى موضوع ، إننى حتى حين
حاولت أن أظهر علمى الدينى لقيت من الجميع سخرية وهزواً ، فما
الدين عند ثلاثتهم بالأمر الخطير ، الدين جميعه لا يهمهم فى شىء ،
فكيف أحادثهم عن أركان الوضوء وإقامة الصلاة وغير ذلك مما
كنت أنال به فى العواسجة التبجيل والتوقير والاحترام •• إن هذا
الفوزى لا يترك مجالا لأحد أن يتكلم إلا إذا جاء جعفر بن وصفى
باشا فهو وحده الذى يقف له بالمرصاد ، ويرده فى عنف حين وفى لطف
أحياناً ، أما حسام فلا شأن له بأى موضوع يتكلم فيه أحد • كل
ما يعرفه أن يظل رانيا إلى هناء ، نظرات تحسها هى ، ثم ما تلبث
أن تنفضها عن نفسها فى زهو وخيلاء إنها كمة أنظار ، ثم لا تفعل

(قصر على النيل)

بعد ذلك شيئاً إلا أن تعجب بفوزى عبد المجيد وحديثه الطويل عن
الغنى والفقر والظلم والعدل والديمقراطية والاشتراكية .. أين
يجد هذا الكلام ♦

وأنا ماذا ألم بى .. لماذا لا أخرج .. لقد ضرب على عم ذهب
حصاراً عنيفاً ، فأنا لا أخرج الا وهو على علم بكل مكان أقصد
إليه ، وأنا لا أنال من النقود إلا صباغة لا تغنى ، وكنت فرحاً أنني
أت إلى مصر أعوض فيها ما فوته على أبى حين أمسك بى عند
الذرة ، فإذا بيده التى انصبت على قفاى لا تزال تلاحقنى هنا بقبض
المال عنى ، وبعيون عم ذهب الرواصد على .. وأحببت هذا الحبس
أول الأمر ، فرحان أن أكون إلى جانب هناء ، فإذا هناء لا تحس بى ،
وكيف لها أن تحس ، وأنا مهما أكن طالبا فى الجامعة فلن أزيد على
ابن عبد البديع ، فان احترمتنى فأنا ابن عبد البديع أفندى ولا زيادة .
شهور مضت وتلقاها شهور ، أفأظل هنا قابعا إلى فتاة ما أظن أنها
ستحس بى يوماً ، أما أن لى أن أخرج إلى الحياة .. لقد رفضت أن
أشترك فى أى نشاط فى الكلية ، حتى تظل فترة المساء كلها خالصة
لهناء ، ولكن ماذا جنيت من كل هذا ؟ لا شيء .. ضياع فى مجالات
الهوى ، وضياع فى مجالات المجد ، لقد رفضت حتى أن أشترك
فى نشاط الجماعة فى الكلية .. والله لن يكون هذا منذ اليوم ، إننى
إلى الحياة خارج .. فافتح لى صدرك أيتها الحياة .. إلى أين ..
أين يمكن أن ألتقى بالحياة ؟ .. على أولاً أن أحدد الجهة .. إنها
شارع فؤاد لا شك فى ذلك ، فالحياة تمور فيه مورا ، والنسوة
لا ينقطعن عنه ذهابا وجيئة ♦

ولكن أى منطقة فى شارع فؤاد خليفة أن أجعلها مرقبى .. إنها

تلك التى يقع فيها محل الأمريكين ••• إن هناك اتفاقا غير مكتوب بين
الفتيات والفتيان أن يلتقوا فى هذا المكان ، فاليه ••

دارت هذه الأفكار فى ذهن سيد ، وهو يختار أجمل ملابس له ،
ويضعها على نفسه ، حتى اذا أتم زينته ، خرج من باب حجرته ،
وصعد بضع درجات ، فأصبح على سطح الأرض •• أرض الحديقة ••
وتلفت حواليه فاطمأن إلى أن عم ذهب غير موجود ، فعبر الحديقة
مسرعا يتحسس الجنيه الذى أوهم عمه ذهب أنه سيشتري به
كتابا لأبد منه للكلية • وبعد حين كان سيد عبد البديع يلوب فى
مكانه حول باب الأمريكين ، والنساء يتهادين أمامه ، يرى الواحدة
منهن فيوشك أن يتقدم منها ، ثم يثنيه عن الأقدام خوف راعد يملأ
نفسه ، وطال به الأمر وهو حائر لا يدري كيف يبدأ حديثه ، وأخيرا
رأى إلى جانبه فتى شديد الأناقة يقف فى مكانه متحفظ النظرات ،
لا تستقر قدماه على حال ، ولا يستقر رأسه إلى جهة ، فهو دائم
التلفت ، يتربص بالشارع جميعا ، حتى مرت به أخيرا فتاة غيداء ،
أنيقة غاية الأناقة ، ما كان سيد ليجرؤ أن يرفع إليها نظره ، فهى
حلوة المشية ، متعالية رفيعة النظرات ، لا تذكره إلا بهناء فى ترفعها
وكبرياء تصرفاتها •

اقتربت الفتاة منه ومن هذا الفتى الذى يقف إلى جانبه ، وكان
الفتى إليها أقرب ، فسارع إليها قائلا :

— مساء الخير •

وذهل سيد حين سمعها تقول فى هدوء :

مساء الخير •

ماذا •• مساء الخير •• دون أن تضربه أو تدفعه عنها ، أو حتى

تسير ولا تلتفت إليه •• أهى مسألة ميسورة سهلة إلى هذا الحد •• مساء الخير ، ثم أضع ذراعى فى ذراعها ونمضى • وأنا هنا واقف منذ ساعات أقدم رجلا وأؤخر ستين رجلا •• ما أغبانى !!

وتربص سيد بالطريق ، وما هى إلا دقائق حتى مرت فتاة أخرى ، إن تكن أقل أناقة من سابقتها ، إلا أنها لا بأس بها ، ولو أنها كانت أقل من هذا بكثير لما تورع عنها •• وأين أولئك النسوة ، أين هن جميعا من أجمل فتاة بقرية العواسجة ، أين هذه الملابس المبهفة ، والنحور العارية ، والأثداء المشرّبة ؟ أين هذا جميعا من ذلك الثوب الأسود الذى ترتديه فتيات العواسجة ، خيبة الله عليهن •• واقتربت الفتاة من مكانه ، فسارع إليها قائلاً :

— مساء الخير •

ونظرت إليه الفتاة فى سخرية ، وسارت فى طريقها دون أن تجيبه. أو تشعره أنها أحست به • ولكنه وقد بدأ الحديث ، أبى أن يترك الفرصة ، فهو يترك مرصده ويسير خلفها :

— مساء الخير •

ولم تلتفت إليه الفتاة ، بل ظلت سائرة فى طريقها ، وأعاد هو التحية مرات ومرات ، والفتاة على حالها من الجمود والتجاهل ، وظن سيد أنها ما دامت لم تزجره ، لن تلبث أن تجيب تحيته ، وعلى هذه الأمنية سار خلفها •• دقائق •• وسمعها تقول شيئاً :

— يا شاويش •• ابعد هذا الأفندى عنى •

وسمع السيد ما قالت ، فثبت مكانه كالتمثال المنصوب ، ولم يقق من ذهوله إلا على الشاويش ساعياً إليه ، فاذا هو ينفض

الجمود الذى أمسك بأقدامه ويروح يعدو عائداً ، حتى إذا وجد الطوار مزدحما بالمارة ، وخشى أن يلحق به لشرطى ، قطع عرض الشارع غير أبه بالسيارات التى تسعى فيه ، ولولا أنه كان يعدو كالصيد يروغ من صائده ، ولولا لطف الله لما وصل السيد إلى الشارع الجانبى سالماً •

ووقف سيد يلتقط أنفاسه •• ويفكر فى هذه المحيبة التى كانت موشكة أن تصب عليه •• لن أعود لهذا •• لن أعود أبداً •• وفى خطوات حازمة مشى السيد إلى هدف آخر ، وقد تحدد مقصده ، وتبين له الطريق •

وقف السيد أمام شاب وقور السمى ، نامى اللحية ، فى وجهه عزم واصرار ، وفى عينه ثورة يخفيها هدوء يغشى ملامحه جميعاً • وكان يجلس إلى مكتب متواضع ، وقف أمامه سيد يقول :

— أريد طلب انضمام •

— وأين تحية الاسلام ؟

— السلام عليكم •• السلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته •• ما اسمك ؟

— السيد عبد البديع الذكر •

— تشرفنا ، أنا عبد العاطى بسيونى •

والتقت يدان فى مصافحة قوية •

(١٨)

كان أحمد جالسا إلى فوزى فى حجرة المكتب التى خصصت لأحمد فى القصر •• إنها حجرة جده ذاتها ، وكان فوزى جالسا فى عظمة ، وقد وضع ساقا فوق ساق ، حين قال له أحمد فى مرارة :

— أ رأيت ! لقد رفضت المجلة نشر مقالتي الأخيرة أيضا •
— طبعا يا أخى • إن كتابتك تقديمية لا تقبلها هذه المجالات البروجوازية •

— إن جعفر ينشر مقالاته بانتظام بها •
— وفيهم يكتب جعفر ؟ •• مقالات تافهة لا أفكار فيها ولا جرأة •
— نعم ولكنه ينشرها •

— لابد أن أباه أوصى به رئيس التحرير •
— أبدا يا أخى ، عمى وصفى لا يتدخل فى هذه الأمور أبدا •
— إذن فرئيس التحرير يجامله من أجل أبيه •
— فلماذا لا يجاملنى أنا من أجل عمى ؟
— مقالاتك لا تصلح لمثل هذه المجالات التافهة •

— فأين أنشر إذن ؟
— سيأتى اليوم الذى تكون لنا فيه مجلة ، وسأنشر أنا لك فيها ، ولكن اسمع ••
— ماذا ؟

- الليلة اجتماع الخلية ، وستلتقى هناك بفؤاد زين العابدين
- قبل سفره إلى موسكو ، فقد عين في السفارة المصرية بها .
- يا أخى دائما تخطيء ، إن اسمه زكى .
- هذا اسمه الحركى .
- والمفروض أننا لا نعرف إلا اسمه الحركى .
- طيب يا سيدى .. علمنى .. علم .
- وأين الاجتماع ؟
- فى مكانها .
- ألم يتغير بعد ؟
- لا .. لم تصدر الأوامر بالتغيير .
- يا أخى أنا غير مرتاح لهذا المكان .
- أنت محق .
- وبعد ؟
- لا شأن لنا .. علينا أن ننفذ الأوامر .
- الأوامر .. الأوامر .. أليس لنا رأى ؟
- الرأى رأى المحترف يا أحمد ، ماذا ؟ أنسييت ؟
- لا .. لم أنس ، ولكنى أخشى .
- المفروض أننا لا نعرف الخشية .
- أعرف .
- موعدنا الليلة الساعة التاسعة مساء .
- وطرق باب الغرفة ، ودخل سيد :

- السلام عليكم ورحمة الله •
- أهلاً أبا السيد •• ذقنك •
- مالها ياسى أحمد •• دع ذقنى فى حالها •• يكفينى ما بى •
- خير يا سيد •
- من أين يأتى الخير ؟
- من ذقنك يا أخى •
- يا أخى صل على النبى ••
- لا •• لا لزوم لذلك •
- أنت حر •• الليلة اجتماع الأسرة •
- فقال فوزى مسرعا :
- أين ؟
- لا شأن لك ياسى فوزى •• نحن أيضا لنا أسرارنا •
- طيب وماذا يضايقك فى هذا •
- يضايقنى أننى لم أذاكر منذ أسبوع ، والعوض على الله فى هذه السنة •
- فقال أحمد :
- الملحق يا أبا الصيد •• البركة فى الملحق •
- كل عام ملحق •• أنت لا تعرف الذل الذى أراه من أبى حين يعرف أن عندى ملحقا •
- فقال فوزى :
- لا عليك •• الملحق فى سبيل الله •• فى سبيل الحق •

فقال سيد :

— ماذا جرى ياسى فوزى ؟ .. على كل حال أحسن من الملحق فى
سبيل الرفيق .. فى سبيل الشيطان •

وقال أحمد مغیظا دون أن یبین عن غیظه :

— أى شيطان یاسى سيد ؟

وقال السيد متخاذلا :

— الشيطان الرجيم یا سيدى .. الشيطان الرجيم •

وفتح باب الحجرة ودخلت هناء :

— مساء الخير یا جماعة •

فسازع فوزى قائلا :

— إن تحيتك هذه للسيد وحده .. فهو الجماعة •

فقال سيد فى هدوء :

— لا یا سيدى ، فسيد وحده هو المستثنى من التحية •

فقالت هناء :

— مساء الخير یا أولاد •

فقال فوزى :

— عظيم .. أصبحت التحية لنا جميعا •

والتفتت هناء إلى أحمد تقول له :

— أقرأت خطبة عمى وصفى فى البرلمان ؟

— لا ..

— انها .. رائعة ..

وقال فوزى فى تعاضم :

— أما ترالبون تهتمون بهذه التفاهات ؟

فقال هناء فى تعجب :

— خطبة وصفى باشا فى البرلمان تفاهة •

— طبعا •

— الجرائد كلها تعلق عليها ، والناس لا حديث لهم إلا الخطبة •

— الجرائد عبارة عن كتاب مأجورين ، والناس ما هم إلا

ببغاوات •• لا أعتقد أن فتاة لها عقليتك الواعية الذكية تهتم بأراء

الجرائد أو قطيع الناس •

وقال سيد مغیظا :

— الناس ببغاوات وقطيع ، والجرائد مأجورة ، ومجلس النواب

تفاهات ، فما الذى يعجبك فى مصر ؟

فقال فوزى فى كبر :

— أنا •

وقال سيد فى ثورة يحاول جهده أن يكتمها :

— فقط ! •

— ومن يرى رأى •

— ومن يخالفك ؟ •

— لا يخالفنى إلا معرض جبان مقيد بالتقاليد العفنة وبالرغبات

الحقيرة •

وتلثم سيد ، وحاول أن يجمع إجابة ترد فوزى إلى بعض

تواضع ، ولكن قبل أن يتكلم دخل جعفر وحسام ، وقبل أن يتبادل

الداخلان التحية مع الجالسين ، سارع سيد قائلا ، وكأنما هو غريق
يجد منقذه :

— الله أكبر •• جعفر بك جاء •• سيرينا أو سيرينا أنا
شخصيا من الرد عليك •• أنقذنا يا جعفر بك — أنا في عرضك —
فوزى يا جعفر بك •• فوزى يا أخى سيقتلنى بغروره •

— أولا وقبل الكلام عن فوزى ، ما هذه البك التى عادت إلى
الظهور فى كلامك ؟

— والله تعودت ، سمعت أبى يقولها •• تعودت يا بك ••
يا جعفر •

— نحن زملاء ، ولا أحب مطلقا هذه الطريقة •• والآن فلنعد
إلى فوزى •• ماله •• فيم يتعبك ؟
— لا يعجبه أحد فى البلد إلا نفسه •

— هذا من حقه يا أخى •• ومن يعرف ؟ لعنا جميعا نعجب بنفوسنا
هذا الاعجاب •

فقال فوزى :

— أنا أتكلم عن الجرائد والناس ، وأرى أن الجرائد كلها مأجورة •
والناس قطيع وبيغاوات وجهلة •

فقال جعفر :

أى ناس ؟

— الشعب •

— الشعب ؟! الشعب الذى تريد له المساواة قطيع وبيغاوات •
— وما دخل هذا فيما أريده له ؟

- سبحان الخلاق العظيم •• إن مذهبك يرمى إلى جعل الشعب على درجة متساوية في الغنى ، ومستوى المعيشة •
- لا يا سيدي ، ليس هذا فقط ما أريد ، وإنما أريد أن أثقفه •
- من هذا الذي يريد ؟
- المذهب الذي أراه •
- وهل المذهب سيثقف الشعب من تلقاء نفسه ؟
- لا •• سيقوم بذلك زعماءه •
- ومن سينتخب هؤلاء الزعماء •• هل الشعب هو الذي سينتخبهم ؟
- نعم •
- أهذا ما يحدث ؟
- إنهم الآن في فترة انتقال ، ولا بد أن يفرض الزعماء لفترة معينة ، ثم ينتخبهم الشعب •
- ومن الذي يفرضهم ؟
- هم يفرضون أنفسهم •
- ومن يعطيهم هذا الحق ؟ •• كيف لهم أن يعرفوا أنهم أصلح الناس للحكم ؟
- لابد ممن يحكم ، وهم يملكون الجراءة •
- الجراءة وحدها ؟
- لا أنهم •
- بأي قوة يفرضون أنفسهم ؟
- بقوة السلاح •

— إذن فأنتم ترغبون الشعب أن يقبل حكما لا يريدكم ،
وترغبون الشعب أن يرضى بلون من الحكم لا تعرفون رأيه فيه ،
وترغبون الشعب على أن يقبل نوعا من الحياة لم يتعودها ، ثم تتغنون
بالحرية التى يجب أن يتمتع بها الشعب وبحق الشعب فى الحياة ،
ولا تخلجون مع هذا أن ترموا الشعب بالجهل وبأنه قطيع •

— إنها فترة انتقال •

— إن فترة الانتقال فى ظل الدكتاتورية لا تنتهى •• لأن الحاكم
حين يصل إلى كرسى الحكم ، يعلم أنه وصل إليه على غير حق ، فهو
يحيط نفسه بالحرس ، ويفرض أوامره ، فاذا هى قوانين ، وينهب
الأموال ، ويعيش عيشة رغدة بلا رقيب ولا حسيب ، فالذين
حولهم جميعا يتمتعون بما يتمتع به من رغد ، وتنشأ طبقة حكام
أغنياء ، وطبقة محكومين فقراء ، وبناء على نظريتهم ، لابد أن
تقوم ثورة أخرى لتتقم المساواة فى الرزق ومستوى المعيشة ، ويسقط
هؤلاء الحكام ، ويتولى الحكم حكام آخرون ، وتتكرر المأساة ،
وكل حكم جديد يحتاج إلى فترة انتقال •• فان سألت : انتقال
إلى ماذا ؟ وإلى أى مدى يدوم هذا الانتقال ؟ فلن تجد جوابا ،
ولكننا نحن نعرف الجواب •• إنه انتقال إلى الآخرة •

— نحن •• عن أى نحن نتكلم ؟•

— نحن أعداءكم الذين نحب الديمقراطية •• الشعب يختار
حكامه ، ويختار من يمثله ليحاسبهم ، وتقف مهمته عند هذا ليفرغ
إلى حياته •

— تقف مهمته !•• والذين يمثلون الشعب هؤلاء •• أيقف عملهم

عند محاسبة الحاكمين ؟ أم أن عملهم الأساسى الرجاء لدى الحاكمين ،
والسعى لائجاز الخدمات والمصالح ؟

— أولا أنا أحادثك عن النظام الديمقراطى فى عمومہ ، وأنت
تحدثنى عن النظام الديمقراطى فى مصر .. وعلى كل حال الذين
يسعون لدى الحاكمين يريدون أن يصنعوا خيرا لأفراد من الطبقة
التي لا تستطيع الوصول إلى هؤلاء الحاكمين ، وما أرى فى ذلك
بأسا .

— والرشاوى التي يدفعها هؤلاء الفقراء ؟

— ذلك هو الفساد ، وهو فساد أشخاص ، وفساد الأشخاص
لا يعنى فساد نظام .

— نظام متعفن .. رأسمالى اقطاعى يقوم على النهب ، واستلاب
أموال الناس ، قلة ضئيلة تبتلع أموال أمة .

— إذا بدأت الشتيمة فى النقاش ، فمعناها أن الحجة ضاعت ،
وعلى كل حال أنت تجور فى حكمك ، لأن هؤلاء الذين تقول عنهم أنهم
يأكلون أموال الأمة هم الذين يدفعون الضرائب ، وهم الذين يعولون
من حولهم من الفقراء ، ويمدونهم بالعون .

— يعتقدون أنهم متفضلون .. إنهم يعطون الفقراء من حقهم .

— لا يا سيدى .. إن الله قد شرع نظاما للزكاة ، وإن كثيرا من
الأغنياء يطبقون هذا النظام ، وإن الضرائب التي تفرضها الحكومة
هى نوع من الزكاة التي شرعها الله .

وتدخل أحمد فى الحديث :

— الله •• الأفيون •• المخدر الذى تسكنون به القطيع من
أبناء الشعب •

— أحمد •• أنت فى أشد الحاجة إلى هذا المخدر •• لن أناقشك
فى الله •• فانا نحسه أولا ، ونؤمن به ، ثم نفكر فيه •• فحين تؤمن
به وتحسه ، سأناقشك •

— تهرب من النقاش ؟

— لا ، وإنما أكبر الله أن يكون محل نقاش تافه كهذا •• سبحانه ،
إننا نؤمن به ، ونحب أنفسنا ، لأنها تؤمن به ••
وقفز سيد واقفا :

— يسلم فمك يا جعفر بك •• بك واحدة •• يا جعفر باشا
يا جعفر ملك •

وقال أحمد ضائقا :

— هرج يا أخى هرج •• يا أخى ألا تتوقر من أجل ذقنك هذه ؟
وقال حسام فى ضحكة عريضة :

— هرج يا أبا سيد هرج ، ولا تهك الذقن ، فوالله لا يعجبني
فيك إلا قلبك الأخضر مع ذقنك الوقور هذه •

وخرج فوزى من الحجرة جادا ، وترك من فيها يضحكون من سيد ،
وبما لبث أن عاد وهو يقول :

— أستاذنا أنا •

وقبل أن يتكلم أحد ، مد يده مضمومة إلى هناء ، فمدت يدها
إليه لتستقبل تحيته ، فإذا أنامله تنفرج فى يدها عن ورقة صغيرة

محكمة اللف ، وذهلت هناء هنيهة ثم ما لبثت أن تماكنت أمر نفسها ،
وسحبت يدها من يده ، وقد أصبحت الورقة فيها •

وكان أحمد مشغولا بآثارة جعفر ، وحسام مشغولا بالسخرية
من السيد ، ولم يكن منتبها إلى هناء إلا السيد الذي رأى كل شيء ،
فانعقد لسانه واجما في ذهول حيران ، يهم أن يمسك بتلابيب فوزى
ويقتله ، ولكن يردده عن ذلك خشية أن يذيع ما ينبغي له أن يخفى
لا سبيل أمامه غير الصمت ، فيضمه على ثورة في نفسه تغتلى ، فما
أسباب الحياة • وينشغل القوم في توديع فوزى ، ويجد السيد أن
وكبر المحب ، ووفاء المعترف بالفضل لهؤلاء القوم الذين يمهّدون له
من أمر هناء ، ويرد نفسه إلى الصمت فتثور عليه في عزة الفلاح ،
يهدأ لها أوار •

وما يكاد فوزى يخرج حتى يقول حسام :

— هناء •• هل رأيت سيارتنا الجديدة ؟

فما يند عن هناء غير « هيه » ذاهلة ، فيقول حسام :

— هو •• أين أنت •• أقول لك هل رأيت سيارتنا الجديدة •

ويقول السيد في نفسه : « يا خبيثك الكبيرة •• أتسألها أين هي
سارحة •• اعلم يا خائب أنها سارحة في شيء قريب جدا منك ومنها ••
في جيبها يا خائب •• مديك إلى جيبها •• ولكن لا •• لا تفعل ، فأنا
أخشى عليها أن تفجع في سرها •• وقاها الله السوء •• ولكن السوء
كله في جيبها هذا •• أدركنى برحمتك يا رب •• ألهمنى الرشاد ••
ماذا أفعل ؟ •• أترانى أفكر في أمرها من أجل وفائى لأهلها ، أم من
أجل حبنى لها •• سؤال عجيب ، لماذا لا يكون للسبين كليهما ••

المهم الا أترك ابن الضائعة هذا يأخذ الفتاة من أهلها .. وهن
 أستطيع .. نعم إني أستطيع .. إني سأرقب هذا الفتى ، فما
 أجعله يغيب عنى لحظة .. وكيف .. إني ذاهب الآن إلى اجتماع
 الأسرة .. لن أذهب .. طيب ، وكيف أستطيع أن أراقبه إذا ركب
 سيارة أحمد .. ما أظن أنى فى حاجة للمراقبة عندئذ ، فانه لن يذهب
 فى صحبته إلى لقاء غرامى مع أخته .. وما البأس على إذا أنا راقبت
 هناء .. هذا أجدى .. أم تراه أمتع .. يا أخى فكر فى هذه المصيبة
 أولا ، ثم فكر فى حبك اليأس .. على كل حال أنا هنا .. رقيب عليك
 يا ست هناء .. أينما ذهبت ، فأنا حيثما تذهبن .»

وصحا السيد من غمرته ليجد النقاش لا يزال يدور حول سيارة
 حسام ، فجعفر يقول :

— عجب أنت يا أحمد .. تركب سيارة فاخرة وتعيش فى قصر
 باذخ ، ثم تأخذ على الناس أن يركبوا ما تركب ، ويسكنوا فى مثل
 ما تسكن .

— هذه ليست سيارتى ، ولا هو بيتى .

— يا أخى .. بع السيارة وتصدق بئمنها على الفقراء .
 — هذه مشكلة تافهة ، فما ثمن سيارة وسط مستنقع الفساد ..
 النظام جميعه فاسد ، رأسمالى برجوازي .. إني بسيارتى
 أخدم الهدف الذى أسعى إليه ، ولو أن هذا سر ما كان لى أن
 أبوح به .

— والله إن لم تبج به لما أحسست بالمتعة التى تحسها فيه ..
 إنك لا تمشى خلف مذهبك هذا إلا من أجل ما تتوهم أنه أسرار ..
 تهاويل وطقوس ومراسم هى التى تغريك .

— هذا كلام الانحلالين •

وقفز حسام عن كرسيه فى غضب :

— ليست هذه عيشة •• إن واحدا منا لا ينطق بكلمة حتى
تتقلب إلى مناقشة وبرجوازية وانحلالية وديمقراطية وزفتية وبعد ،
ألا نرتاح من هذه المصائب لحظة •• قل لى يا حبيبى يا أحمد •• قل
لى يا أخى •• أعتقد أن الرفيق الأعلى ، أقصد ستالين بالطبع ••
أعتقد أنه لا يضحك أبدا •• أعتقد أنه لا يتكلم فى شيء آخر غير
هذا الهذاء الذى تقوله •• إذن فعيشته سوداء •• أنا خارج يا أخى •
واستمروا أنتم فى نقاشكم ••

وضحك جعفر ، وهو يقول :

— اقعد •• اقعد •• ولن نتكلم فى هذا •• اقعد وهرج كما
تشاء •

— لا يا أخى لن أقعد •• أنا ذاهب يا أخى إلى أصدقاء حمير
مثلى •• يتكلمون عن •• النهاية •• هناء معنا •• يتكلمون يا أخى
كخلق الله الآخرين •• نضحك يا أخى نتمتع بحياتنا ولا ننكدها ،
السلام عليكم •• يا هناء قولى لخالتك إننى خرجت ، وسأرجع متأخرا
بعد السينما •

وقالت هناء :

— خالتى هنا •

فقال حسام وهو واقف بالباب :

— نعم إنها فى الدور الأعلى مع خالتى ومعها نوال •

وخرج حسام ، وقامت هناء وهى تقول :

— سأصعد إلى خالتي فاني من زمن لم أرها •

وقال جعفر :

— وأنا أيضا سأصعد معك لأرى عماتي •• ألا تأتي معنـ
يا أحمد ؟•

وقام أحمد متناظلا وهو يقول :

— آتى •

وخلت الغرفة بالسيد ، فأبقى بابها مفتوحا ، واتخذ لنفسه كرسيـ
مواجه للباب ، ليرى هناء إن هى حاولت الخروج •

صعد الثلاثة الى الدور الأعلى وتبادلوا التحيات ، وجرى
الحديث بين الجميع ، والتقط جعفر طرفا منه وراح يتحدث ، ورأى
أحمد الجميع ينصتون الى الحديث ، يضحكون أو يبدون اهتمامـ
يرتاح اليه المتكلم •• وراح يسائل نفسه •• لماذا لا يستطيع هو
أن يتكلم •• بل لماذا لا يستطيع أن يفعل شيئا على الاطلاق ••
جعفر يكتب في المجلات ، وأنا أكتب ولا أستطيع أن أنشر شيئا ••
بل اننى لو خلصت الى ضميرى لحكمت على ما أكتب بأنه غير
صالح •• ولقد لجأت الى الكتابة بعد أن حاولت الرسم فلم أفلح
فيه •• ولن أنسى يوم أحضرت لى أمى هذه الكمنجة الفخمة ، ثم لم
أستطع أن أعزف عليها شيئا •• لا شيء أنا •• لا شيء على الاطلاق ••
اللهم الا المذاكرة والنجاح • المصيبة أن جعفر والرسامين من اخوانى
والموسيقين ، أغلبهم يذاكر وينجح ، فبماذا أمتاز عليهم • اننى
فى هذا البيت اله •• ان أحدا لا يتمتع فى بيته أو فى ملكه كما
أتمتع أنا ، اشارتى أمر ، وكلمتى تقديس ، وأوامرى تنزيل من حكيم
عليم ، على حد احترامهم للحكيم العليم •• ولكنى إذا تركت هذا

البيت فما أنا .. أنا لست شيئاً الا منذ انضمت الى اخواني هؤلاء .. أحسست أنى أفكر للكون جميعه ، وأرسم الخطه للعالم أن يسير عليها .. أنا فى ذلك المكان شىء خارج عن قطيع الناس ولكنى أريد أن أكون فيه ذا سلاح .. نعم لم يبق لى الا القلم .. انه أسهل الفنون ، فما يحتاج الأمر فى الكتابة الا أن أخط على الورق .. ولكن هؤلاء الصحفيين لا يعترفون بى .. يقول جعفر «اقرأ» فهل قرأ هو .. نعم .. أظنه فعل .. ولكن جعفر آسن العقل ، لا حرية فى تفكيره ، ولا فى اتجاهه .. مقيد بالتقاليد الآسنة .. الحمد لله أنه كذلك .. والا انضم الى جماعتى .. وحينئذ لن أكون أنا شيئاً .. بينما أنا الآن بينهم كاتبهم الأوجد .. لأن أحدا منهم لم يحاول الكتابة .. ولكن ماذا أكتب لهم ؟ ! .. بحسبى أنهم يطلقون على لقب كاتبهم .. وما هو بالشىء الهزيل .

ونظر أحمد فى ساعته ثم قال :

— سأترككم أنا فائى على موعد .

وقالت أمه :

— أى موعد ؟

فأخطأ أحمد عن عمد وهو يقول :

— اجتماع .

ثم قال وكأنه يستدرك :

— اجتماع مع بعض أصدقائى .. سنذهب الى السينما .. سلام عليكم .

وكان جعفر مدركا لكل التصنع الذى افعله أحمد ، ولكنه

سكت •• بينما تعلقت عينا هناء بأخيها هنيهة ، حتى اذا خرج من باب الغرفة لحقت به ، وقبل أن يهبط الدرجة الأولى من السلم قالت له :

— أحمد •

ووقف أحمد :

— نعم •

— تأكد من خلو المكان من الجواسيس يا أحمد •• واذا

شككت في شيء فارجع يا أحمد •

فقال أحمد في تعاضم :

— لا تخافى •

ثم راح يهبط السلم وهو يحس بعيني أخته وهما ترقبانه ، فزاده هذا شعورا بالكبر والأهمية • وما لبث أن نفّض عن ذهنه كل ما فكر فيه حين كان جعفر يتكلم •• فهو الآن واثق •• واثق كل الثقة أنه شيء •• بل انه كل شيء •

(١٩)

قصد حسام الى بار الشباب حيث تعود أن يقصد ، كلما ضاق
باعرض هناء عنه ، أو كلما شقى بهذه الأحاديث الطويلة التي
يسود بها جعفر وأحمد وفوزى الحياة في وجهه •

الى هذا المكان يقصد ، وفيه أصدقاؤه الذين نبتوا معه من
مغرس واحد وفي هواء واحد ، تنفسوا الطفولة معا وما هم أولاء
يتنفسون شبابهم في اقبال عليه وتقدير له والتذاذ بل اجنلة
تجمعهم حول شبابهم هذا المرح الطليق •

انهم أبناء الحى ، جمعهم السكن ، وأحاطت بهم جدران
الأفنية وأسوار الحداثى منذ هم أطفال يحملون ، أو منذ هم
أطفال يتعثرون ، ثم ما لبثت أن ضمتهم جدران الفصول وأسوار
المدارس ، فأصبحوا وهم متلازمون قل أن يتفرقوا ، ثم اتجهوا
الى الجامعة وقد مال أغلب جمعهم الى اختيار كلية واحدة ، لا عن
رغبة في هذه الكلية ، وانما كان شأنهم في ذلك شأن القطيع ،
يسير خلف واحد من أجزائه ليس بأحسنه ولا هو بأحكمه ، وانما
سار طريقا معيناً بلا سبب ولا باعث ، وسار القطيع من خلفه ليعنى
نفسه من التفكير في طريق آخر •

وكان أصحاب حسام يأخذون حياتهم في يسر كما يحب أن
يأخذها هو •



آبأؤهم يقومون عنهم بما يحتاجون اليه ، وهم الى الدرس وعنه رائحون غادون بياض النهار ، ثم هم مجتمعون على لعب حين كانوا أطفالا ، وقد راح هذا اللعب يتطور مع أعمارهم ، فبعد أن كان جريا بلا هدف ، شب قليلا ، وأصبحت الكرة تحدد أهدافه ، ثم شب مرة أخرى فأصبحت المرأة هي التي تحدد الأهداف والمتجهات . وقد يتخلف في مرحلة من مراحل اللعب فرد من القطيع ، ولكنه لا يننى عن ملاحقة اخوانه في مراقى حياتهم ، فان أحب واحد من الصحاب الكرة وظل يلعبها ، فما يثنيه ذلك عن أن يحب المرأة ، بل لعله أحب الكرة ليغرى بها المرأة ، أو لعله أحبها كبقية من ذكرى الطفولة ، وأخلاف من عمر حبيب ، وهكذا سار القطيع ، ان تخلف فرد تخلف بفلذة من كيانه ، ولكنه هو بجميعة يظل سائرا حيث يسيرون .

وكان « بار الشباب » أحدث مكان تواضعوا على الالتقاء فيه ، فهو حجرة قابضة في حى العباسية ، لا تكاد تتسع لغيرهم ، وأمامها رحة بدائية الاعداد ، ويتنقلون هم بين الرحبة والحجرة حسبما يكون الجو ، ويتصدرهم أينما يجلسون سعد الصاحب أعظمهم جسما ، وأطولهم لسانا ، وأكثرهم حديثا عن مغامراته مع النساء . وقد حلت النساء عنده محل الكرة التي كان يروى لهم أيام غرامهم بها ، كيف هو قدير على التحكم فيها واصابة الهدف بها ، فان سألوه كيف وهو على هذا السمن المفرط ، ضحك وأخبرهم أن سمنه هو الذى يسهل الأمر له ، فما على زملائه في الفريق الا أن يسلموا الكرة الى قدمه ، وقدمه — من بعد — كقيلة بأن تصيب بها الاصابات جميعا ، وما عليه هو الا أن ينقل قدميه في هدوء وعظمة ، حتى يصل الى الهدف ، فما يجرؤ واحد من الفريق الآخر

أن يتقدم منه ، وكان اخوانه لا يحاولون أن يختبروا هذه العظمة فيه ، فهم يعرفون قدرها تمام المعرفة • وكبرت الكرة وأصبحت امرأة ، وأصبح يقص على اخوانه تجاربه مع النساء •• مع جمع كبير من النساء ، كما كان يكتفى بغير الكثيرات منهن • وقد كانت قصصه عن النساء أمتع ، وكان اخوانه يحبون منه هذا الحديث ، لأنه خفيف الظل حين يسوقه ، ولأن هذا الحديث بالذات يدغدغ فيهم كوامن رغبات لاهبة •

على أنهم كانوا يعرفون طريقهم الى النساء ، وكان سيبلهم الى ذلك عبد الجواد أفندى الذى يبيع لهم السجائر فى « بار الشباب » وكانوا اذا شاعوا ، طلبوا اليه امرأة أو امرأتين حسبما يكون عددهم يوم يطلبون ، وكان عبد الجواد أفندى يهين لهم كل ما يحتاج اليه الأمر من غرفة الى غير الغرفة ، وكان سعد دائما يشاركهم فى هذه الاجتماعات ، فما يفت ذلك فى عضده ، أو يثنيه عن ذلك القصص الذى يرويه عن النساء •

وكان حسام من أهم أعضاء الندوة ، وما كان حبه لهناء ليمنعه عن شىء مما يفعلون ، فقد كان الأمران فى ذهنه مختلفين كل الاختلاف ، وقد كانت هذه الطريقة فى التفكير مسيطرة على أذهان اخوانه جميعا • فهناء حب وزواج وبيت وأولاد وصلاح وتقوى ، وأما بار الشباب وعبد الجواد أفندى فضحك ومزاح وسخريه من كل شىء واقبال على كل شىء ، واستقبال للحياة كأروع ما تستقبل الحياة ، فما عرف هؤلاء الأصدقاء أحلى من هذه اللحظات التى كنات تجمعهم مهما يكن سبب اجتماعهم هذا •

وقد كان حسام لا يجرى وراء امرأة ، ولا يستخدم سيارته في تصيد محبات السيارات ، فما كان يجب من النساء الا هباء .. والا ما يحضره عبد الجواد أفندى وبتوصية من الاخوان ، وبحيث يشارك هو في الموضوع بالمقدار الذى يشاركون به . ثم لا يهتم بأمر من النساء بعد ذلك أبدا .

ولم يكن « بار الشباب » مكانا لا تقدم فيه الا الخمر ، بل ان الصحاب قليلا ما تناولوا الخمر ، فان فكروا فيها فالمامة العازف عن الشئ لا يوغل فيه . وكذلك كان شأن حسام ، فما أحب الخمر يوما ، وما شربها الا مكرها ليجارى الرفاق ، ولا يتخلف عن شئ يفعلون ، ولكنه لم يزد ، لأنهم هم لم يزدوا الى الدرجة التى تتحول بهم من حساة الى سكارى .

قصد حسام الى بار الشباب فى يومه هذا ، فوجد الجميع قد سبقوه ، ووجدهم واجمين بعض شئ ، وسعد بينهم ، وأمامه كأس مترعة ، وعلى وجهه أمارات ألم يحاول أن يخفيها ، فتنحسر حيناً عن وجهه لتبدو على وجوه اخوانه جميعا ، ثم يختطف الكأس فيفرغها فى جوفه سريعا ، ويطلب أخرى ويتكلم فى محاولة هزيلة للمرح لا تلبث أن تلثب أن تعيد الألم متنقلا بين وجهه ووجوه اخوانه ماثلا دائما فى الجو المحيط بهم .

وقعد حسام باهتا دون أن يدري ما هم فيه ، ولا ما يرويه عليهم سعد ، فما تعود من سعد أن يروى غير ما يزيل كربهم ويروح عنهم ، وسمعه يقول :

— أراكم متألمين .. أيهكم شأن هذه البنت .. ما أكثر

البنات اللواتى وقعن فى حبى .. ألم يبق الا هذه القبيحة ، أنا لم
 يضايقنى الا قولها يا « سمين » .. وكنت طول هذه السنوات أحبها ..
 وكنت أظنها تحبنى .. هات كأسا أخرى يا بنى .. والمصيبة أن
 أباه .. عمى هذا الجلف يطردنى من البيت .. أنا لم أصنع شيئا حتى
 يطردنى .. لم أصنع شيئا على الإطلاق ، ولكن كيف لم أصنع ! ..
 ان أبى فقير .. فقير كأبيها يا ناس ، ولكن جاءها الولد ومعه العربة
 فأنا سمين وأبى فقير بنت ال .. النهاية .. ولكن أبوها عمى .. يطردنى
 وأنا لم أقل شيئا ، طردنى والله ، لأنى أنتقد أن تخرج بنت عمى
 وحدها مع شخص غريب .. كفرت .. ؟ ! هات كأسا يا بنى ..

وقال حسام :

— لا تحضر شيئا يا يبنى .. ما دخل ينى فى هذا الذى ترويه ؟

وسالت الدموع على خدى سعد الكبيرين :

— تصور يا حسام ، من أجل سيارة .. سيارة أقل من سيارتك
 بكثير .. يطردنى الرجل من بيته ، وتقول هى ما شأنك يا سمين ..
 أين الكأس يا يبنى ؟

— يا أخى اترك ينى .. وقم .. قوموا يا أولاد .. سنركب
 سيارتى ونمر بها عند بيتها ، وسأجعلك أنت تقود السيارة ..
 ويقول سعد نائرا :

— أنا .. أنا أذهب الى بيتها .. أو فى شارع بيتها ثانية .. أبدا
 أين الكأس يا يبنى .. أنت عارف يا حسام كم امرأة وقعت فى
 غرامى ، ولكنى كنت أحبها .. أحبها هى .. مالكم هكذا ؟ اضحكوا
 ماذا ؟ أهى مصيبة ؟

وأخضر يننى الكأس أخيرا ، وحاول حسام أن يمنعه من تقديمها ،
ولكن سميح مال الى أذنه وقال له :

— اتركه يشرب ، فان الخمر ترييح في مثل هذه الأحوال •

وترك حسام الكأس تأخذ طريقها الى سعد ، وقال هو لسعد :

— في رجلك •• والله ان « زعلت » تكن امرأة •• أى امرأة تلك
التي تبكى من أجلها •• نصف نساء البلد يحببنك •

ودارت أنظار الصحاب الى حسام يعجبون من جرأته في
الكذب ، وزاد عجبهم من سعد أن صدق هذا الكذب وهو يقول
في بعض راحة :

— أنت تعرف ذلك ، أليس كذلك ؟

وقال حسام :

— وكلنا يعرفه •• أين عبد الجواد أفندى •• أين عبد الجواد
يا سميح ؟ ألم تره اليوم ؟

وانصرفت الجماعة الى البحث عن عبد الجواد أفندى ، حتى
اذا ما عثرت عليه راحوا يهيئون معه سهرة الليلة ، فانشغل معهم
سعد ناسيا أمر عمته وحبه الضائع ، ولم يعد يذكر شيئا الا
عبد الجواد أفندى وما يعده لهم •

(٢٠)

كانت هناء قد اختلست التليفون الى حجرتها ، وأقفلت رتاجها
فأمنت أن يعتدى أحد على خلوتها وأقامت تنتظر .. ولم يطل بها
الانتظار ، فقد دق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، ولكنها لم
تسمع من الطرف الآخر صوتا حتى قالت هي :

— نعم •

وتكلم الصوت همسا كمن يريد أن يخفى حقيقة نبراته !

— هناء •

وقالت هناء :

— نعم •

— كيف أنت ؟

— الحمد لله •

— هل أقلقتك ؟

— لا أبداً .. ما أنبارك ؟

— لا أنبار .. لم يطلع الفجر بعد ، ولكنه سيطلع حتما على
هذا المجتمع الآسن ، وعلى هذه العقول الرجعية الجامدة •

— قل لى يا فوزى ، أننا أعرف أنك ذكى ، ولكن ألا يعجبك
أحد آخر فى هذه الدنيا ؟

— أنت •

— فقط ؟

— فقط .. الآخرون كلهم يتبعوننى فى إفهامهم • انهم يخشون الحقيقة .. انهم مقيدون برجعتهم ..

— كلهم ؟ !

— كلهم الا أنت .. أنت .. أنا معجب بك .. معجب بعقلك !! أنت غير الناس الذين أراهم فى بيتك جميعا ، ان أفكارك تقدمية واعية ، وتقبلين الآراء الحرة فى جرأة •

— أفكارى أحسن من جميع الذين تراهم •

— جميعا •

— حتى جعفر •

— أغرك هذا انتافه بحديثه المنمق .. أم لعله يعجبك لأنه غنى وابن بائسا .. طبعاً هذه مسائل أخرى لا طاقة لنا بها •

— على العكس .. أنا أرى أنه لا عيب به الا غناه •

وقال فوزى :

— أترى هذا رأيك حقاً ؟ أم أنك تجامليننى ؟

— بل أنت تعرف أنه رأى •

— أنت أعظم الناس .. ولكن لماذا .. لماذا يا هناء .. لماذا

تكرهين الغنى ؟ -

— أكره المال .. أكرهه لأنه .. أكرهه والسلام .. ما يهمك

أنت .. ؟

— متى أراك ؟

— غدا •

- الساعة السادسة ؟
- الساعة السادسة •
- فى نفس المكان ؟
- ولم لا ؟
- والله لا أعرف •• أخاف أن يرانا أحد •
- أنا لا أراك تخاف أحدا •
- أنا لا يهمنى أحد الا أنت •• أنت وحدك التى أهتم بها •• وأحياها ••• أنت •
- على مهلك •• إن كلامك هذا يناقض أفكارك واتجاهاتك •
- وما هى أفكارى واتجاهاتى ؟
- أنت تقول : إنك تحب أن ترانى لأنك معجب بعقليتى ، وتحب أن يلتقى عقلنا بعيدا عن أعين الناس وعن تقاهاتهم •
- وهل يمنع هذا من الحب •• ؟
- ولكن الحب ضعف وتخاذل وإبعاد عن التفكير العملى السليم ، ووقف لميكانيكية الحياة ، والحب عاطفة ، والعاطفة تفسد الأعمال الكبرى التى يجب أن نضطلع بها فى هذه الفترة •
- ولكن ماذا يمكن أن نفعل •• كيف نتحكم فى قلوبنا ؟
- عجيبة •• أتسألنى يا أستاذ •• أنا أعيد ما أسمعه منك ••
- حين نلتقى نبحث فى هذا •
- أمرك يا أستاذ •
- فى نفس المكان ؟
- فى نفس المكان •

(٢١)

كانت الأضواء المتهافئة تنبعث من المصابيح في خوف ، فما يستطيع نورها أن يفسح لنفسه مكانا وسط الظلام ، فالمكان مرتعش الضياء ، تتبين فيه الهياكل والشخوص ، ولا تتبين الملامح أو القسمات •

وكان فوزى جالسا مع بعض شباب آخرين تبدو على وجوههم سيماء الاهتمام الكبير •• منهم من يصطنع هذا الاهتمام ، ومنهم من لا يستطيع أن يضع على وجهه تعبيرا آخر غير هذا ، لأن وجهه جاد بطبيعته ، فما يملك أن يكسبه غير ما يكسوه من حزم وصرامة ، ويبدو بعض منهم آخر مهتما غاية الاهتمام بما يتخذه من هيئة وأردية ، فالقميص أسود ، ورباط العنق أحمر ، وشنعر رأسه كث غزير ، وعيناه تستتران وراء منظار ، وهو لا ينسى بين هنية وأخرى أن يرفع إحدى يديه إلى شيء من هذا المهرجان الذي يتخذه •• فقد يصلح شأن رباطا رقبتة ، أو قد يمسك بطرف نظارته في وقار شديد ، أو يمر براحته على شعره ، وهو يأتي جميع هذا متظاهرا بأنه لا يهتم بشأن شيء مما يتفقده ، ولكن هذه اللمسة الصغيرة تبين لمن يراه أنه لا يهتم إلا بشعره وقميصه ورباطه ونظارته •

وكان المكان زائرا بانهمس ، يتجمع فيصبح ضجيجا لا ترتاح إليه الأذن • وكان فوزى منهمكا في حديث مع بعض إخوانه حين أحس بهذه الضجة ، فلم يلبث أن نظر في ساعته ثم قال :

— أيها الرفاق ، اجتماعنا اليوم مهم غاية الأهمية ، فالرفيق زكى قد عاد من موسكو ، وسيروى علينا ما شاهده هناك ، وما يجب علينا أن نفعله حتى نصل إلى الكمال المذهبي .. ولكن ينقصنا واحد ، هو الرفيق صالح .

وحينئذ قال أحد الرفاق في جد :

— طالما قلنا إن الرفيق صالح لا يصلح لنا ، ونحن حين نقبله نخالف تعاليم أحد فلاسفتنا ، وأظنه انجلز الذى يعتقد إن ضم الأغنياء إلى حظيرتنا خطأ كبير ، لأنهم يضطرون إلى معارضة مصالحهم الشخصية ، ولأن العدالة التى نهدف إليها لا بد أن تصيهم هم إصابة بالغة .

ورد فوزى فى إصرار مدافعا عن صديقه أحمد .. فلم يكن صالح هذا الغائب إلا أحمد فى اسمه الحركى ، قال فوزى :

— إن الرفيق صالح معنا منذ وقت طويل ، وقد أثبت جدارته فى أشياء كثيرة ولا ننسى أنه كان يمدنا بالمال ، حين كان المال يتأخر عنا ، ثم أنت تنسى أن مولوتوف من الأغنياء .

— هذا خطأ لا بد أنه سيصحح .

— أظن أننا لم نصل إلى درجة انتقاد الحزب .

وقبل أن يتمادى بهم النقاش ، دخل أحمد وهو يقول :

— أنا آسف أيها الرفاق تأخرت مرغما .

وسارع فوزى قائلا :

— لا بأس يا أحمد .. يا رفيق صالح ، آن لنا أن نسمع إلى الرفيق زكى .. أيسمح حضرة المسئول بأن يطلب إليه الكلام .

ووقف في صدر القاعة شاب قصير القامة ، يضع على عينيه نظارة سوداء قاتمة ، وتكاد النظارة تخفى خديه الغائرين اللذين يحيطان بفم دقيق ، فيه صرامة ، وفيه احتقار لكل شيء ، وفيه حقد على كل شيء .

ذاك هو المسئول ، وهو رئيس هذه الخلية . . وقف فلم يزد على أن قال :

— الرفيق زكى يتفضل .

ولكن أحدا لم يتقدم .

فقال المسئول مرة أخرى :

— الرفيق زكى .

فامتدت أيد كثيرة إلى ذراع شاب طويل القامة ، أشهب اللون ، مشدود جلد الوجه ، جامد القسمات ، فقال في تودة قائلاً :

— أيها الاخوان ، إن اسمى فؤاد زين العابدين .

فثارت في القاعة ضجة كبيرة ، ودق المسئول النضد الذي أمامه بعنف وقال :

— ننبه الرفيق زكى إنه يفشى سرا ما كان له أن يبوح به .

فاستأنف فؤاد حديثه وكأنه لم يسمع شيئاً :

— إن إسمى هو فؤاد زين العابدين ، وكلكم يعرف ذلك ، وقد

قصدت أن أجيء اليوم إليكم لأكشف عن عيونكم عصابة من الجهل . . أنتم في خطر . .

وثارت الضجة مرة أخرى ، وقال المسئول بعد أن دق النضد :

— إذا كانت السلطات الغاشمة تبحث عنا ، فليس للرفيق أن يفضى بهذا للرفاق ، وإنما كان عليه أن يبلغنى أنا لأبلغ المحترف ونتلقى منه الأوامر •

وقال فؤاد دون أن يلتفت إلى المسئول :

— إن الخطر فى أنفسكم •• لقد جئت منذ أيام قليلة ، ولا أعرف شيئاً عن السلطات هنا •• أيها الاخوان ، من شاء منكم أن يتخلى عن انسانيته ، ومن يشأ منكم أن يصبح قطعة حقيرة من جماد ، ليس فيها من مشاعر الانسانية إلا شعور الخوف الراعد ، والفزع والقلق . ومن يشأ منكم أن يصبح شيئاً بلا حرية ولا شعور ولا تفكير ، شيئاً ليس فيه بقية من آدمية إلا أن يسمع فيطمع ، وإلا أن يظل مرتعشاً أن يكون قد أخطأ السمع ، أو أخطأ الطاعة ، من يشأ أن يفقد انسانيته جميعاً •• من يشأ أن يصبح كذلك ، فليظل على هذا المذهب الذى تعتقدون •

وشارت الأصوات بالقاعة ، فمن قائل « مروق » ومن قائل « خيانة » ومن قائل « برجوازية » ومن قائل « انحلال » ومن قائل « رجعية » •

وثار بالقاعة أيضاً جو قاتم عقد السنة كثيرة من الخوف ، وعقد السنة أخرى من الدهشة •• حتى المسئول ظل فترة طويلة لا يملك زمام نفسه ، ثم انتبه آخر الأمر إلى موقفه هذا ، فدق النضد بيده ، ثم قال :

— نعتقد أن الرفيق •• آسف أن فؤاد زين العابدين قد أصبح برجوازي ، وأنه اتصل بأصحاب المذاهب الرجعية ، وبهذا أصبح خارجاً عن خليتيا ، وإنى أعلن فصله عنا •

وأخمل فؤاد حديثه :

— الادميون هناك لا قيمة لهم .. لقد قال لى بعضهم : إنهم يحيون شعور الخوف ويغذونه في أنفسهم ، لأنه الشعور الوحيد الذى يربطهم بالآدمية ، وهم لا يريدون أن يتخلوا عن آدميتهم .. لا يريدون برغم اصرار السلطات على افقادهم لهذه الآدمية .. الانسانية التى يتغنى بها المذهب لا وجود لها على الاطلاق .. هناك كل شيء إلا الانسانية .. الانسان قطعة من المهمل .. الفقر مدقع ، تهتم بمسما في آلة أكثر من اهتمامها بحياة انسان .. الفقر مدقع ، والحكام يعيشون في بذخ دونه بذخ القياصرة .. كل ما يتغنون به من حقوق الانسان كلام أجوف لا تطبيق له .. الأفراد والأسر يعيشون عيشة الحيوانات المذعورة التى تعلم أن الصياد وراءها دائما ، والصياد لا يرتاح ، والحيوانات لا تستقر .. الخوف والرعب هما كلاً لحياة ، المقدسات لا وجود لها .. أيها الاخوان ، لو لم أر هناك إلا الخوف والرعب اللذين يحيا فيهما القوم لكان هذا كافيا لأن أعتزل مذهبهم .. أيها الاخوان ، سأترككم بعد أن ألقى عليكم تحية الاسلام دين المشورة ، ودين الأمن والاستقرار وأرجو أن تجيبوا تحيتى وتتبعونى إلى الهواء الطلق .. السلام عليكم ورحمة الله .

وبهذه الجملة الخطابية خرج فؤاد من القاعة في هدوء ، وكأنه لم يستثر كل هذه المشاعر .. وران الصمت على القوم .. صمت حائر لا يدرون أيصدقون هذا الوافد عليهم من مصدر مذهبهم ، أم لا يحفلون بما قال .. ترزعت الثقة في النفوس ، ولكن المسئول سارع قائلا :

— لا شك أنكم تعرفون أننا نحارب بكل الوسائل والطرق ،
ولا شك أنكم قد سمعتم هذا الكلام قبل اليوم ، فهو كلام أعدائنا ،
ولقد انضممنا إلى هذا المذهب بعد أن وثقنا به كل الثقة • فإذا كان
لهذا الحديث الذى سمعناه الآن أى أثر فى نفوسنا فمعنى ذلك أننا
نستهين بعقولنا ، ونستهين بكرامتنا ، وبمبادئنا •• ولا أظن أننا
ضعاف انعقيدة لدرجة أن حديثا كهذا يجعلنا نشك فى المبدأ الذى
ضحينا فى سبيله بكل شيء •

والتمعت ابتسامة على شفتى فوزى ، فهو يعلم أن المسئول لم
يضح بشيء إلا بتوقيع شهرى يقبض فى مقابله مبلغا من المال ضخما ،
ولكن هذا لم يمنعه أن يقول :

— بطبيعة الحال أيها الرفيق ، هذا كلام انحلالى ، رجعى ،
برجوازى ، وإننا نسمعه كل يوم ، فنرجو منك أن تعتبر الأمر كأن لم
يكن ، وتدخل فى جدول الأعمال •

وكانتطيع التائه راح الآخرون يرفعون ثعاهم مؤيدين قول
فوزى ، وأخذ المسئول فى حديث آخر •• حديث متخبط ، فما كان
يدرى ماذا يقول ، بعد أن أفسد عليه فؤاد برنامج الليلة •

وانتهى الاجتماع ، وخرج أحمد ، مسرعا متجاهلا نظرات فوزى
إليه ، التى كانت تدعوه لينتظره ، لم يكن يريد أحدا ليسير معه ••
كان يريد أن يخلو لنفسه •

يبدو على فؤاد زين العابدين أنه صادق فيما قال ، ولكن كيف يترك
الخلية •• ماذا يصبح إذن ؟ •• إنها كل شيء له •• كيف يترك هذا
العمل الكبير •• أهو العمل الكبير الذى يجذبه إليها ، أم تلك التهاوى

والطقوس ، أهو العمل الكبير ما يجذبهُ إليها ، أم أنه أصبح وله اسم آخر ، وأنه يتخفى من العيون ، وأن عيون السلطات تتابعه ، وأنه ذو أهمية بالغة في دوائر الحكومة والأمن العام • إنه يهرب إلى هذا المذهب من الفراغ الذى يعانيه في حياته ، إنه يهرب إلى الرفاق من فشله في كل شيء حاوله ، وهو الذى لم يعرف في بيته الفشل أبدا ، لم يسمع كلمة « لا » في بيته أبدا ، ولكنه سمعها حين أراد أن يكون موسيقيا ، وسمعها حين أراد أن يكون رساما ، وسمعها حين أراد أن يكون كاتباً •• سمع « لا » صارمة ليس فيها رقة ولا مجاملة •• لقد رفضه الفن •• ولم تقبله من جنابات الحياة إلا هذه الخلية التى يستخفى فيها من حقيقة فشله ، ومن حقيقة الحياة التى أثبت أن تعطيه إلا مالا ضخما هو أمه ، دون حتى أن تكمل هبتها بأب يستطيع أن يحترمه •• ويُلِه من أبيه •• إنه هو من جر عليه كل هذا البلاء الذى يعانيه •• إنه أب بلا ضمير ، بلا كرامة •• بلا تقدير لأى معنى كريم •• لماذا تعطى الطبيعة لجعفر أباً مثل وصفى باشا ، وتبخل عليه بأب شبيه •• لقد كان يريد أى أب يحترمه •• لا ضرورة أن يكون باشا ، ليكن مثل عمه سامى زوج خالته •• إنه رجل محترم •• ولكن هذا الأب الذى رماه به الزمان والذى يأبى أن يحترم نفسه فى أى مكان •• حتى فى وظيفته حقير •• إنه أوشك أن يلوث وصفى باشا •• بل إن جريدة معارضة لوصفى باشا عرضت برشوة معينة •• أخزاه الله •• لقد كفرت بالله من أجله •• لم أتصور أن يقول الله العالم بعباده إن الرجال قوامون على النساء •• أمثل هذا يكون قواما على أمى •• فى أى شريعة يكون ذلك •• لا •• أنا كافر بهذا الدين ، وكافر بهذا الله الذى يقول إن أبى قوام على أمى •• والذى يقول واخفض لهما جناح الذل من الرحمة •• أخفضه لأمى •• نعم ، ولكن

لأبى هذا .. كيف ..؟ ألا أقول له أف .. أقسم .. أقسم بماذا ! ..
 أقسم بشرفى أننى أقول أف كلما ذكرت أبى .. أقولها فى نفسى ولو
 كانت لى بعض جرأة لواجهته بها .. بل إنى كثيرا ما أجيب حديثه
 بشيء من الكبر .. لا .. لا أستطيع أن أحترمه .. ولا أن أحترم ديننا
 يحترمه .. كيف أترك مذهبى إذن ؟ .. وإلى أين مصيرى إن تركته ..
 فى أى ناحية من نواحي الحياة يكون تفوقى .. الشهادة الجامعية
 فى يد الآلاف ، لا بد أن أكون شيئا غير هذه الشهادة ، وأى شيء يمكن
 أن أكون ؟ لا مكان لى إلا هذه الخلية .. هى مجدى .. وهى
 مجالى .. وليقل فؤاد ما يشاء أن يقول ، فما أستطيع أن أطيعه ..
 لا .. لا أستطيع .

(٢٢)

على المقاعد الحجرية .. فى مرفأ القارب .. جلس فوزى مطرقا
مفكرا .. أيستطيع ان يصل ؟! وكيف ؟! أتصبح هناء ابنة سهير
هانم ابنة أحمد باشا شكرى لى ؟ .. أيمكن هذا ؟ .. ولم لا ؟ وإلا فما
مجيئها إلى ، وما اهتمامها بى ؟ وحرصها على حديثى ..؟ نعم ، ولكن
أيمكن هذا ؟ أنسيت من أنا ؟ وكيف تلتقى بأبى وأبى ؟ كيف ؟ أبى !!
أبى ذلك الرجل الذى لم أعرف فى يوم من الأيام نوع تفصيل الحلة
النتى يلبسها ، ذلك الموظف الصغير .. الصغير جدا بوزارة الأوقاف ،
والكبير .. الكبير جداً فى العمر يصبح حما هناء .. وأمى .. ماذا
هى قائلة لها ؟ .. أمى تصبح حماتها ؟ أمى التى لم أسمعها يوما تتحدث
إلا عن مهارتها فى صنع الملوخية .. كيف أصل بينها وبين هناء ، وفى
أى موضوع يمكن أن يدور الحديث بينهما ، وكيف ستحس أمى بالراحة
وهى تتحدث إلى هناء .. وأبى .. نعم عودة إلى أبى .. ذلك الرجل
الذى لا يزال كل بضعة أيام يدخل إلينا شاحب الوجه ، مضطرب
الحديث ، راعش الأوصال ، فنعرف أن رئيس القلم — نعم رئيس
القلم فقط — قد استدعاه ، وكلفه ببضعة أعمال .. أبى هذا يصبح
حماها .. كيف سيحدثها ، كيف سيكون الخال بينهما .. كيف
سيعاملها .. ؟! ما شأنى أنا بكيف سيعاملها ، وكيف ستعامله .. إنها
ستصبح لى .. هى بكل أمجادها .. ومالى أخشى أن أقول .. هى
بكل ثروتها .. أليس هذا التفكير برجوازيا .. نعم .. إنه يصبح

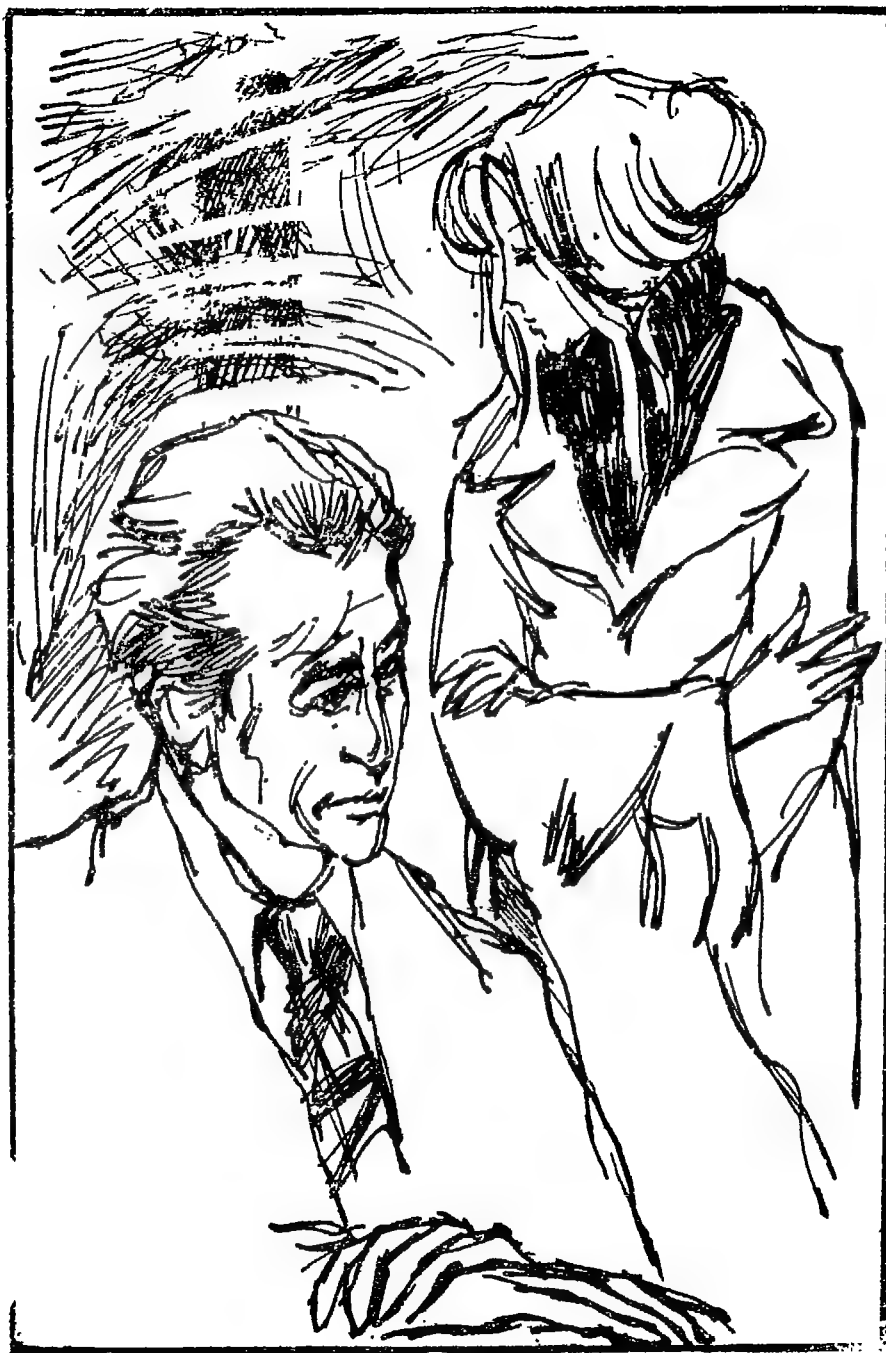
برجوازيًا لو أفصحت عنه ، ولكن ما دام في نفسى لا تعرف به إلا نفسى ، فهو بعيد عن البرجوازية كل البعد .. أظن أننى كنت موافقا كل التوفيق في التأثير عليها ، وما أظن إلا أنها ستقبلنى ..

ولكن ماذا هى قائمة لأبيها .. أقصد لأُمها ، فما أبوها بذى شأن .. لا أدرى .. ولكن أترضى بى ؟ .. ولم لا ؟ .. إنها خيالية في تفكيرها ، وقد تقبل الزواج لتحقيق آمالها من الزواج بفقير .. ما الذى يدعوها إلى هذا .. لعله زواج أمها الفاشل ، ولكن أباهها نفسه فقير بالنسبة لأُمها فيما أعلم ، لا أدرى .. إن للأغنياء جنونا .. وما أحب هذا الجنون إلى .. فبه أستطيع أن أصل إلى الأمل المنشود .. وما لى ولأُمى حينذاك ولأبى .. على أن أشق طريقي في الحياة .. فإذا تزوجتها فطريقي رغد وهناء ..

وقطعت هناء تتفكيره بقدمها :

- هناء •
- تأخرت عليك ؟
- نعم •
- دقائق •
- هى عندى سنوات •
- لا .. كنت أنتظر تعبيراً جديدا •
- وأى جديد تريد ؟
- لا أدرى ، ولكن هذا التعبير استعمل كثيرا •
- وما أدراك ؟
- اقرأ •

- آه .. صحيح .. نسيت أنك تكثرين من القراءة .. فأنت من قرائتك في أحلام لا تنتهى •
- وأنت ، ألا تقرأ ؟
- بانقدر اللازم .. فالقراءة البرجوازية تفسد الأفكار •
- أهنأك قراءة برجوازية ؟
- نعم قراءة القصص •
- كل القصص ؟
- لا بالطبع .. القصص التى لا تتحدث إلا عن الحب والعشق والهيام .. هذه قصص لا فائدة منها •
- أرايت ؟! ومع ذلك تحدثنى عن الحب ؟
- نعم •
- كيف ؟
- هذه مشاعر لا يمكن التحكم فيها •
- ولكن هذا يخالف مبدأك ؟
- لا أبدا .. أنا أقصد الحب غير عملى .. أما حبى لك فعملى واضح .. ولولا أننى أخشى من أشياء كثيرة لطلبت يدك •
- وأطرقت هناء فى خجل ، وأكمل هو حديثه :
- إن ذكائك أعظم من الخجل •
- وظلت هناء على خجلها ، واستطرد هو :
- طبعاً يا ستى .. وأين أنا من حسام ، أو من جعفر ، أو من هؤلاء الأغنياء الذين يتمنون رضاك .. أنا رجل فقير ، أبى موظف صغير ، وسيظل صغيراً إلى أن يخرج إلى المعاش ، وأمى امرأة
- ١٧٠ —



بسيطة ، وكل ثروتنا لا تتعدى نصف البيت الذى نعيش فيه ومرتب
أبى ، أين أنا .. ؟

وأحس فوزى أنه يمسك بالخيط البالغ إلى قلبها ، فلم يترك هذا
الحديث ، واندفع فيه فى اسهاب وقدره واستغراق ، حتى لم يحس
بسيده ، وهو يطل عليهما من الحديقة ، ولم يحس به وهو ينصرف
عنهما .. لم يحس شيئا من ذلك ، ولم يسكت إلا حين رفعت هاء
وجهها عن الأرض ، والتقت العيون •

* * *

كانت سهير جالسة بالدور الأعلى حين أقبل عليها عم دهب ، فعجبت
من صعوده ، فما تعود ذلك إلا إذا كان يريد أمرا هاما •

— خير يا عم دهب •

— والله يا ست لا أدري •

— وكيف لا تدري ؟

— السيد بن عبدا لبديع أفندى •

— ماله ؟

— يريد أن يقابل سعادتك •

— يقابلنى أنا ؟

— نعم •

— لماذا ؟

— والله لقد رفض أن يقول لى .. رفض رفضا باتا لم أتعوده منه

• طول عمره •

— عجيبة ♦♦ دعه يصعد ♦

ولم يتكلف عم ذهب أكثر من أن نادى :

— يا سيد أفندى ♦

ورجع صدى صوته بسيد ، وحيا السيد سهير في أدب ، ثم نظر إلى عم ذهب الذى انصرف متعجبا ، وأقفل السيد باب الحجرة ، ووقف فى اضطراب ، وقد أخذت لحيته ترتعش مع شفته ، حتى استطاع أخيرا أن يقول :

— يا ستى سهير ، أنا وأبى وجدى نشأنا فى بيتكم ، فان لم نحفظ

لكم الفضل ، فنحن كفار ♦

— قل يا سيد ما تريد ♦

— ستى هناء ♦♦

وفرجت سهير فاها ، وأنعمت فيه النظر فى دهش ، واستطاعت بصعوبة أن تقول :

— مالها ؟

— والله يا ستى أنا حائر لا أدري ماذا أقول ، ولكنى أيضا

لا أستطيع أن أسكت ♦

وقالت سهير وهى واجفة لا تزال :

— قل مالها ♦

— إنها تلتقى منذ زمن بعيد بفوزى صديق أحمد بك ♦

— ماذا ؟

— وفوزى هذا ولد ضائع ♦♦ وقد رأيتهما الآن معا ♦♦ يا ستى

أنا آسف ، ولكنى لم أستطع أن أسكت ♦

وقالت سهير ذاهلة :

— أشكرك يا سيد ♦

— أستاذن يا ست هانم ♦

واستدار السيد يريد أن ينصرف ، فاذا الباب يفتح ، وتدخل منه هناء ، فيتحنى السيد عن فرجة الباب ويطلق برأسه إلى الأرض ، وتتنظر إليه هناء بدھشة بالغة ، وتظل رائية إليه لحظات ، ثم يبين على وجهها كأنها فهمت ، فتصرف عنه عينها وتدخل الحجرة ، ويخرج هو متعشرا مطرقا لم يرفع رأسه ♦

ونظرت هناء إلى أمها ، فوثقت أن ما فهمته هو الحقيقة ♦ ♦ ووجدت هناء نفسها مضطربة ، فقد كانت تعد نفسها لأن تقول هي لأمها ما انتوت ♦ ♦ أما أن يسبقها النبأ ♦ ♦ وتلاقيها أمها بهذا الوجه المكفهر ♦ فهذا ما لم تكن تتوقع ♦ ♦ ولكن ما يهم ♦ ♦ أنها قد عزمت ♦ ♦ قالت الأم :

— أصبح ما سمعت يا هناء ؟

وقالت هناء في حزم :

— نعم ♦

— صحيح ؟

— نعم ♦

— كيف ♦ ♦ كيف يحدث هذا ؟

— أليس لي الحق أن أختار ؟

— تختارين ولدا ضائعا فقيرا لا يملك شيئا !؟

وقالت هناء في ثورة :

— أنا أكره المال •• أنا أكره المال وسيرة المال •• أبى تزوجك
من أجل المال فقط ، فانظري إلى حياتك •• أبى لا يهتم بغير المال ••
جمع المال وبدد احترامنا له •• وفقد احترامك •• وفقد احترام
الخدم •• أنا أكره المال •• أكرهه •• لا أحب الغنى ، ولا أحب
الأغنياء ، ولا أريد المال •• لا أريد المال •

وطفرت الدموع من عيني سهر ، ولكنها تماكنت أمر نفسها سريعا ،
وجففت دموعها ، محاولة أن تخفى الدموع ، وتخفيها عن ابنتها ،
وحاولت ببقايا روحها المبهورة الكسيرة أن تلتقي بابنتها في ثورة
كثورتها !

— حمق •• حمق هذا الذى تقولين •• حمق وخرافة •• إن كان
أبوك قد تزوجنى من أجل المال ففسدت حياتى ، فلأى سبب تعتقد
أن هذا الولد يطلبك •

— لا أدري لأى سبب ، ولكن ليس من أجل المال •
— أيتها الحمقاء •• كيف تعرفين ؟

— أنا لست طفلة •• كلامه لا يدل على أنه يريد ••

— لن يكون هذا •• لن يكون هذا أبدا •

وقالت هناء في حزم :

— أظن أنه يحسن أن يتم هذا برضاك •

وفطنت سهر لما تقصد إليه ابنتها ، ولكنها لم تصدق ما سمعت ،

فهي تقول :

— ماذا تقولين ؟

وأعاده هناء الحديث في إصرار :

— نعم يحسن أن يتم هذا برضاك ♦

وقالت الأم ذاهلة ♦

— ألهذا الحد ؟

وقالت هناء وهي على إصرارها لا تزال :

— نعم ♦

ثم تركت الغرفة ، وخرجت واثقة الخطوات ، حازمة القسمات ، وظلت أمها تنتظر إلى ظهرها وهو يغيب عنها ، فما ردها غيابه عن أن تظل مثبتة العينين إلى حيث اختفت ابنتها ، ذاهلة النظرة ، والهة حسرى ، تنتزى نفسها ألما وخوفاً وحيرة ♦

(٢٣)

كان أحمد جالسا في حجرة مكتبه حين دخل إليه السيد حليق اللحية ،
لا يزال الدم ينهمر من مواضع كثيرة في وجهه ، من أثر السرعة
التي أزال بها لحيته ، وكانت عيناه تائثتين في نظرة هالعة ، وجسمه
جميعه ينتفض في خوف راعد ، ولم يلتفت أحمد من أمره إلا إلى هذا
الجديد الذي طرأ عليه ، فقال في سخرية ضاحكة :

— الله .. شيخ سيد .. ذقنك .. أين المرحومة ؟

وأجاب سيد في هلع غير مكتنث بمزاح أحمد :

— أحمد .. البوليس يبحث عنى *

وارتسمت على وجه أحمد أمارات الجذ وهو يقول :

— ماذا ؟؟ .. البوليس ؟ لماذا ؟

— منذ مقتل النقراشى والحكومة تقبض على أفراد الجماعة

جميعهم *

وضحك أحمد محاولا أن يهدىء من روع السيد ، وقال له :

— ما هذا الكلام ؟ .. وأنت ما دخلك بمقتل النقراشى ؟

— لقد قبض على جميع زملائى ،، وأعتقد أنهم سيقبضون على

حالا .. أحسن طريقة أن أترك البيت *

وقال أحمد ساخرا ، فما كان يعتقد أن للسيد هذه الأهمية

كلها :

— ما هذا الكلام الفارغ ؟ •• أنت تخيف نفسك بلا مبرر •• وعلى كل حال ماذا تريد أن تفعل ؟

— أريد أن أهرب ، وسأُتصل بك يومياً في التليفون ، فإذا لم أتصل بك يوماً فاعلم أنهم قبضوا على ، واتصل بوصفى باشا فوراً •
— وصفى باشا ؟

— قل له إننى سأترك الاخوان •• أرجوك يا أحمد ، أنت لا تعرف مقدار شقائى بالسجن إن أنا سجنيت ، أنا أمل عائلة ، ونحن قوم نريد أن نعيش يأسى أحمد ، وقد كان طيشاً وسأتركه ، أرجوك يا أحمد بك •

— يا أخى ، أنت لا تحتاج إلى هذا الرجاء الطويل •• وماذا تظننى كنت فاعلاً •• طبعاً كنت سأذهب إلى وصفى باشا •

— طيب سلام عليكم •

— وعليكم السلام •• أنتظر •• أين ستختفى ؟

— هل معك نظارة سوداء ؟

— نعم ها هى ذى •• أين ستختفى ؟

— لا أدرى •• قد أخبرك حين أتصل بك •

— وكم معك ؟

— ماذا ؟ فلوس ؟ معى جنيهان ؟

— مبلغ لا يكفى طبعاً •• خذ •• أنا ليس معى إلا أربعة جنيهاً ، خذها •

— شكرًا •• أظن أن ما معى يكفى •

— خذ •• وحين تكلمنى أكون قد أعددت لك مبلغاً آخر •

وأخذ السيد الجنيهاً الأربعة ، واستدار ليترك الغرفة ، ولكن الباب فتح ودخل منه ضابط وشرطيان ، ونظر السيد إلى أحمد يائسا ، ونظر أحمد إليه دهشا ، فقد كان يظن أنه يصفى على نفسه من الأهمية ما لا يتمتع به .

* * *

استقبل وصفي أحمد متجهما بعض الشيء ، الأمر الذي عجب له أحمد ، فما تعود منه هذا .. وسأله وصفي :

— خير ؟!

— لقد قبض البوليس على السيد بن عبد البديع أفندي .
— لماذا ؟ .. أهو من الجماعة ؟

— نعم .

— هيه .. ومتى سيقبضون عليك ؟

وفغر أحمد فاه وانفجرت عيناه عن نظرة دهشة واسعة :
— على أنا ؟

— نعم أنت . أتظننى لا أعرف .. ألا تفكر فى أمك المسكينة ..
ألست انسانا ؟ .. ماذا جنت حتى تفعل بها هذا أنت وأختك ..
ألا تعلمان أنها مريضة بالقلب .. ألا تخشى عليها أن تموت ؟
— أنا ، ماذا فعلت يا عمى ؟

— أنت شيوعى يا سى أحمد

ومست قلب أحمد فرحة أنه مثار اهتمام ، وأن عمه وصفي باشا يعرف أهميته ، ولكنه قال :
— من قال يا عمى ؟

— لا تحاول أن تتكر ♦♦

— ولكن يا عمى ♦♦

— وحياء والدك لا لزوم لهذه الطريقة الصبيانية ، أرجوك ♦♦
من أجل أمك ♦♦ أشفق عليها يا أخى من أجل مرضها على الأقل ♦♦
وثق يا أحمد أنه إذا قبض عليك ، فإنه يصعب جدا أن تعتمد على كما
تريد أن تعتمد على الآن فى مسألة السيد ♦

— والله يا عمى ♦♦

— والله يا بنى أنا حذرتك وأنت حر ♦ اترك حكاية السيد ، ولا تنتظر
أن تنتهى بسرعة ، أمامها مدة ♦

— شكرا يا عمى ♦

— الشكر يكون بمراعاة أمك ياسى أحمد ♦♦ مع السلامة ♦

(٢٤)

كان القصر يروح تحت رزء كبير ، فقد كان زواج هناء خطبا فادحا حاول الأب أن يمنعه بسلطته المتهاكمة فلم يستطع ، فقد أفهمته سهير أن الزواج في البيت برضائهما خير من أن تخرج الفتاة عن طوعهما للتزوج وحدها ، وتضعهما أمام الأمر الواقع ، ولن يجديهما يومذاك أن يلوذا إلى القضاء ، فأمامه ستعلن فضيحة ينبغي لها أن تستتر بل إن سهير أفضت إلى سليمان بما يراودها من خوف أن تخرج الفتاة عنهما بلا زواج على الإطلاق ، وما يراودها من خوف أن ينفرد بها هذا الصعلوك ، وينتهر فرصة مقاطعتها لها فلا يستطيعان لها عوناً إن هي احتاجت لعون • فافتنع سليمان •

وحاول وصفى أن يعين سهير في محنتها ، وعرض عليها أن ينقل فوزى من وظيفته بالقاهرة إلى الأقاليم ، ولكن الرأي استقر بينهما على أن هذا لن يجدى في شيء •

وهكذا تم عقد القران في مأتم بلا معزين ، إلا أهل القاتل وأهل القاتل ، فقد جاءت أم فوزى ، واستطاعت أن تزيد النار اشتعالا في نفس سهير ، وإن كانت لم تستطع أن تجعلها تخرج عن صمتها اليائس الحزين ، فقد كانت أمه معجبة بنفسها ، تحاول جاهدة أن تصبح ندا لهذا البيت الذى تناسبه • أما الأب فقد كان أكثر ادراكا للموقف ، فاتخذ لنفسه مكانا قصيا ، وصمت حتى انتهت المراسم ، وغادر البيت وجلا كما دخله •

وأغضى سليمان على النار عرفها لأول مرة تتناش فؤاده ،
 وخجل أحمد من الهدية التي قدمها الى القصر ، ونسى حينذاك
 مبدأه وأفكاره وفلسفته ، وكره هذا اللص الذي تسرب تحت وقاء
 من الصداقة ، واختلس أخته في ضباب من النظريات والألفاظ
 البارقة ، والغش الخادع الخسيس •

ولم يكن أحمد ليغيبى أمر فوزى ، وإن يكن قد قبل أن تتوطد
 بينهما الصداقة • ولم يكن يتوقع أن أخته تقبل أن تلتقط هذا الفتى
 من عرض الطريق لتجعل منه زوجا لها ، وفي غفلة من عدم التوقع
 هذه لم ينتبه أحمد الى الذئب يجوس في عقر داره • وقد عزم أحمد
 على أن يقطع علاقته بفوزى ، ثم سمع هذا الحديث من أمه ، فعزم
 على أن يجعل صلته بفوزى بحيث لا ينتبه أحد الى انقطاعها ، وأصر
 في نفسه على ألا يدخل بيت أخته مهما تكن الأسباب والدواعي •

وكان موقف سميحة من هذا الزوج هو موقف أختها سهير ،
 وقد حزن في نفسها الألم الذي ترى آثاره على ابنها بياض النهار ،
 اذا رآته بياض النهار ، والذي ترى آثاره في غياب ابنها عن البيت
 الى أعماق الليل ، أو هلمات الصباح ، دون أن تدري أين يغيب ،
 الأمر الذي كانت تجهد نفسها أشد الجهد في اخفائه عن زوجها
 وتمويه حقيقته عليه •

وكان الخدم في القصر جميعهم يشعرون بالتعاسة التي تروح
 على القصر وساكنيه ، وكانوا يدرون مبعثها ، وكان حزنهم لها
 عميقا ، فقد كانوا يتمنون أن يفرحوا بستانهم هناء ، وقد كانوا
 يتمنون أن تتزوج من رجل يستطيعون أن يحترموه ، فما كان

زوجها أمامهم الا شخصا يتسقط على مائدة أحمد بك ، ثم لا شيء بعد ذلك •

هكذا كان القصر جميعه واقعا تحت هم واصب ثقل ، فلم يضم بين جدرانها الا شخصا واحدا لم يحفل هذا الاعراض وهكذا الحزن ، هو هناء نفسها •• فقد اندفعت في حمأة زواجها كشيء أنقى بنفسه الى منحدر يصب في هاوية فما يفكر لأنه لم يعد يملك التفكير ، وما يرتد ، لأنه لم يرغب في هذا الارتداد • لم يكن حبها لفوزى حبا جارفا يقتلع العوارض والعراقل ، واكنها استطاعت مع ذلك أن تحطم كل ما وقف في سبيلها ، وهى نفسها عاجبة لما اذا تبذل كل هذا الجهد !! انها تعلم أنه ليس حبها لفوزى ما يثير في نفسها كل هذه القوة • كانت تظن أن كرهها لأبيها ولما أنزله بأمرها هو ما يبعثها الى العنف والاصرار ، ولكنها كانت تعود فتفكر أنها هى نفسها بما تعمله تنزل بأمرها أقسى ألوان العذاب ، وهى تعلم أنها مفتودة ، وأنها تتعرض بهذا العذاب الى نوبة قد تودى بها ، وتترقق في عيني هناء الدموع اذا جرى بها التفكير الى هذا المتجه ، ولكنها تعود الى دموعها فتحبسها ، والى النسمة الهادئة التى تراوح قلبها فتعصف بها في قسوة ، ان كل هذا أهون من أن تتزوج شخصا لم تختره هى ، ولم تصل بينها وبينه أوشاج من الهوى ، مهما تكن أوشاجا هينة ، كهذه التى تربطها الى فوزى • ان هذا جميعه أهون من أن تختار أمها لها أو يختار أبوها ، لقد كانت خليفة أن تقبل حسام لو لم يكن ابن خالتها ، ولو لم يكن أبوها وأمها راغبين في تزويجها منه أشد الرغبة ، ولو لم يكن غنيا ، لقد كرهت الغنى كما قالت لأمرها •• كرهته حين رأت أبناها

ولا هم له إلا أن يصبح غنيا مهما يجنح به هذا العزم الى انتهاب
أموال أمها وخالتها التي لجأت آخر الأمر الى زوجها أن يحميها ،
ولن تنسى هناك يوم تمت القسمة بين أمها وبين خالتها ، ولن تنسى
تلك الدموع التي سفحتها أمها ، مع أنها هي التي ألحت في تنفيذ
هذه القسمة ، حتى تنقذ أختها من يد زوجها الغائلة ، وحتى تنقذ
أولادها مما قد يكون بين سامى وسليمان من فضائح •• فقد كانت
تعرف زوجها •

وتجمعت البواعث في نفس هناك ، ولم يكن أقواها حبها
لزوجها ، ولكنها بواعث قد تعبرها عين الناظر إذا عرضت عليه
متفرقة ، فان تجمعت جعلت من هناك هذا الاعصار الذي يدور
في القصر فينفذ ما يشاء في تبجح هادىء فما كانت تحتاج الى ثورة •

لم تكن لها من مطالب بعد أن تم عقد القران ، وحين فكرت
أما في جهازها ، سكبت دموعها غزيرة ، ان الله لم يشأ أن تفرح
بجهاز عروس أبدا ، ان جهازها هي اختير لها ، ولم يكن لها فيه
رأى ، وحين أنجبت هناك ، كانت تمنى نفسها أن تعوض في جهازها
ما فوتته على نفسها أيام عرسها ، ولكن ها هي ذى ابنتها تخذل
آمالها ، كما خذلت هي آمال نفسها حين تزوجت • وكانت سهر
تحاول أن تخفف من ألمها بعض الشيء ، حين تهمس الى نفسها أن
لعل ابنتها تسعد في ظل زوج أحبته ، ولكنها حين تذكرت قسمات
ابنتها وهي تفضى اليها باصرارها على الزواج ، وحين ترى ابنتها
رائحة في البيت غادية ، جامدة النأمت ، صلبة الوجه ، وحين
تراها مستسلمة لمصيرها هذا الذى اختارته •• وحين ترى فوزى
وترى مقدار تبججه على البيت ، واقباله على قوم يعلم أنهم

عازفون عنه •• حين تذكر وترى هذا جميعه ، ما تلبث أن تذوب
الهمسة المتفائلة في طوفان من هم كبه •• فما هذه تصرفات فتاة
في قلبها هوى ، وما هذا الفتى بمستطيع أن يثير في فؤاد فتاة حبا •
ولكن هذه الأفكار جميعها لم تمنعها من أن تسأل ابنتها عما
تريده في جهازها ، وقالت الفتاة :

— لا أريد الا أشياء بسيطة فسنعيش في شقة صغيرة •
وارتاح الأم أنها تقتوى أن تبتعد عنها بزوجها هذا الكريه ،
ولكنها رأت أن تقول لها على سبيل المجاملة :
— ولم لا تعيشان معنا هنا ؟

وقالت هناء في حزم ، شأنها منذ أعلنت عن رغبتها في هذا
الزواج :
— لا •

ولم تجد الأم وسيلة تقطع بها الحديث أن يطول ، الا أن تعطي
ابنتها ألفى جنيه تفعل بهما ما تشاء ، وقبلت هناء المال ، ووضعت
في صوانها ، وضمت اليه مائة جنيه ، دفعها زوجها مهرا ، وانتظرت
أن تسأل زوجها عما يفعلان •

وفي يوم جاء فوزى ، وطلب الى هناء أن يخرجها للنزهة ، وخرجت
معه في سيارة أبيها ، وما أن تركا البيت ، حتى استوقف فوزى
السائق ، وأمره في ثبات أن يترك السيارة ليقودها هو • ودهشت
هناء بعض الشيء من طريقته في اصدار الأوامر ، ومن اعطاء نفسه
الحق في قيادة سيارة لا يملكها ، ولكن دهشتها لم ترد على غصة
في نفسها ، وسألت فوزى :

— أتعرف كيف تسوقها ؟

وأجاب فوزى فى اقتضاب :

— نعم •

وقبل أن تسأله هاء كيف تعلمت ، قال هو فى نعمة ساخرة
بعض الشيء :

— طبعا لم تكن عندى سيارة ، ولكنى تعلمت كيف أسوق
بسيارة أخيك أحمد •

وسكت هاء ، ولكن السائق لم يصدع بأمر فوزى ، فما
تعود أن يتلقى منه أوامر ، ورأت هاء تردد السائق ، فسارعت
تقول :

— اذهب انت الى بيتك يا أسطى عبده •

وصدع السائق بالأمر فور سماعه ، وانتقل فوزى الى مقعد
القيادة ، وانتقلت هاء الى جانبه ، وأحس فوزى بتردد السائق ،
ولكنه أغفل أمره ، فقد ذكره اسم أحمد بأن يسأل هاء :

— وحتى أحمد غير موافق على زواجنا •

وقالت هاء فى استسلام :

— وما يهمك أنت ان كان يوافق أو لا يوافق ، ما دمت أنا
موافقة ، وما دمتا قد تزوجنا فعلا ؟

وقال فوزى فى غير اكتراث :

— على رأيك •

ثم قال :

— اننى معد لك مفاجأة هائلة •

— خير ؟

— وكيف تكون مفاجأة اذن ؟

— ومبنى أراها ؟

— نحن فى طريقنا اليها •

وصمتت هناء ، واتخذت السيارة طريقها الى الزمالك ، وأمام
عمارة فاخرة ضخمة ، أو وقف فوزى السيارة وقال لها :

— انزلى •

ونزلت هناء ، وقد ، حذرت ما هى مقدمة عليه ، ولكنها لم تشأ
أن تصدق حدسها ، فان العمارة التى يدخلونها باذخة الفخامة ،
لا تتناسب اطلاقا مع ما كانت تهيب نفسها له من بيت متواضع
يتفق وقلة المال عند فوزى ••

ولم يكن ثمة مجال لكثير من التفكير ، فقد وجدت نفسها فى
مصعد أنيق ، ثم وجدت نفسها أمام باب شقة يفتحه فوزى بمفتاح
معه ، ثم وجدته يلتفت اليها قائلاً :

— هيه •• أتريدين أن أحملك كما يفعل الغربيون ؟

ولم تضحك هناء من محاولة المزاح ، ودخلت البيت ، وراعتها
أناقته ، وأذهلتها سعته •• ست حجرات وبهو •• لماذا هذا جميعه؟
وسمعت فوزى :

— وطبعاً سألتفق مع مهندس لتزيين الجدران ، ورسم الإثاث •

وازدادت هناء ذهولاً ، وقالت :

— ولكن أليس كبيراً ؟ !

فقال ساخراً :

— أهو كبير ؟ •• وأين هو من القصر ؟

فقالت هناء :

— ولكن هل يكفي مرتبك لهذا البيت ؟

وقال فوزى وهو يغمغم الكلام :

— هذا أمر ندبره •

ولم تزد هناء شيئاً • وظلت صامته وهو يتحدث عن مشروعاته في تجميل الشقة ، وفي اختيار الأثاث ، وفي الميزات التي في الشقة وفي أى مكان مبيت السيارة لا يؤخذ عليه أجر إضافي ، وصكت كلمة السيارة سمع هناء ، فنظرت إليه ، ولكنها لم تتكلم ، بل ظلت على صمتها •• لازمت الصمت وهو لا ينقطع عن الحديث •• لازمت الصمت وهما في الطريق الى سيارة أبيها ، ولازمت الصمت وفوزى يحييها مودعا ويترك مكانه من السيارة •• ظلت على صمتها حتى صعدت الى الطابق الأعلى من البيت ، وحين رأت أمها جلست أمامها صامته •• وطال بها الصمت هونا ، ثم تماوجت دمعات في عينيها ، سارعت باخفائها دون أن تلاحظ أنها تأخرت في هذا الاخفاء ، فقد كانت الأم مثبتة النظرة اليها ، ترى وجهها فكأنما ترى كل ما تخفيه خلفه •• وأخيراً قالت هناء :

— نينا •• لن يكفيني ألفا جنيه للجهاز •

وقالت الأم في تودة وهي ناظرة الى ابنتها لا تزال :

— نعم أعرف •

(٢٥)

أقبل حسام على بار الشباب ، فطلع اليه الرفاق في حب
واشفاق ، شأن الكريم هان بعد كرامة ، وأحس حسام بالاشفاق
في نظرتهم ، فقال غاضبا :

— مالكم ! • ما هذه النظرة وكأنى مسكين تعطفون عليه ••
هات كأسا يا ينى ، وكان سعد أسرعهم الى الحديث وأجرأهم فيه :

— نعم •• أنت مسكين بهذا السم الذى تطفحه كل يوم •

— ولماذا يا سيدى ؟ •• منكم نستفيد ، ألم تكن أنت تطفح
منه يوم طردك عمك ؟ !

— كنت أهبل •• وكنت أهبل لمدة يوم واحد ، أو ساعة
واحدة ، ثم عقلت ، ولكنك أنت مصر على هبلك •

— يا أخى ، أنا حر •

وقال سميح :

— ما هذا الكلام الفارغ ؟ •• لا يا أخى ، أنت لست حرا ••
ما معنى أن تأتى إلى هنا كل يوم ، وتظل تشرب حتى لا تعى ، ونظل
نحن ناظرين إليك ، كأنك مريض بيننا •• إن كنت مجنوننا يا أخى
فلماذا لا تذهب إلى المستشفى ؟!

وجاء يبنى بالكأس ، فشربها حسام دفعة واحدة ، وطلب أخرى ،
ونظر إلى سميح قائلاً :

— نعم ياسى سميح .. ألسنت أنت من قبلت لى إن الخمر مفيدة
فى هذه الأحوال ؟

— يا أخى غلطت ، وهل تراها حضرتك مفيدة ؟!

— نعم .. إنها مفيدة .. إنها تنسينى ما أحب أن أنساه .
وضحك أصدقاؤه ، وقال سعد :

— يا عم صل على النبى .. والله إن بنت الكلب هذه تريد
الانسان تذكرها .. كيف تنسى شيئاً لا تزال تفكر فى أنك تريد أن
تنساه .. هذه خرافة وشرفك ..

وقال حسام وهو يشرب الكأس الثانية :

— ما هذا الهجوم ؟ .. أنا سأشرب ..

وقال سعد :

— اسمع .. إن عبد الجواد أفندى أعد لنا الليلة شيئاً ..

وقبل أن يكمل سعد حديثه ، قاطعه حسام :

— قديمة .. هذه لعبتى أنا يا حبيبى .. أتضحك على بما كنت
أضحك به انا عليك ؟

وضاق الرفاق بالحديث ، ورأوا أن لا فائدة ترجى من حسام ،
وأحسن حسام بضيقهم ، فما وقف به هذا عن ابتلاع الكؤوس مبرعة
متلاحقة ، حتى لم تمض ساعة إلا كان سكران ، وحين قام الرفاق
ليمضوا إلى عبد الجواد أفندى ، تخلف سعد لأنه رأى حسام
لا يستطيع أن يقيم أوده ، فبقى معه ، وظل يحثه على القيام ، حتى

قبل آخر الأمر ، وقام متعتا يتكفى ويهذى بحديث لا يكتمل ، حتى
وضعه سعد في السيارة وركب إلى جانبه ، وراح يقود السيارة
في طريقه إلى البيت •

وحين وصل الصديقان إلى بيت حسام ، كان حسام نائما لا يحس
شيئا مما حوله ، وحاول سعد أن يرده إلى الوعي ، ولكن محاولته
فشلت فشلا تاما ، فلم ير بدا من الالتجاء إلى البواب ليحمله خفية
إلى حجرته •

وجاء البواب يستغفر الله أسفا أن يرى سيده على هذه الحال ،
وتعاون هو وسعد على حسام ، وكلاهما مقطب الجبين ، بادی الألم ،
وصعدا إلى الدور الأعلى ، وكانت نوال جالسة في البهو تتحدث في
التليفون ، فحين رأت أخاها محمولا ألقت بالسماعة ، ودقت صدرها
بيدها ، وأسرعت تسأل عما أصابه في لهفة ألتهها عن أن تخفض
صوتها ، فأشار إليها سعد أن تحذر ، وهمس لها بالحقيقة ، ولكن
همسه جاء متأخرا ، فقد كان سامى جالسا إلى زوجته في حجرتهما
فسارعا يستطلعان ما أثار لهفة ابنتهما ، وطلعهما ابنهما محمولا
غائبا ، واندفعت الأم والهة وجمد الأب مكانه واجفا ، ولم يجد سعد
بدا من أن يفضى إليهما بالحقيقة ، فقد وجدها أهون مما يخشيانه ،
أو خيل إليه أنها أهون مما يخشيان • وحاولت الأم أن تقود حاملى
ابنها إلى حجرته ، ولكن الأب قال في صرامة قاسية :

— ألقيا به إلى الأرض •

وتردد سعد والبواب ، ولكن صوت الأب أرعد في حسم :

— ألقيا به إلى الأرض •

فانفجرت يدا البواب عن قدمي سامي ، ووضع سعد رأس حمله على الأرض ، ولم يكد حتى انفتل إلى السسلم يطويه أربعا أربعا يقع بجسمه الضخم على درجاته ، ثم يقوم كأنه لم يقع ، حتى غاب عن الأنظار التي تبعته في وجوم ، وأمر الأب بالماء فأفرغ على وجه ابنه حتى أفاق ، ووقف حسام مترنحا وأمه شاخصة إليه ، حائرة لا تستطيع لأبيه دفعا ، وهو في خمار السكر غير مقدر للموقف الذي ألقى بنفسه إليه ، ولم يمهله أبوه ، فراح يصفعه بحده وهو يتقى يد أبيه بيد مترنحة ، لا تستطيع أن تثبت على مكان ، حتى إذا هدا أبوه -هونا ، راح يدفعه إلى الحجرة وهو يقول :

— منذ الغد لن ترى القاهرة يا كلب ،، منذ الغد سألقى بك إلى العزبة يا سكير *

وحين أصبح حسام في الغرفة أقفل أبوه عليه الباب ، وعاد إلى حجرته دون أن يلتفت إلى زوجته أو ابنته ، ونظرت سميحة إلى نوال ، والتقت بعينيها نظرات ابنتها حسيرة ، وفهمت كلتاها ما يدور بنفس الأخرى ، فجرت الدموع في عيونهما *

وتذكرت نوال التليفون الذي كانت ممسكة بسماعته حين جاء حسام * أو حين جىء بحسام ، فنظرت إلى حيث تركت السماعة ، ولكنها لم تتحرك ، فقد أدركت أن هناء لا يمكن أن تظل منتظرة طوال هذه المدة *

ونظرت الأم حيث نظرت ابنتها ، ثم أطرقت وعادت إلى زوجها ولم تجد نوال شيئا تفعله ، فعادت إلى السماعة ، وهمت أن تضعها على الحامل لولا أنها سمعت :

— آلو ♦

— آلو ♦

— ماذا جرى يا نوال ؟

— هناء ♦♦ هناء ♦

وانخرطت نوال في بكاء غزير الدموع ، وهناء على الطرف الآخر
لا تزال تلح عليها أن تطمئنئها ♦
وأخيرا قالت نوال :

— إنه ما فعلته بنا يا هناء ♦♦ إنه ما فعلته بنا ♦♦

— أنا ؟

— نعم ♦♦ أنت ♦♦ ويا ليتك سعدت ♦ إذن لارتحت أنا بعض
الشيء ، وعزيت نفسي عن شقاء أخى بسعادتك أنت ♦♦ ولكنك حتى
لم تسعدى نفسك يا هناء ♦♦ وتأبين إلا أن تزيدى شقائى فلا تجدى
إلا أنا ، لتبثيها ما تلاقينه من زوجك وأهله ♦♦ أنا وحدى في العائلة
التي أتحمل الشقاء شقاءين ♦♦ شقاء أخى بك ، وشقاءك أنت
بغير أخى ♦♦

ولم تر نوال الدموع الجارية على خدى هناء ، ولم تحس النار
اللاهبية التي ازدادت اشتعالا في نفس بنت خالتها التي اتخذتها
أختا ♦♦ لا لم تر نوال الدموع ، ولا أحست النار ♦♦ أو لعلها أحست
وميضاً خابيا من هذه النار ، حين طرقت أذنها سماعة هناء ، وهي
تستقر في مكانها من الجامل منهية الحديث ♦

(٢٦)

قام فوزى من نومه مبكرا ، شأنه كل يوم ، فوجد زوجته قد
صحت وجلست تنتظره ، لتتناول معه طعام الافطار ، وحين جلسا
إلى المائدة قال فوزى :

— ماذا .. فول ؟

— نعم وما عيب الفول ؟

— كل يوم ! .. بعض الرحمة •

— إني أقدمه لك أحيانا فى الفطور فقط ومعه أصناف أخرى ..

كفرت ؟ !

— يا ستى أنا لم أقل شيئا .. وهل أستطيع أن أقول شيئا ..

فكله من خورك .. إن كان فولا فأنت من تدفعين ثمنه ، وإن كان

قشدة فأنت من تدفعين ثمنها .. هل أستطيع أن أتكلم ؟

— ما معنى هذا الكلام ؟ .. إنك دائما تعيرنى بأنى أدفع ثمن

الأكل .. ماذا تريدنى أن أفعل .. يا أخى قل لى ما تريدنى أن أفعله

وأنا أنفذ ..

— يا ستى العفو .. وهل أستطيع .. إنما يأمر الرجل الغنى الذى

يستطيع أن يدفع ثمن ما يطلبه •

— يا أخى مرنى ولا تدفع .. ولكن فقط لا تنكد على عيشتى كل

هذا النكد .. ماذا جنيت ؟

— يا ستي ماذا أكون أنا حتى أنكذ عليك ؟ العفو العفو .. !
وسم تستطع هناء أن تكمل طعامها ، بل إنها لم تستطع أن تبدأه ،
فقامت على المائدة مغضبة وهي تقول :

— لا أستطيع .. لا يمكن .
وأسرع فوزى قائلاً :

— خادمتك .. أمى ستأتى اليوم ، فأرجو أن تتكرمي بأعداد
نسيء لها .

وسمعت هناء الحديث وانصرفت دون أن تلقى إليه التفاتاً . وفرغ
هو من طعامه هادئاً ، وقام إلى الباب الخارجى وصفقه من خلفه ،
ومضى .

وظلت هناء فى حجرتها تبكى بكاءً مرًا ، ولكنها لم تكذ حتى سمعت
جرس الباب ، فظنت أن زوجها نسي شيئاً فعاد لاحتضاره ،
ولكنها دهشت حين سمعت صوت حماتها يرن فى البهو قائلة
للخادمة :

— أين سيدك ؟

وقبل أن تجيب الخادمة ؟ سارعت تقول :

— وأين سنك ! .. أهى نائمة ؟

وقالت الخادمة فى جمود :

— سيدى وستى تناولا الاقطار معا ، ونزل سيدى إلى عمله ،
وستى صاحبة فى غرفة نومها .. سأناديها .

ودخلت الخادمة عند هناء ، ولم تمهلها هناء لتعلن إليها قدوم
الست الكبيرة ، بل عاجلتها قائلة :

— أحضرى التليفون •

وحاولت الخادمة أن تقول شيئاً ، ولكن هباء سارعت قائلة
في حزم :

— أحضرى التليفون •

وخرجت الخادم لتعود بعد لحظات حاملة التليفون ، وأدارت
هباء القرص ، وما لبثت أن قالت :

— من ؟ • • • لو الاحظ ؟ • • أين سنك نوال ؟ • • أيقظيها ،
وبعد لحظات من الصمت قالت هباء :

— نوال • • سأتى إليك الآن • • سأخبرك حين آتى ، المهم أن
ترتدى ثيابك وتنتظرينى • • نعم فوراً •

ووضعت هباء سماعة التليفون ، وقامت إلى ثيابها فوضعتها على
نفسها دون عناية ، ومدت يدها إلى درج خفى فى صوانها ، فأخرجت
منه كل ما فيه من مال ، ووضعت فى حقيبة يدها الصغيرة ، ولم تلق
إلى المرأة نظرة ، وخرجت إلى البهو لتجد حماتها قد جلست على
الأريكة فى عظمة تقول لها :

— صح النوم يا هانم •

— أهلا تيزة •

— أهلا بك يا أختى • • • أيسح أن تتركينى ساعة أنتظرك ،
افرضى أنى جائعة. وحيث أننا نأكل الفطور عندك • • أهذا يليق ؟
ولكن لم لا • • أين نحن منك • • • طبعاً. وهى تتوهم ؟

وقالت هباء فى هدوء بارد :

— كنت ألبس يا تيزة •

— وما لزوم اللبس يا أختي .. أم تريدين أن تشعيريني أنى جئت
مبكرة .. حسبت أنى أجيء إلى بيت ابنى فى أى وقت .. نسيت
يا حبيبتي أن البيت ليس بيت ابنى .. نسيت .. لا مؤاخذه •

— لا أبدا يا تيزة .. هو بيت ابنك كما حسبت تماما ، هو بيتك •

— العفو .. ومن أين لى ببيت كهذا ؟ .. والله يا حبيبتي
اضطرت أن آتى الآن ، لأن عمك — لا مؤاخذه — أقصد زوجى ،
ينزل إلى الديوان الآن ، فنزلت معه ، لأنى لا أستطيع أن آتى
وحدى ، ولكن لا تخافى يا حبيبتي .. لقد تناولت فطورى قبل أن
أجيء .. وسأقعد معك أسليك حتى يجيء زوجك •

— أشكرك يا تيزة .. ولكن هل تسمحين لى أن أنزل لأغيب عنك
نصف ساعة فقط ، ثم أعود ..

— الآن .. والساعة لم تصل إلى التاسعة ؟

— نوال بنت خالتي تريدنى فى شىء مهم .. سأصل إليها
وأعود •

— إن كنت ضايقتك أنزل أنا •

— أبدا .. البيت بيتك وسأعود حالا .. أتركك بخير •

وقبل أن تسمع هباء كلمة أخرى من هذا الحديث الذى لم تسمع
غيره منذ تزوجت ابن هذه المرأة ، سارعت إلى الباب الخارجى
للشقة وانفثلت منه إلى الخارج ، وهى لا تكاد تصدق أنها أصبحت
فى الطريق ، ونزلت إلى الشارع ، ووجهها كله عزم وإصرار ، ونادت
أول سيارة أجرة ، وأعطت السائق عنوان خالتها •
وعند الباب الخارجى نزلت ، وطلبت إلى السائق أن ينتظر ،

وقفزت السلالم قفزا سريعا متواثبا إلى حجرة نوال ، فوجدتها قد
ارتدت ثيابها وجلست تنتظرها .

— نوال ♦

— ماذا ؟

— قلت لى : إن لك صديقة ذهبت إلى يهودى أجرى لها عملية
اجهاض ، لأن زوجها فقير لا يريد أطفالا أكثر مما لديه .

— نعم ♦

— ما عنوان هذا اليهودى ؟

— وكيف لى أن أعرفه ؟

— طبعا صديقتك ليس لها تليفون ♦

— بالطبع لا ♦♦ إنها صديقتى من المدرسة ، وقد قصت على هذا

الحديث حين زارتنى ♦♦ ما الذى أذكرك به ؟

— أريد أن أذهب إلى هذا اليهودى ♦

— هل أنت مجنونة ؟!

— أريد أن أذهب إلى هذا اليهودى ♦

— وكيف لى أن أعرف مكانه ♦

— ما عنوان صديقتك ♦♦ أنت تعرفينه ♦♦ لقد قلت لى أنها

اصطحبتك يوما إلى بيتها ♦

— ماذا تريد أن تفعل لى ؟

— هل تعرفين عنوانها ؟

— نعم ♦

— فقومي معي •

— هل أنت مجنونة ؟

— ليس بعد ، أنا الآن في تمام عقلي ، وسأكون مجنونة إذا لم
أفعل ما أنا مقدمة عليه •

— ماذا تريد أن تفعلني ؟

— أنا حامل في شهرى الثانى ، وأريد أن أجهض نفسى الآن •
ودقت نوال صدرها بيدها قائلة :

— ماذا ؟

— اسمعى •• أمى أضاعت حياتها من أجل أخى أحمد ومن
أجلى •• لا أريد أن أضيع حياتى •• لا أستطيع العيش مع فوزى ،
لقد حاولت •• حاولت بكل ما أستطيع •• لا أطيق العيش معه ،
لقد حاولت أن أكتم عن أمى ما أقاسيه لأننى أنا من اخترته ، أما الآن
فلا يهمنى ما تفعله بى أمى ، لا يهمنى شئ فى الوجود إلا أن أنقذ
نفسى من هذه النار التى ألقيت بنفسى إليها ، أنا أكره فوزى ••
أكرهه بدمى جميعا ، بل إن شعورى نحوه أشد من الكره •• لا ليس
شعورا ما أحسه نحوه •• إنه اسقاط له من حياتى جميعا ، إنه شئ
حقير قذر ، دنس فترة من حياتى ، ولا أريده أن يدنس حياتى
جميعها •• لا أستطيع العيش معه •

وترقرقت الدموع فى عيني نوال وهى تقول :

— وما ذنب طفلك ؟

— إنه لم يعد طفلا بعد •• ولا أريده أن يتحمل حياة لم يكن
هو شيئا فيها •• نعم إنه لا ذنب له ، ولذلك أريد أن أنقذه من أبيه ،

حين يكبر ، وأريد أن أنقذه من العيشة بلا أب قبل أن يكبر ، وأريد أن أنقذه من الحقيقة التي كشفتها في أبيه •• إنه شيء بلا أخلاق •• بلا أخلاق على الإطلاق •• ليس لأى شيء قيمة في نظره •• أريد أن أنقذ ابني من أبيه ، وأريد أن أنقذ نفسي من أمومة أشك في أنها ستكون صالحة •• إن هذا الجنين الذى فى أحشائى لا يزال جنينا •• أريد أن أخلصه من الحياة قبل أن يلتقى بالحياة •

وكانت الدموع تنهمر من عيني هناء وهى تتحدث ، كما كانت تنهمر من عيني نوال ، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تقول أقسى قول يمكن أن يقال لهناء فى لحظتها تلك :

— أليس هذا هو فوزى الذى أشقيت به المسكين حسام ؟
ونظرت إليها هناء نظرات آلمة حزينة ، ثم أطرقت وهى تقول :
— لا •• ليس هو •• لم أعرفه إلا حين لم تعد لمعرفتى به فائدة •
وقالت نوال فى حزم :
— قومى •

واستأذنت نوال من أمها ، وخرجت مع هناء ، وما هو إلا بعض الحين حتى كانتا بالمكان الذى يقيم به اليهودى ، وما هو إلا بعض آخر من الحين ، حتى أصبحت هناء وهى لا تحمل إلا روحا واحدة هى روحها ، ونزلت إلى السيارة ومعها نوال •

وفى الطريق إلى البيت انخرطت هناء فى بكاء حاد عنيف ، ولكنها لم تجد له فى نفسها ألما ، أحست كأنها إنسانة ضحت ، وإن حلاوة التضحية تمسح عن نفسها الألم الذى عانته •• ألم الأم تقضى على ابن أحشائها •

ووقفت السيارة عند باب القصر العنيد ، ونزلت هناك وانية شاحبة اللون ، وصعدت الدرج في إعياء تساندها نوال ، فما إن بلغت أمها حتى هبت إليها الأم مذعورة تسألها ما بها ، ولكن هناك لم تستطع إجابة ، فقد اجتمع عليها الألم والاعياء والحزن واليأس ، فلم تجب أمها ، وإنما سارت في خطواتها الوثيدة المتهالكة إلى حجرتها ، وفتحت بابها في ضعف ، وأمها من ورائها لاتنى عن سؤالها عما بها ، وهي لاتنى عن الصمت ، حتى إذا بلغت السرير ارتمت عليه ، وصعدت شهيقا عميقا ، كأنها تطرد به من نفسها كل الآلام التي قاستها ، ثم قالت في همهمة :

— أخيرا .. الحمد لله .

وتولت نوال إبلاغ الأم بما كان من ابنتها وزوجها والحياة النكدية التي لقفتها منذ تركت القصر . وظلت نوال تحكي حتى أتت إلى آخر المطاف عند اليهودى ، وجزعت الأم من هذه الحادثة وقبل أن تجيب نوال إلى حديثها ، قامت إلى التليفون ، فاستدعت طبييها الخاص ، ليطمئنها على صحة ابنتها ، وحين رجعت إلى نوال قالت لها :

— إن اجهاضها لنفسها يمنع أى محاولة للإصلاح .. أرجو الله أن يقدرنا على الخلاص من هذا الشاب ، فأنا أعرف هذا الصنف من الناس .. ولكننا سنتخلص منه على أية حال .

ودخل أحمد إلى الغرفة مذعورا بعد أن أنبأه الخدم بمجيء أخته ، وبالحال الذي جاءته عليه ، وحين أنبأته نوال بما أنبأت به أمه ، قال في هدوء وجد :

— لقد كنت مقدرًا لهذا جميعه •• على أية حال سيطلقها ، فما أظنه

سيجرؤ على عدم الطلاق •

ونظرت إليه أمه في ابتسامة ساخرة :

— أتعن ذلك ؟ •• أتعن أنك ستقول له طلق فيطلق •

فقال أحمد في وثوق :

— طبعًا ••

— ما زلت صغيرًا يا أحمد •

— إنه صديقي وأنا أعرفه •

ونظرت إليه أمه نظرة عميقة وقالت :

— أتعرفه حقًا ؟

فتعثم أحمد هنيئة ، ثم قال :

— على كل حال لا أظن أنه سيمانع في الطلاق •

وقالت الأم في وثوق :

— ستري •• قم إلى التليفون واطلب إليه أن يأتي •

وقام أحمد وطلب فوزى في التليفون ، ووعد فوزى أن يأتي فورًا ،
وقبل أن يأتي جاء الطبيب وأجرى الفحص على هناء ، ثم نظر إلى
أمها وقال :

— أما هناء فبخير والحمد لله ، ولكن أنت •• أنت التي لا بد لك

أن تستريحي يا سهير هانم •

قالت سهير :

— نعم أعرف •

— يخيل إلى أنك لا تعرفين أبدًا •• إننى بغير أن أفحصك أرى

أنك مجهدة كل الاجهاد ، ولابد من الراحة التامة •

— أعرف يا دكتور سأستريح •

ونزل الدكتور ، وبعد حين جاء فوزى ، ورآه أحمد يدخل من
ابواب الخارجى ، فسارع نازلا إليه ، وحاولت أمه أن تستوقفه لتتزل
معه ، فطلب إليها أن تلحق به •

وفى الدور الأسفل التقى أحمد بفوزى ، وأراد فوزى أن يصعد
إلى الدور الأعلى ، ولكن أحمد قاده إلى غرفة مكتبه التى كانا
يجلسان بها ، وما كاد الصديقان يجلسان ، حتى قال أحمد فى تسرع
وفى حسم :

— فوزى ، أريدك أن تطلق هناء •

وفغر فوزى فاه من الدهشة ، ثم تمالك أمر نفسه وقال :

— ماذا ؟

— أريدك أن تطلق هناء •

— هكذا ، بهذه السهولة •• !!

— نعم •

— وإذا رفضت ؟ !

وأخذ أحمد من الطريقة التى يحادثه بها فوزى ، ولكنه صبر نفسه
وقال :

— لا أظنك ترضى أن تعيش مع زوجة تكره الميش معك •

ودخلت سهير الحجره فى هدوء ، وقام فوزى فلم تبال قيامه ،
وجلس على أقرب كرسى ، وجلس فوزى هو الآخر قائلا :

— ما هذا الكلام الذى يقوله أحمد يا نينا ؟

ولم تستطع سهير أن ترد عن قلبها تلك الغصة التى تحسها كلما
سمعتة يقول « يا نينا » ، ولكنها أغضت على السوء وقالت :

— ماذا قال أحمد ؟

— قال إنه يريدني أن أطلق هناء •

فقالَت الأم في هدوء :

— لا •• هذا غير صحيح •• إنه لا يريدك أن تطلق هناء ، ولكن
هناء تريدك أن تطلقها •

— ماذا ؟

فقال أحمد في غضب :

— ماذا ؟ ماذا ؟ إن الأمر كما سمعت •• ألم تكن تتوقعه •

وقال فوزى في هدوء :

— الواقع أنني لم أكن أتوقعه •

فقالَت الأم :

— على كل حال توقعك لا يجدي شيئاً •• ما رأيك الآن ؟

وصمت فوزى بعض الحين ، ثم قال :

— أيمكن أن أكلّمك على انفراد ؟

وقالت سهير :

— أي انفراد تقصد ؟ أنا لا أرى معنا إلا ابني •

وقال أحمد :

— أي سر يمكن أن يكون بينك وبين أمي ويختفى على ؟

فقال فوزى :

— إنها مسائل عملية لا أحب أن أتحدث فيها أمامك •

فقالَت الأم :

— لن يختفى شيء عن أحمد •• قل ما تريد •

فقال فوزى :

— الواقع أننى لا أستطيع العيش بدونها ، فحياتى كلها معلقة
برضاؤها عنى ، ولا أتصور كيف يكون حالى إذا تخلت عنى هناء ،
وقالت سهير فى هدوء :

— أنا أفهمك تماما يا فوزى ، ولكنى أريد أن توضح نفسك
فى جلاء ♦

— الواقع أننى لا أستطيع الطلاق ♦
فقال أحمد فى تسرع :

— يا أخى هذه صفاقة ♦

ونظر فوزى إلى أحمد وفى عينيه ثورة مصطنعة ، يخالطها أدب
متكلف :

— أظن أنه لا معنى للاهانات ♦

فقالت الأم :

— أسكت يا أحمد ♦ أنا آسفة يا فوزى ♦♦ قل ماذا تريد إذن ؟
وكيف يمكن أن تعيش معها ، وهى لن تعود إلى البيت مهما تفعل ،
لا أظنك تتوى طلبها فى بيت الطاعة ♦

فقال فوزى متلعثما :

— بالطبع لا ♦

فقالت الأم فى ثبات :

— فبييت الطاعة ، كما تعلم ، لابد أن تعده أنت ♦

وأطرق فوزى خجلا وقال :

— نعم أعرف ♦

— إذن ماذا تريد أن تفعل ؟

وصمت فوزى لحظات ، وأخذ يردد النظر بين سهر وأحمد ،
ثم قال :

— ألا يمكن أن نكون على انفراد ؟
ودهش أحمد من اصراره هذا ، وقالت سهر في حسم :
— لا .

فقال فوزى في بطاء :

— إذن فأنت تعرفين أنني في فترة الزواج هذه قد تعودت نوعاً
معيناً من المعيشة ، وأصبحت لا أستطيع أن أعود إلى المستوى الذى
كنت أعيش فيه ، فان هذا يخجلنى أمام أصدقائى .

وفغر أحمد فاه من الدهش ، ولم يجد شيئاً يقوله ، بينما قالت
سهر فى ثبات ، وكأنها كانت تدرك أن فوزى لن يسوق إلا هذا
الحديث الذى يسوقه الآن :

— إذن ماذا تريد ؟

فقال فوزى :

— والله أمرك ♦

— أتكفيك السيارة ؟♦♦

وصمت فوزى ، وقالت الأم :

— السيارة وأثاث البيت ♦

وقال فوزى :

— وماذا أفعل بأثاث البيت ، إننى لن أحتاج منه إلا إلى أثاث
ثلاث غرف فقط ♦♦ النوم والمكتب والمائدة ♦
وقالت سهر :

— وماذا تريد أيضا ؟

وعاد فوزى يقول :

— أمرك •

وانتفتت سهر إلى أحمد ، وقالت له :

— أحمد •• ارسل عم ذهب لينادي المأذون •

وقام أحمد والدهشة عاقدة لسانه لا تزال ، وقال فوزى :

— ألا نتفق أولا ؟

ودق أحمد الجرس ، وعاد إلى مقعده ، وقالت أمه وهي على
هدوئها :

— سنتفق يا أحمد •

وقال فوزى :

— ماذا ترين ؟

وقالت الأم لابنها :

— هات دفتر الشيكات من الدور الأعلى يا أحمد •

وقام أحمد ، وقبل أن يغادر الحجرة ، أقبل عم ذهب تلبية لنداء
الجرس ، فأمره أحمد أن يستأجر سيارة ويحضر بها المأذون فورا ،
ثم خرج ينفذ أمر أمه • ولم تتكلم سهر ، ولم يتكلم فوزى ، حتى
عادا حمد ومعه الدفتر ، وأخذته منه أمه ، وطلبت إليه قلما ، وكتبت
شيكاً وقمته وفصلته عن الدفتر ، ثم نظرت إلى فوزى قائلة :

— هذا هو الشيك •• اسمح لى ألا أعطيه لك إلا بعد أن توقع
الطلاق •

وقال فوزى مصطنعا الحياء :

— ألا أعرف الرقم ؟

وقالت الأم في حسم :

— ألف جنييه ♦

وهم فوزى أن يقول شيئا ، ولكنه رأى النظرات الجامدة في عيون أحمد وسهير ♦ وظل ثلاثتهم صامتين ، حتى جاء المأذون ♦ وطلب إليه أحمد أن يجرى إجراءات الطلاق ، وحين حاول المأذون أن يلقي خطبته التقليدية ، قطعها عليه أحمد ، وطلب إليه أن يمضى في إجراءاته بلا إطالة ♦

وتم الطلاق ، وتسلم فوزى الشيك ، وهم أن ينصرف ، ولكن أحمد أمسك به من طرف سترته وقال له :

— اسمع ♦♦ إن أشد ما آسف عليه أننى عرفتك ، فأننى أحتقر تلك الفترة في حياتى التى جمعتنى بك ، لقد خلقت في نظرى مستوى جديدا للانحطاط لم أكن أتصور أن يرتقى فيه أحد ♦♦ وكل رجائى اليوم ألا أراك أبدا ، وألا أذكر هذه الفترة التى عرفتك فيها ♦

وفى جمود نظر فوزى إلى الأرض وقال :

— أشكرك ♦

ثم انفتل خارجا يتحسس جييبه الذى وضع فيه ثروته الجديدة ♦

(٢٧)

كان سيد في طريقه إلى بيت وصفى باشا حين التقى به فجأة زميله
في الجماعة عبد العاطى بسيونى ، وحاول سيد أن يروغ من اللقاء ،
ولكن عبد العاطى لم يتح له فرصة ، وأمسك به :

— أين أنت يا أخى ؟

— فى الدنيا •

— لقد أرسلنا إليك بعد خروجك من المعتقل فلم تأت •

— آتى إلى أين ؟

— إلى الأسرة •

— أى أسرة ؟

— وذهل عبد العاطى ، وقال له فى سخرية :

— ألسنت السيد عبد البديع الذكر ؟

— هذا أمر لا شك فيه •

— هل جننت فى المعتقل ؟

— لا •• بل عقلت •

— ألا تعرف الأسرة ؟

— لا •• ولكن أعرف أن الجماعة قد حلت ••

— لكننا نجتمع •

— لا شأن لى باجتماعكم •

— أكفرت بمبادئنا ؟

— نعم وآمنت بنفسى •

— اتحنث فى يمين أقسمتها ؟

— أنا لم أقسم على القتل •

— هذا مروق ١١

— اسمع •• أنا فى طريقى إلى وصفى باشا شكرى بناء على طلبه ، وأعتقد أنه قد أعد لى وظيفة ، وسأقبلها فوراً ، وقد خطب لى أبى عروسا من أقربائنا وسأزوجها ، فأرجو أن تعتبرنى مستقيلاً من الجماعة •• أنا لم أعد عضواً •• أنا أريد أن أعيش يا أخى •• ابعدوا عنى •

— أنت مارق •• تتصل بأعداء الله وتخالف تعاليم الشريعة •

— أبداً وشرفك •• إننى سأصلى الخمس ، وأصوم الشهر ، وسأجج إن استطعت سبيلاً ، وسأؤدى زكاة إذا وجبت على الزكاة ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله •

— خدعتك الدنيا •

— بل إنى أعمل للأخرة أيضاً •

— سترى •• دولة الظلم ساعة ، والحق إلى قيام الساعة •

— انتظروا أنتم قيام الساعة ، وأما أنا فسأعمل بقول ربى :

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » •

— ولكن أولى الأمر لا يطيعون الله • ولو أكملت الآية لذكرت

قول ربى « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم

نؤمنون بالله وانيوم الاخر ذلك خير وأحسن تأويلا » صدق الله العظيم •

— فدعوهم لله يحاكمهم •• كيف تعرفون أنتم الحق من انبض من أعطاكم الحق في الحكم على الناس وعلى أعمالهم ؟ !
— كتاب الله نطبقه •

— كتاب الله للجميع •• وإنه يقول « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فمأنكم أنتم تتصدون للمحافظة عليه وحدكم ••؟
كيف تعرفون أن أحكامكم على الناس هي الصادقة ، وكيف تثقون أن تفسيركم أنتم لآيات الله هو التفسير الحق •• الدين للديان يا عبد العاطى •

— هذا فراق ما بينى وبينك •• أنت كافر •
— مع السلامة يا عبد العاطى •• مع السلامة يا أخى •• دعنى أعيش يا أخى •• مع السلامة •
ومشى عبد العاطى مغضبا دون أن يرد تحية أخيه سابقا ، وأكمل سيد طريقه إلى بيت وصفى بأشا •

وحين أذن له الباشا بمقابلته قال له :
— ستذهب غدا إلى سكرتير وزير المعارف ، وستجد طلبك عنده مؤثرا عليه بالتعيين •

— أطل الله عمرك يا سعادة الباشا •
— فى هذه المرة استطعت أن أنقذك ، فى المرة القادمة لن أحاول •

— أطل الله عمرك يا ••
ولم يكمل ، فقد دق جرس التليفون ، وسمع الباشا يقول فى جزع :



— ماذا يا هناء ؟

ثم سمعه يقول :

— متى ؟

ثم وضع الباشا السماعة وهو يقول « لا حول ولا قوة
إلا بالله .. » ♦

ولم يستطع سيد صمتا ، فقال للباشا دون وعى :

— خير يا سعادة الباشا ؟

فقال الباشا في ذهول :

— هذه آخرة لعب العيال .. لقد قبض على أحمد بتهمة
الشيوعية .. ماذا نفعل الآن .. الأمر في يد النيابة ، ربنا يطف
بأمره ♦

وثبت سيد في مكانه دهشا قانطا ألما ، لم يستطع إلا أن يقول
في حيرة وذهول :
— أحمد بك ♦

(٢٨)

عرف أحمد السجن ، وما كان يتصور أن يعرفه .. قاده إليه شرطي فظ ينفذ الأوامر في خشونة صماء ، فالجميع عنده سواء ، لا فرق ثمة بين متهم في سياسة ، أو متهم في جريمة ، وإنما كلهم في عرفه مسجين ، ثم لا شيء بعد ذلك ، ألقى أحمد في حجرة ضيقة ، أدار عينيه فيها فرأى دلوين ، وما احتاج لسؤال ، فقد كان يعرف أمرهما .. أحد الدلوين للشراب ، والآخر لافراغ الشراب ، وغير الشراب ، وهكذا يلتقى الانسان بالحيوان في كثير من الأحيان ، أى فارق إذن بينه وبين البهيم في حظيرته ، يفرغ طعامه حيث يأكله ، ويلقى بجسمه إلى الأرض في مساواة بينه وبين الدلوين ومساواة بينه وبين الحيوانات .

كان يفرح أنه مسقط العيون من الأمن ، وكان يفرح أنه مثار اهتمام من السلطات ، وكان يفرح باسمه الحركي ، وبالأسرار والتهاويل والطقوس ، وكان يفرح بلهفة أخته عليه ، وكان يفرح بأنه متحرر الفكر ، لا يدين بالله ، كما يدين عامة الناس والغوغاء الذين يطالب لهم بالانصاف من الأغنياء ، وكان يفرح أنه قطعة خارجة عن نظام التقطيع الذى يسعى الحياة في طريق تقليدى ، يسير على آثار السابقين ، وكان يفرح بأنه مهدد بالخطر ، وبأن أصدقاءه يخشون عليه هذا الخطر .

أما وقد وقع ما كان مهددا به ، فذاك ما لم يتوقعه ، فجميل أن

يكون ذا أهمية ، وأن يشعر بأنه ذو خطر يسعى رجال الأمن خلفه ، ولكن ليس جميلاً أبداً أن يوقع به رجال الأمن في السجن ، فالواقع ان أحمد ، برغم أنه كان فرحاً بأنه مهدد ، إلا أنه لم يكن يتوقع أبداً أن يدخل السجن ، فما كان يتصور أنه هو .. ربيب القصر ، وحاكمه ، والسيد الأول فيه والآخر ، يدخل السجن ، وما كان يتصور أن يلقى إلى السجن ، وعمه وصفى باشا يتمتع بهذا النفوذ . كان في عميق نفسه يستبعد فكرة دخوله السجن ، ولكنه كان يترك هذه الفكرة طافية على سطح شعوره ليستأنف منها هذا الأريج الحاو من الاحساس بالأهمية .

وأجال أحمد نظره ثانية في حجرة السجن ، وعاد إلى نفسه يسألها ، إذن فهذا هو السجن ، فمن هنا إذن عرف الناس الحرية ، وذكرته كلمة الحرية بالخطبة التي ألقاها فؤاد ، جميلة هي الحرية .. إن شيئاً في العالم لا يساوي الاحساس بالحرية .. حرية الحركة ، وحرية الشعور ، وحرية التفكير ، وحرية القول .. من هنا يستطيع أن يدرك قيمة الحرية .. لم يستطيع أن يدرك قيمتها إلا حين فقدوها .. كم هو غبي وإن ادعى تحرراً في التفكير .. كيف قبل أن يؤيد نظاماً لا يعترف بالحرية ، ويرى فيها معنى رخوا لا يسير بالحياة إلى أهدافها السامية .. وما أهداف الحياة السامية ؟ أليست هي معاني تقف الحرية منها موقف الزعامة .

إن الله أعطى عبده حرية التفكير والعمل ثم حاسبهم ، الحرية أساس النظام الذي أقامه الله .. سبحانه يا رب .. يا رب فك قيدي لأقدس الحرية .. إني ألجأ إليك يا رب ؟ !!

يا ماذا ؟ ماذا أقول .. أقول يا رب ؟ يا للضلال الذي كنت

فيه !• لجأت إليه عند أول نازلة ، وكفرت به في النعمة •• أى هباء كنت أعيش فيه ؟! أأقول يا رب بهذه البساطة ، وكأننى لم أكفر به ، ولم أخرج عليه ، ولم أعتبر التابعيه بهائم مخدرين ، أأقول يا رب ، وأجد لها في نفسى هذا الرنين ، بل إنى أحس الآن أنى قريب إليه ، وأحس أملا يشيع في نفسى من بعد ضيق ، وأحس صدرى وقد أشرقت فيه أضواء جديدة باهرة حلوة • أكل هذه المعانى تتواكب في نفسى المظلمة من كلمة واحدة تتطلق من صميم الفؤاد •• يارب •• نعم إننا نحسه ولا نحلله ، إننا نؤمن به فنصل إليه ، ولكننا لا نفحصه ولا نضعه على أسس من المنطق والعقل ، وإلا فما هذا الشعور الطو الذى ينساب في نفسى ، ما قول المنطق والعلم والفلسفة في هذا الشعور ؟ ما رأى العلوم جميعا في هذه الراحة التى أتملاها منذ قلت يا رب ، وما رأى المذهب الذى أدين به في هذا الهدوء الذى يتمشى في أوصالى من بعد اضطراب وضيق ويأس ، لا يفصل بين الشعورين إلا كلمة واحدة قلتها •• يا رب •• فإذا أنا سعيد ••

أى ضلال كنت أسعى فيه ؟! إن مذهبي فيما أذكر تعرض لهذا الشعور الذى أحس ، نعم إنى أذكر نظريته في هذا الصدد ، لقد أحسوا بالخطر الذى يطالعهم من قول الناس « يا رب » فأنشأوا نظرية ليحاربوا بها الخطر •• يقولون أننا لو هيأنا للإنسان حياة مستقرة ، ينال فيها ما يطمح إليه ، ومشت به الحياة في الطريق الهادئ الأمين ، لو فعلنا ذلك ما احتاج الإنسان أن يقول يا رب •• يا للضلال الذى كنت فيه ! وهل حياة الإنسان كلها مادية لا يحتاج فيها إلا لمطالب الجسد التى يريد مذهبهم •• أليس للإنسان رغبات أخرى •• ألم يدركوا تلك الحياة التى تمور في نفس الإنسان ،

متقلبة بين السخط والرضى ، والاقبال والنفور ، والضيق والانشراح ، بلا داع إلى السخط أو الرضى أو الاقبال أو النفور أو الضيق أو الانشراح • أين نولى وجوهنا عند الضيق ، وأين نولى وجوهنا عند الرجاء ، وأين نولى وجوهنا عند المرض ، ولماذا هذا التساؤل جميعا ؟ • أين نولى وجوهنا في هذا السجن الذى ألقيت إليه • أنا الآن لا أحتاج إلى طعام ولا شراب ، بل إننى هنا فى السجن مكفول الرغبات ، مهما تكن هذه الرغبات محققة بأبخس ما تقبله النفس من خبز أسود وأدّم حقير ، الا أننى على أية حال مكفول الرغبات • فهل أنا مستقر الحياة ، هادىء على الطريق ، لا أحتاج إلى أن أقول « يا رب » ، فما لها انطلقت من صميم الفؤاد ، مالى وجدت نفسى أقول « يا رب » دون أن أفكر فى قولها • إننى الانسان • أنا عالم فى نفسى • عميق الغور ، جموح العواطف ، موار الأمواج ، وويل للانسان إن ضل غوره ، أو هدا عاصفه ، أو استكانت الأمواج فيه • إن جمال الانسانية فى هذه الاشراقات التى تعقب الضيق ، وفى هذا التقلبات التى لا يستقر بها قرار ، فمن لى فى هذه الأنواء ، وما أقول إن لم أقل يا رب •

لقد فكر المذهب فى كل شىء ونسى الانسان الكامن فى نفس الانسان • • الطبيعة الانسانية هى أشد أعداء المذهب عنفا •

ولكن مالى أجهد فى إقناع نفسى بأن أترك اقتناعى بمذهبى ، هل مر على حين من الأحيان كنت فيه مقتنعا بمبدئى كل الاقتناع ؟ هل أذكر لنفسى فترة كان المبدأ خلالها مستقرا فى عميق إيمانى ؟ • لا أذكر • أنا لا أذكر أننى كنت عميق الايمان بشىء على الاطلاق •

لم أكن أحصل الايمان بمبدئى ، كما لم أكن خالص الايمان بشئ •
 كان هذا هو سر شقائى •• حاولت أن أهرب من القلق والفشل إلى
 المبدأ ، فخيّل لى أننى مؤمن به ، ولكننى كنت أعلم دائماً إننى
 أحب فيه الاسم الحركى ، وأحب فيه الاستخفاء عن الأمن ، وأحب
 فيه إثارة هذه السحابة من الابهام والغموض والاسرار حولى ،
 وأحب فيه لهفة أختى على ، كلما رأتنى نازلاً إتنى موعد اجتماع ،
 وأحب فيه الاجتماع نفسه ومناقشة أمور الكون جميعاً كنا نتحدث
 عن العالم أجمع ، وكأننا نحن حكامه ، وكنا نتخذ العالم أجمع
 مجالاً لتطبيق النظريات التى تعلمناها ، والمبادئ التى نعتنقها ••
 كنت أرى نفسى فى هذا الاجتماع نداً لله ذاته ، فحق لى إذن أن
 أبحث فى وجوده وفى تعاليمه •• لم أكن أحسه فكفرت به ، واعتقدت
 أننى آمنت بمبدئى ، ولو أننى أزلت عن نفسى ما تتخذه من أقنعة ،
 ولو أننى انتقيت بنفسى لقاء خالصاً من كل زيف نتستر خلفه ،
 لعرفت أننى كنت أومن بمظاهر مذهبى ، دون أن أومن بمذهبى
 ذاته •

إنى أعرف ذلك فى نفسى ، ولن أنسى تلك الانتقاضات التى كنت
 أواجهها من نفسى بين حين وآخر ، ولن أنسى أننى كنت أقهر
 مضطربها ، وأسكن مائجها ، لقد كنت محتاجاً لمذهبى ، لأقنع
 نفسى به أننى ذو شأن •• لم أستطع أن أكون ذا شأن فى شئ ،
 فأتخذت هذا المذهب ، وإنه والحق يقال ، يمد النفس بشعور
 ضخمة من الأهمية ، إن هذه مشكلة لا بد لى أن أواجهها الآن
 ما دمت ألتقى مع نفسى فى هذه الصراحة التى لم نتعودها ، وما دمت
 أنتوى أن أترك المذهب •• هل سأتركه ؟ •• نعم ، لقد آمنت بالله

واحسسته ، والمذهب لا يقبل مؤمنا بالله .. إذن ففيم يكون تفوقى ؟
 لو أن المذهب يقبل منضما له ومؤمنا بالله ؟ إذن ؟ إذن ماذا ؟
 إذن لظلت منتظما فى سلكه ، إن للمذهب ألفاظا حلوة الرنين ،
 سريعة النفوذ إلى الاحساس .. كان يعجبني فيه أنه لا يساوي
 بالقطيع .. ولكن أى قطيع يقصد .. أليس القطيع هو الشعب الذى
 يريد المذهب له العدالة والانصاف من الأغنياء ، ويريد أن يسوى
 بينه وبين جميع الأغنياء ، فلا يكون فى العالم غنى ، ولا يكون فى
 العالم فقير .. لا شك أن هذا معنى من معانى القطيع .. وهناك
 معنى آخر .. قطيع الذين سبقونا * ولكن أليس المذهب نفسه
 يقدس قطيعا سبقه من الذين أسسوه ووضعوا دعائمه الأولى ،
 قطعان نحن فى كل منحى من مناحى الحياة * ولكن ماذا يضيرنا
 أن نسير فى طريق قطعه من قبلنا ، بل كيف نعرف أخطاء السابقين ،
 إذا كنا لا نرود طريقهم ، بل كيف نتقدم إذا نحن لم ندر أين وقفوا ..
 إن نقطة البداية فى سير من سبقونا ، هى نقطة البداية فى سيرنا ، وهكذا
 يتقدم العالم * لا يستطيع كل جيل أن يكفر بما سبقه ، وإلا ظل
 العالم واقفا فى مكان واحد لا يتقدم .. إن تقدم العالم خطوات من
 الأجيال المتلاحقة ، واعتراف من اللاحق بفضل السابق ، وتصحيح
 من اللاحقين لأخطاء السابقين .. وهناك قيم انسانية وضعتها
 الأجيال ، ثم لم تغيرها الأجيال ، وهناك مشاعر انسانية بدأت مع
 الانسان ، ولم يستطع الانسان أن يغيرها ، لأنها جزء منه ، هل
 يحق لنا نحن اللاحقين أن نعدو على هذا النقيم فنغيرها ، أو هل
 يحق لنا أن نغير هذه المشاعر .. هل يجوز لنا أن نغير ما استقرت
 عليه الأجيال من تقديس الحرية والعدالة والآداب العامة التى
 تعارف الناس عليها ، والأمانة والشرف والوطنية .. هذه القيم

وأمثالها ، هل يجوز لنا أن نعدو عليها .. لا نستطيع ، فهل يجوز لنا أن نغير المشاعر ؟ .. السؤال في ذاته غير جائز ، لأنه ليس في طوقا لانسانية أن تغير المشاعر .. كيف نغير مشاعر الحب والبغض ، والضيق والسرور ، والفرح والألم ، والراحة والاضطراب ، أجيال مضت وأعقبها أجيال ، والقطيع سائر يتقدم في العلم وفي الفن ، ولكنه يقف عند هذه المشاعر ، كل جهده إزاءها أن يحللها ويصفها ويرسمها ، ولكنه أبدا لم يستطع أن يغير منها شيئا . فالقطيع إذن كلمة نقولها فنبغضها ، ولكننا إذا مشينا قليلا وراء معناها ، وجدنا أن سير القطيع هو الذي بلغ بالمدينة إلى هذا المدى الذي بلغته اليوم .. على أن يكون في القطيع عقول واعية تدرس وتفكر وتطمح إلى التقدم ، وتسعى إليه وتبلغه ، أو تترك من الآثار ما يجعل الانسانية تبلغه .. هو ليس قطيعا إذن .. إنه الانسان يسير في طريق الحياة ، وله هدف محدد واضح ، هو نمو الانسانية وتقدمها وبلوغها إلى أسرار الكون ، وانتفاعها بهذه الأسرار فيما يفيد الانسانية جميعا .. الانسانية إذن تجمع السابقين واللاحقين ، ومن يخرج عن ركبها عضو أبتز فلا نفع فيه ، إن من يقف على حافة الطريق ، ويسخر من البائسين ولا يشجعهم ، عضو أشل ضعيف ، أشفق من السير ، وخاف الطريق ، فوقف يريد أن يعرقل البائسين ويعوق تقدمهم ، ولكن الانسانية أقوى منه ، ومن كيده ، فهو يسخر ثم لا يصنع شيئا .. لقد كنت كذلك .. إنني لم أسر مع أحد .. لم أسر مع مذهبي ولم أقتنع به ، ولم أسر مع غير مذهبي ، وسخرت منه ، لقد كنت إذن على هامش الطريق . الانسانية لم تستفد مني شيئا .. لعلني كنت مشفقا لأنني لم أستطع أن أكون ذا موهبة في شيء .. ولكن هل لابد لي أن أكون حتى أسير

الطريق .. هل كل إنسان فى العالم ذو موهبة ، كيف تستقيم الحياة ، وكيف يكون صاحب الموهبة فذاً إن كان يستوى فيها مع الناس أجمعين ؟ .. إننى الآن أعرف أننى لست صاحب موهبة ، ولكننى أيضاً تبينت الطريق والهدف ، إن خير ما أستطيع أن أفعله أن أكون إنساناً .. إنساناً يسع العالم أجمع فى قلبه ، يشفق على الضعيف ويعينه ، ويفرح للنجاح ويشجعه ، ويؤيد القوى إن كان على حق ويضعه على الطريق إن أخطأ ، ويثور فى وجهه إن عدا وظلم وبغى ، فلن ترى الانسانية أبشع من قوى يظلم ولا يجد من يقول له ظلمت .. إننى الانسان ، أهم عنصر فى هذا الوجود الضخم .. المواهب جميعها تسعى لاسعادى أنا الانسان .. فهل أستطيع أن أكون إنساناً يستحق ما تقدمه له المواهب ؟ هل أستطيع أن أتذوق الفنون وأحسها ؟ وهل أستطيع أن أتابع التقدم العلمى وأعييه بجهدى الذى لا يتمتع بموهبة .. وقبل كل هذا هل أستطيع أن أسمع فى قلبى المخطئ ، ولا أهينه ، والمحسن ولا أحقد عليه ؟ وهل أستطيع أن أغالب نفسى فلا تسعى إلى الشر ، بل هل أستطيع أن أتيح لخير نفسى أن يتغلب على شرها .. ولكن هل أصادق الشرير ؟ .. لا .. فليس هذا من الانسانية فى شئ .. فصادقته تشجيع له على المضي فى شره .. فهل أجازيه الشر بالشر ؟ .. إن اقتصر العقاب عليه فنعم .. هل أستطيع أن أحب الجميع ؟ .. هل أستطيع أن أحب أبى ؟ .. نعم .. نعم ؟ .. إننى أدرى أنه هو الذى ألقانى إلى هذا الشك ، وإلى هذه الحيرة ، لم أستطع أن أحترمه أبداً .. ولكن ما ذنب أبى .. إن فى نفسه عوجاً ، ولكن من يستطيع أن يحتمله إن لم أحتمله أنا ، ومن يعينه إن أنا لم أعنه .. إننى أريد أن أكون إنساناً .. فهل أستطيع .. الطريق وعر ، ولكننى سأستطيع ..

(٢٩)

كذت سهير لائذة بسريرها ، مرغمة على الاستلقاء فيه ارغاما ،
ولم تترك وشأنها ما استقر بها قرار ، ولظلت حائرة بين السجن
وأولى الأمر ، ولكن تكاثروا عليها وأرغموها على أن تظل بسريرها ،
وكانت أقوى حجة في يدهم أن وصفى قطع الأمل عندها أن يستطيع
أحد من ذوى السلطان عملا ، فابنها منهم في جريمة يعاقب عليها
القانون ، والقضاء وحده هو المختص ، ولا سبيل لأحد عليه • ولكن
ماذا يجدى استلقاؤها هذا ، وقبلها هو المريض ، والألم يعتصر
قلبها ، وسيظل يعتصره مهما تلجأ إلى الراحة ، إن المرض في نفسها ،
فأين لها المهرب من نفسها ؟! • أحمد في السجن •• ويلى مما صنعت
الأيام !! ••

ودق جرس التليفون ، وكان المتكلم هو وصفى باثنا ، وقد
ألقى إليها أنه استطاع بعد جهد أن يجعل النائب العام يعجل
بالتحقيق مع أحمد ، وقد تقرر أن يبدأ التحقيق معه في الغد •

وما لبث سليمان أن دخل الحجرة فأنبأته ، فما زاد على أن أطرق
صامتا ، وراحت سهير تنتظر إليه وتطيل النظر ، لقد رأت في
وجهه معالم حياة •• لقد رآته يتألم ، وأحست ألمه •• كانت تحس
ألمه في نفسها ، كما تحسه في وجهه ، لقد التقيا آخر الأمر على
أجساد واحد ، وإن يكن هذا الاحساس هو الألم ، إلا أنهما
التقيا عليه آخر الأمر •• عجيبة هذه الأيام ، أكان لا بد لنا من هذه

انفواجع حتى نلتقى ؟! وهل كان لا بد لنا من اللقاء ؟.. عجيبة ؟..
 إن التنافر الذى كان بيننا هو الطريق الذى أدى إبنى لقائنا اليوم .
 لقد نشأ ولدانا فوجدانا متنافرين ، لم نتحد يوما على تربيتهما ،
 ولم نتأزر يوما من اجلهما ، كانت الصلات بين الأبوين مفككة
 هشة فنشأت أخلاق طفلينا مفككة هشة . بذلت أنا الأم ما فى
 وسعى ، ولم يكن للأب وسع ، فلم يبذل شيئا .. ولكن هل بذلت
 ما فى وسعى حقا .. أترانى كنت أقوم بما يجب على ؟ .. أكان كل
 واجبى أن أحقق رغبات طفلى مهما تكن هذه الرغبات .. أكان
 يجدر بى أن أترك أباهما أمامهما يتصاعل ويضمحل حتى يصبح
 شيئا كالهباء من العدم ، فاذا هما ينشآن بلا قدوة أمامهما ، ولا
 إيمان بشيء ولا احترام لشيء . أكتت أستطيع أن أقيم من سليمان
 شيئا .. ما أظننى كنت مستطبعة ؟ ولكن هل حاولت ؟ لا .. لم
 أفعل .. ولم أحاول حتى أن أقيم خلق طفلى ، لم أحاول لهما شيئا
 إلا أن أنفذ ما يريدان ، ثم أنطوى على ألى ضئيلة به ، أخشى أن
 يزول ، كنت ألتذ ألى ، لأنه يحمل لى ذكريات من الشباب والهوى ،
 وفى غمرة من اللذة والألم والذكريات والشباب والهوى لم أحفل
 أمر ولدى فنشأت ضائعين فى بيداء لا هدف لهما فيها ، تائهين لا يحدد
 أملهما مطمح أو غاية .

كنت ضعيفة أمام ألى ، كما كنت ضعيفة أمام طفلى . كنت ضعيفة
 أمام ألى منذ اللحظة الأولى ، لقد هيات لنفسى حينذاك أننى قوية ،
 وأننى أنتقم لحبى المهجور .

فاذا بى أنتقم من نفسى ، وخيل لى أننى فى انتقامى لنفسى
 قوية ، ولكن هأنذى على الأيام أتبين أننى ما انتقمتم إلا عن ضعف ،

فالانتقام جميعه ضعف .. إنه لا يصدر إلا عن إنسان عجزت نفسه أن ترد الشر الصاخب فيها ، ولا يصدر إلا عن إنسان هانت عليه نفسه ، فعقله ضئيل ، وعاطفة النعمة عنده طاغية ، فهو مغلوب على أمره من عاطفته ، ومن عاطفة شريرة فيه .. كنت ضعيفة حين تزوجت سليمان ، هدى هجر وصفى لى ، فلم أتمالك أمر نفسى وقسوت ، ثم .. هأنذى أرى أن قسوتى لم تكن منى إلا ضعفا ..

وكنيت ضعيفة أمام طفلى .. فما زلت أجسم لنفسى أن ليس لى إلا هما ، فضعت وكنيت أعلل ضعفى دائما بأننى لا أمل لى إلا هما ، ولو كان هذا المعنى عميق الغور فى نفسى لاستطعت .. أو حاولت على الأقل أن أجعل منهما شيئا آخر غير هذا الذى صارا إليه .. ولكن الواقع أننى عشت فى الألم الذى خلقته لنفسى منذ أول حياتى ، ثم أبيت أن أخرج عن هذا الألم ، فكان ما أقاسيه الآن من ابنة مطلقة ، وهى لا تزال فى أول بواكير الشباب ، وابن سجين وهو لا يزال فى أول بواكير الحياة .



بكرت الأشعة الأولى من الشمس ، فلم تجد سهير فى فراشها ، بل كانت قد استيقظت فى زوال الليل ، وارتدت ملابسها ، ومكثت تنتظر أن تعلن إليها هذه الأشعة أن اليوم الجديد قد جاء ، وأنها تستطيع أن تلتقى بابنها .. على أى حال ستراه ؟ .. إنها لا تدرى ولا يهمها أن تدرى ، كل ما تصبو إليه أن تراه .

واستيقظ سليمان مبكرا ، وعجل بارتداء ثيابه ، ونزل هو وزوجته إلى مقر النيابة التى سيحاكم فيها أحمد .

ودخلت سهير المحكمة .. الله للأيام ، لماذا يقيسو عليها الزمان
هذه القسوة ، أتدخل هي المحكمة لترى ابنها مقبوضا عليه ؟! ..

وفي ساحة المحكمة رأت سهير المساجين ، والشرطة ، يروحون
بهم ويعدون ، وهم كالثيابه المستسلمة لا تملك من أمر نفسها أمرا ،
القيود في أيديهم ، والملابس الزرقاء ملقاة عليهم ، واليأس يملأ
عيونهم ، والمذلة تغشاهم . أهذه هي نهاية المطاف ؟ أيقدر لى
أنا ان أرى ابني ندا لهؤلاء ، بعد أن أفنيه عمرى من أجله ، أكل ما قد
فعلته ، وكل ما قد امتنعت عن فعله ، لا يثمر لى إلا هذه النهاية
انكالحه الشوهاء .. أمن أجل هذا أهدرت شبابى ، ولذات حياتى ،
وامال المطالع الأولى من اشراقات عمرى ، أمن أجل هذه النهاية
لازمت سليمان ، وقطعت كل خيط يصلنى بأمل من سعادة ، وحييت
الى وأحييته كلما آذن بضعف ، وكلما أشرف به النسيان من الزمان
على وهن . أنا من صنعت هذا المصير ، أترانى أنا من مهدت له ،
أترانى أنا قد شغلت بألى عن ولدى ، فكان هذا المصير الذى ألتقى
به فى أخريات العمر منى ، وفى أوائل العمر منه . أو كنت أقدر ؟
أم هل كنت أفكر ؟ .. لا .. ما فكرت فيما قد يصير إنييه ولدى ،
ولا حتى فكرت فيما قد أصبح إليه أنا ، ولكن هل أخطأت إلى هذا
الحد ؟ هل كان خطئى كافيا وحده ليقودنى إلى هذا المكان ؟ .. هنا
مع زوجات المجرمين وأمهاتهم ، أى فارق بينى وبين هذه المرأة
هناك ؟ .. تلك أنتى تحيط بها أجواء من الجهل واليأس والألم ،
وأى فارق بينى وبين تلك التى هنا تحمل طفلها على كتفها ، وترنو
إلى زوجها الشاب ، يقاد إلى حيث لا تدري ولا يدري من مصير ..
لعل هذه الأم خير منى ، لعلها هى لم تخطئ ولم تكن لها يد فى
الجريمة التى ارتكبها زوجها ، ولعلها ترعى وليدها خيرا مما رعت

« ويبدى .. ولكن أكان خطئى يستحق هذا جميعه ؟ .. أم أن سليمان كان مخطئا معى ؟ لا .. لا أرى سليمان أخطأ فى شىء ، لقد جرى على طبيعته لم يغيرها ، وكان على أنا أن أعوض ولدىّ عن أبيهما .. لا بأسال وحده ، ولكن بالرعاية والتقسيم أيضا ، ولكن ماذا يفيد انندم الآن ؟ بل ماذا يفيد أى شىء الآن ؟ .. لا .. ما أظن شيئا يفيد !! »

وبينما سهر فى غمرة من هذه الأفكار والذكريات ، أقبل وصفى إليها مصطحبا صديقه المحامى الكبير مصطفى باشا حسنى ، وما إن رأيته حتى عصفت بنفسها نوازع شتى من الألم والاطمئنان والحصرة والجزع *

قال وصفى :

— لماذا تجلسين هنا ؟

فأقلت سهر :

— إن سليمان يقول إنه سيمر من هنا *

فصمت وصفى هنيهة ، ثم التفت إلى صديقه يقول :

— تذهب أنت إلى غرفة المحامين يا باشا *

وقال مصطفى باشا :

— وأتركك .. لا يا أخى .. لا طبعاً .. سأنتظر هنا معكم ..

حتى يبدأ التحقيق *

فقال وصفى :

— ألا تبلى وكيل النيابة أنك هنا ؟

فقال مصطفى باشا :

— حين يجىء المتهم سأدخل لوكيل النيابة ، لا تتشغل يا باشا ،

كل شىء سيكون على ما يرام *

ومست كلمة المتهم قلب سهير ، ولكنها ما لبثت أن سفرت من نفسها وهي نسائلها ، وبماذا يمكن أن يسمى .. إنه متهم .. وليس له هنا اسم آخر ..

وبينما كانت سهير شاخصة إلى الباب ، لا تميل ببصرها عنه ، مال وصفى على سليمان :

— سليمان .. سهير متعبة ، التعب يبدو على عينيها بشكل واضح ، أرجوك أن تأخذها إلى البيت بمجرد أن ترى أحمد .
— نعم يا باشا سأفعل .

وشمل الصمت أربعتهم بعض الحين ، ثم ما لبثت سهير أن رأت السيد عبد البديع يدخل من باب المحكمة مضطربا بادی الألم ، وبرا هم السيد ، فأقبل إليهم مسرعا ، وحياهم جميعا في أدب حزين ، ثم أراد أن ينتحى ناحية ، ولكنه رأى جعفر وحسام يدخلان انساحة ، فوقف حيث هو ينتظرهما ، وقصد الشابان إلى حيث كان الجميع يجلسون ، وقالت سهير :

— كيف أنت يا حسام ، متى جئت من البلد ؟

— أمس مساء .. طلبتني أمي .

ثم التفتت سهير إلى جعفر :

— كيف حالك يا جعفر ؟

— بخير يا عمتي .. الحمد لله .

ثم انتحى جعفر وحسام بالسيد ناحية مستترة ، وراحوا يدخنون في صمت ، وأنظارهم إلى الباب تنتظر مجيء أحمد .

ولم يطل بهم الانتظار ، فسرعان ما جاء أحمد مرتديا ملابسه العادية ، لم يزد عليها إلا القيد الذى يكبل يديه • ونظرت سهر إليه ، وزارت فى صدرها صرخة مجنونة ، لم يمنعها من الانطلاق إلا أنها فى صدر سهر تمور •• ولم تجد الصرخة سبيلا إلى الهواء إلا فى كلمة واحدة ، قالتها الأم فى صوت خفيض كسير ، ملتهب النغمات ، واله الرتين :

— أحمد •

ونظر سليمان إلى ابنه يقترب منه والقيد فى يديه ، ابنه المتكبر الذى لم يره فى القصر إلا على الرأس ، حاسم الأوامر ، شديد الترفع ، قليل الحنين لأبيه ، قليل الاحتفاء به •• أحمد الذى لم يستطع رغم علمه بما يدور فى نفسه نحوه إلا أن يحبه أشد الحب •• حبا يستخفى ، لأنه لا يجد فرصة للظهور •• أحمد المتكبر الحبيب ، يقاد وفى يديه القيد •• وكالنبع تسده الصخور عن الجريان ، فيحطمها ويسيل ، سالت الدموع من عيني سليمان •

واقترب أحمد ، وراع القوم المنتظريه اشراقه فى وجهه ، لا تتدفق إلا عن نفس مطمئنة هادئة ، ونظرت الأم إلى ابنها ، وحاولت أن تبسم ، وجاهدت لتفرج فمها عن ابتسامة تصحب ابنها إلى التحقيق ، ويسر لها الأمر ابتسامة عريضة طالعتها من ولدها ، فلاقتها بابتسامتها هى المخضلة بالدموع ، ثم لم تزد •

والتفت أحمد الى أبيه فى اشفاق وحب واهتمام :

— لا ترع يا أبى •• لن يكون إلا ما يسرك •• أقسم لك يا أبى •• أقسم بحياتك أنه لن يكون إلا الخير كل الخير •

وخفق غؤاد سليمان فى وجيب متدافع .. بحياتى أنا .. أبحياتى
 أقسمت يا ودى .. أحياتى عندك قسم .. ألى حياة عندك يا ودى ..
 حذار يا ودى أن يختطفك منى السجن .. فى رعاية الله يا ودى ..
 دعاء تردد فى قلب الأب .. فى كل خلجة من خجأت قلبه ، ولكن
 لسانه ظل مذهولا بالمفاجأة ، معقودا بالدموع ، لا يطيق أن يصل
 بهذا الدعاء إلى أذن ابنه ، ولكنه كان واثقا أن الدعاء قد بلغ آذان
 السماء •

ونظر أحمد إلى عمه وصفى باشا ، ومد له يده ، فوجد يده الأخرى
 تصاحبها ، فأطبق بيديه كليهما على يد عمه ، وقال ودعمة متألقة
 تموج فى عينه تظل بها لا تسيل :

— يا عمى ، أنا مقدر مجيئك ، ومقدر كل ما تبذله من جهد لأجلى •
 أشكرك لا تكفى ، ولكنى لا أجدر غيرها .. أشكرك •

وقال وصفى باشا فى ثبات :

— أى شكر يا أحمد ؟ .. أنت ابنى .. أريدك أن تثبت ، بل لا أريد
 منك شيئا ، فهذا الذى أراه فى وجهك فوق ما كنت أنتظر •

وأقبل الشبان الثلاثة على أحمد يحادثونه ، وحاولوا أن يبتعدوا
 بحديثهم عن العواطف ، وعن السياسة ، وعن التحقيق ، فلم يجدوا
 إلا كلاما أجوف وقع فى نفس أحمد موقعا حطوا • لقد كان يدرى
 ما يدور فى نفوسهم ، وكان يقدره •

قص حسام عليه ما صنعه فى البلاد ، وما ضاق به فيها ، وما سره ،
 وقص عليه السيد أمر عروسه وفرحها بأنها ستأتى الى مصر ،
 ووقف جعفر يعلق على الحديث جميعه ، محاولا المرح ، ما أتاحت

له نفسه هذا المرح ، حتى جاء الحبيب آخر الأمر يستدعى أحمد
للتحقيق الذى سبقه الى غرفته محاميه مصطفى باشا • وقال الشبان
لأحمد : انهم منتظرون ، وودعته أمه وأبوه بدعوة تتصاعد
الى السماء من عيونهم ، ومن دموعهم ، وقال له وصفى باشا :

— كن كما أنت يا أحمد ••

• ودخل احمد غرفة التحقيق •

وحاولت سهير أن تعود الى مجلسها ، ولكن وصفى وسليمان
والشبان اقنعوها ان التحقيق سيطول ، وانها لا تستطيع الانتظار ،
وكانت الأم فى حال لا تحتل معها كثرة اللجاج أو العناد فخضعت ،
وخرجت يصحبها سليمان ووصفى •

مكث الشبان الثلاثة ينتظرون نتيجة التحقيق • وهم بهم ضابط
بوليس دخل غرفة التحقيق ، ومكث بها بعض الحين ثم خرج
واتخذ انفسه كرسيًا بجانب باب الغرفة •

وبعد ساعات طويلة انتهى التحقيق ، وخرج أحمد وانضم اليهم
والاشراقة لا تزال ماثلة فى وجهه ، تشيع الاطمئنان حوله ، وتبعث
به دافئًا الى قلوب اخوانه ، وسألوه عما دار بالتحقيق ، فأنبأهم
بأنه لا دليل لدى النيابة ضده •

وقال السيد عبد البديع :

— أنا واثق ان التحقيق سيحفظ •• لقد حفظ التحقيق مع

فوزى عبد المجيد ولكن ••

ولكنه لم يكمل الجملة ، وكأنما أحس أنه ما كان له أن يذكر
اسم فوزى •• أشعره بذلك هذا الوجوم الذى لصق بوجه حسام ،

ولكن أحمد كان مصغيا للحديث باهتمام ، فهو يقول لسيد محاولا أن يخفف عنه الحرج الذى وضحت آثاره عليه :

— اذن فالقضية جميعها لا دليل فيها .. أنا واثق من ذلك ..
لقد أرحتنى يا سيد .. لأنك بشرتني بأئنى سأخرج *

وقد السيد فى اطراق :

— ان شاء الله *

وقال أحمد :

— يا أخى ، ليست هذه لهجة المتفائل .. ألم تقل ان فوزى
قد أفرج عنه ؟ !

وقال السيد فى ألم ووجوم :

— لا .. لم أقل انه أفرج عنه ، ولكننى قلت ان التحقيق
حفظ لعدم كفاية الأدلة *

وقال أحمد :

— التحقيق حفظ يعنى أن فوزى أفرج عنه *

وقال جعفر فى ثبات *

— لا .. النيابة أفرجت عنه ولكن البوليس اعتقله *

وبهت أحمد هنيهة ، ووجم حسام ، ولكن جعفر سارع قائلا :

— أظن أنهم لن يعتقلوا أحمد ، فاذا فعلوا ، فأعتقد أن أبى
سيجعلهم يطلقون سراحه *

وقال السيد :

— طبعاً •

وقال جعفر :

— لقد كنت أعلم أن فوزى معتقل ، فقد جاءنى صديق لى وله :
ورجائى أن أكلّم أبى ليشفع له فى الإفراج عنه •

وامتنع وجه حسام ، وسارع السيد قائلا :

— بعد ما فعله يا جعفر بك !!

فقال جعفر :

— والله أنا أيضا لم أكلّم أبى ، ورغم أن صديقه أخبرنى أن
أبا فوزى قد أصيب بالشلل ، ولم يعد للبيت رجل غير فوزى •

وظل حسام على وجومه ، وارتبك سيد فلم يقل شيئا ، وقال
أحمد فى هدوء وثقة :

— ولماذا لم تكلم عمى ؟

وعلت وجوه الشبان الثلاثة دهشة ، كان جعفر أسرعهم فى
التخلص منها ، وقال :

— الحق ، خشيت أن أغضب اثنين •• خشيت أن أغضبك ،
وخشيت أن أغضب أبى ذاته •

ومست قلب حسام غصة لأن جعفر لم يخش أو لم يقل أنه خشى
أن يغضبه هو أيضا ، فقد كان يجب أن يرتبط اسمه بأسرة خالته •
وقبل أن يجيب أحمد ، خرج مصطفى باشا من غرفة التحقيق ، وعلى

وجهه فرحة متحفظة ، وشخص أربعتهم إليه ، وهو يقترب منهم ،
حتى بلغهم وقال :

—مبروك يا أحمد ♦♦ لقد حفظ التحقيق لعدم كفاية الأدلة
ولكن ♦♦

وقال أحمد :

ولكن ماذا ؟

— أظن أن الأمن العام سيظل متحفظا عليك فترة أخرى ♦

وأطرق أحمد ، ووجم السيد وحسام ، وقال جعفر :

— المهم يا سعادة الباشا ♦♦ هل النيابة أمرت بالافراج ؟

فقال الباشا :

— نعم ♦

فقال جعفر :

— ألف شكر ♦♦ لا تخف يا أحمد ♦♦ كل شيء سيكون على

ما يرام ♦

وقال أحمد في ثقة :

— نعم ، أعرف ♦♦ كل شيء سيكون على ما يرام ♦

واقترب الضابط الذى كان جالسا الى جانب غرفة التحقيق ،
وأمر الشرطى خارس أحمد أن يتبعه والسجين ، وفي صمت مشى
الموكب حتى بلغ الباب الخارجى ، ووقف الضابط أمام سيارة ذات

صندوق كبير مغطى بالقماش ، وقف الـركب خلفه ، وتقدم الشرطى الى باب الصندوق الخلفى ، ووقف بجانبه ناظرا الى أحمد الذى صعد فى سكون درج السيارة ، وجلس فى هدوء واطمئنان ، وجلس الشرطى الى جانبه ، وصعد الضابط الى جانب السائق ، وأُشـرد أن يـسير ، وانطلقت السيارة ، وثبتتها عيون الثـبان الثلاثة ، حتى غابت عن الأنظار ، فأفاقوا الى وقفـتهم ، وسارعوا الى سيارة حسام يركبونها صامتين ♦

(٣٠)

دخل انشبان الثلاثة القصر ، فوجدوا وصفى باشاً جالساً في
البهو منكس الرأس ، ووجدوا الاضطراب يسود القصر جميعاً ،
حتى لم يلحظ أحد دخولهم ، على رغم الأنباء المهمة التي يحملونها ،
ولم يرهم وصفى الا حين اقترب ابنه منه يسأله :

— أبى ، ماذا حدث ؟

وانتبه وصفى الى ابنه ورفع اليه عينين ، رأى جعفر فيهما آثار
اضطراب وحيرة ، ولو أنعم جعفر النظر ، ولو كان رأى أباه ييكنى
قبل اليوم ، لأدرك أن ما بعينى أبيه آثار دموع ، ولكنه لم يلحظ
شيئاً من هذا ، وانما شغله أبوه بسؤاله :

— ماذا فعلتم ؟

وأنهى جعفر الى أبيه ما يحمله من أنباء ، فقفز وصفى عن
كرسيه ، وهو يقول لابنه :

— سببر حالتها خطيرة ، فاسألوا الأطباء عما يجب أن يقال
لها ، وما لا يجوز أن يقال ، وأنا ذاهب الآن الى وزير الداخلية •

وخرج وصفى مسرعاً ، وصعد جعفر وحسام الى الطابق الأعلى

فوجدوا باب سهر مقفلا عليها ، أو لا يكاد يقفل ، فالخدم داخلون خارجون منه ينفذون أوامر الأطباء في وجوم وسرعة واضطراب ، فاختار الشابان مكانا لا يعوق الأرجل المتسارعة ، وجلسا في البهو ، وبعد حين خرجت هناء من حجرة أمها وهي تقول :

— ألم يأت الأكسوجين ؟

وسارع إليها حسام يسألها :

— هناء ، هل أستطيع أن أعمل شيئا ؟

وفي غمرة الخطر المرفرف في القصر نسي الاثنان ذكرياتهما ، والتقيا على هذه الأحداث المحيطة بهما ، ولكن هناء لم تستطع رغم هذا أن تمنع هذه الحمرة من الخجل أن تصعد الى وجهها ، دون أن يكون لها تأثير في استئنافها الحديث مع ابن خالتها وكأنها لم تصرع آماله .. لم تتلعثم رغم اللفظة التي رأتها في حديثه إليها .. لهفة محب لم تستطع أن تختفي في جلال الموقف الذي يجمعها ، محب يصفح عن حبيبته ، ويهفو إليها ، ويأمل أن تقبله أملا لا يشوبه ذكريات زواجها من غيره .. في لحظة عابرة رأت هناء في عيني حسام صفحا وحبًا ، وفي لحظة عابرة رأى حسام في عيني هناء اعتذارا واشفاقا .. واقبالا .. لحظة أومضت في الحوالك التي تحيط بهما ، ثم عادا الى الدوامة التي تصخب حوليهما ، قالت هناء :

— ماذا فعل أحمد ؟

فأنبأها حسام متلاحق الأنفاس ، وطلب اليها أن تسأل الأطباء ان كان يمكن أن يبلغا خالته •• وجمعهما الخطب ، وتبادلا جملا متقطعة عما يجب أن يفعلاه •• دارت هذه الجمل عن المرض وعن السجين ، وأحس حسام من هذا الحديث القاتم اشراقا ينساب الى نفسه ، وملاه فرحا أن مشاعر متحدة تجمعهم وهناء في أحداث واحدة ، كلاهما مهتم بها • وطلبت اليه هناء آخر الأمر أن يتعجل أنبوبة الأكسوجين فسارع يثب السلم والفرح يغمر نفسه ، ويزجر هذا الفرح عن نفسه أنه غير خليق به أن يفرح ، وخالته أم هواء تنتزع أنفاسها انزاعا ، وأحمد ملقى في السجن ، وتنحصر موجة الفرح هونا لتفسح مكانا لبعض شفقة ، أو بعض اشفاق ، ثم ما تلبث موجة الفرح أن تطغى مرة أخرى هازئة بما يجب أن يحسه في لحظته تلك ، ساخرة مما تريد الظروف أن تفرض عليه من احساس ، محطمة كل ما يحاول أن يقف في طريقها من عقل أو منطق أو مشاعر غير الحب والفرح بهذا الحب •

* * *

كان مرض سهير. أقوى حجة في يد وصفى حين قصد الى وزير الداخلية ، فما زال به حتى أصدر أمرا بالافراج عن أحمد ، وسارع وصفى الى السجن ، ليصحب أحمد الى البيت • وعلى باب السجن قال أحمد في هدوء ووثوق :

— عمى ، انى أشكرک ، ولكن لى رجاء عندک ؟

وقال وصفى باشا :

— اركب أولا يا أحمد ، وقل رجاءك فى السيارة •

ولم يحفل أحمد اضطراب عمه ، بل قال فى هدوء :

— فوزى •

وقطب وصفى جبينه ، فما كن ينتظر أن يسمع هذا الاسم
الآن . ومن أحمد ، وفى هذا المكان ، وانتزعته الدهشة هنيهة من
اضطرابه ليقول :

— ماله ؟ !

— معتقل ، وأبوه مشلول •

ونظر وصفى فى عينى أحمد بانعام ، وقد ازدادت الدهشة على
وجهه ، يخالطها اعجاب واكبار ، ولكنه عاد يسأل فى تشكك :

— أما يزال صديقك ؟

— أتظن أنه يمكن أن يكون صديقى ؟

وآفاق وصفى الى الاجابة ، وأصبحت نظرته الى أحمد اعجابا
خائفا ، وازداد تحديقا فيه ، وطالعه معارف سهير من وجه أحمد ،
فانتفض جازعا وقال :

— طيب .. اركب .. اركب الآن يا أحمد .

— ولكن يا عمى أتعدنى ؟

— يا أخى أمك مريضة جدا .. أسرع .

واضطرب احمد لهذا النبأ ، وأسرع يركب السيارة ، ولم ينتبه أنه سبق عمه فى الركوب ، وركب وصفى ، وأمر السائق ان يسرع الى القصر .. وفى الطريق راح أحمد يسأل عن تفاصيل مرض أمه ، ووصفى يجيبه ذاهلا ، حتى إذا لم يجد أحمد أسئلة أخرى ، غاص الى نفسه .. أتموته أمى ؟ .. أأكون أنا قاتلتها ؟ .. أى حياة سألقاها من بعد ؟ .. حذار .. حذار أن أجر على نفسى الخسران فى دوامة هذه الأفكار .. ان الموت والحياة بيد الله .. الرحمة يا رب .. نجها يا رب .. أأطلب منه نجاتها لأننى أريدها ؟ .. أم لأننى لا أريد أن أكون أنا قاتلتها .. انى على الحالين أناانى .. فأنا هى انباعت فى هذا الدعاء على أية حال .. أهذه هى الانسانية التى أريد أن أبلغ فيها شأوا ؟ وماذا بيدي ؟ .. كيف أسيطر على هذه الأفكار التى تمور برأسى ؟ .. نعم انى أستطيع ، ونظر الى وصفى وقال :

— أنا لن أذكرك بفوزى ثانية يا عمى .

ودهش وصفى هنيهة ، ثم بدا وكأنه قدر ما يعتمل بنفس الشاب ، فقال له فى ثقة :

— لن تحتاج الى ذلك .

وبلغت السيارة باب القصر ، وجرى أحمد مليوفا الى حجره

أمه ، وفتحها ودخل ، فوجد أمه تلتف أنفاسها من كمامة متصلة
بأنبوبة موضوعة الى جانبها ، وما ان رآته حتى أزاحت الكمامة
عن فمها وهتفت :

— أحمد .. ابني *

وارتمى أحمد على صدرها يقبلها في كل مكان ، وراحت الأم
تجذب أنفاسها ، وتقبل ولدها لحظات ، ثم لم تستطع ، وأحس
أحمد ضعفها ، فسارع يبتعد عن وجهها ويعيد الكمامة اليها ، وهو
راكم لا يزال بجانب سريرها ، وأحس أحمد يدا رقيقة تربت ظهره ،
وسمع صوت أبيه يقول :

— الحمد لله على السلامة يا أحمد *

ونظر أحمد فوجد أباه جالسا على طرف سرير أمه ، ينظر اليه
في حذب ، فوضع رأسه على ركبته ، وانطلق في بكاء صامت ،
تنسكب دموعه من فؤاد جازع حزين * ورأت سهير ما فعل ابنها ،
واستروحت المنظر .. وهدأت أنفاسها قليلا ، وراحت في سبات
عميق *

(٣١)

أيام قليلة مرت .. أيام قليلة استطاعت فيها سهير أن تنعم بهذه
الاشراقة التي أصبحت لا تفارق وجه ابنها ، فتبعث في نفسها
راحة تعينها على آلامها ، واستطاعت فيها أن ترى اقبال ابنها على
أبيه ، اقبالا فيه أشفاق ، وفيه حب ، وفيه تمهيد للعذر ، وتقدير
للطبائع ، وكادت سهير ترى خوالج ابنها الجديدة مجسمة أمامها ،
ينبض بها قلب كبير بعيد عن الأنانية . وسمعت سهير ابنها يدعو الله
أن يشفيها .. سمعت الله يهتف به أحمد ، فخيل اليها أن قلبه هو
الذي خفق بالهتفة خفقا شديدا ، كان أعلى دويا من حركة الشفاه
واللسان .

ورأت سهير حسام لا يكاد يفارق بيتهم ، ورأت هناء تقبل عليه
في غير ما تكلف وفي ود ، ورأت في عيني بنتها معاني اطمأنت لها
نفسها ، وهذا لها هذا اضطرب الذي يعصف بها عصفا جائحا ..

أيام قليلة .. رأت سهير فيها سليمان يقبل على أحمد اقبال أب ،
ويهتم بأمره في جذب ، ويلتقي وایام على الطريق الذي سار فيه
أحمد من جب .. جب بذل سليمان غاية جهده ليضع معاله ، ويظهر
معارفه ، ولم يكن لسليمان جهد كبير في هذا الشأن ، ولكنه على
أية حال يحاول ، وسهير تحبس بمحاولته .

أيام قليلة .. رأت فيها سهر البيت كما كانت تتمنى أن تراه ..
أو كما كانت تريد أن تصنعه .. وانها لتفكر أنه كان خليقا بانيت
أن ينشأ ويظل على ما هو عليه الآن لو كان سليمان هذا شخصا
آخر . نعم وصفى الذى كان لا يكاد يغيب عن القصر لحظة فى هذه
الأيام الأخيرة .. وصفى هذا .. ولكن ماذا يفيد الآن .. وما البأس
بنا الآن .. أنا لا أتمنى شيئا اليوم الا أن أشفى .. فهل أشفى ؟

ولم يشأ القدر أن يحقق هذه الأمنية ، فماتت سهر ، وكان
موتها نعد حين قصير من خروج الطبيب المعالج ، باسم الثغر ،
يهنى الأبرة والقصر بقرب شفاء المريضة العزيزة .. لم يكن الطبيب
خاطئا كل الخطأ ، لقد شفيت من آلامها جميعا .. من آلام نفسها
ومن آلام جسمها ، وانتقلت روحها إلى علين لى ملك لا يمنع
الظل لائذا ، الرحمة الكبرى وراء سمائه ، تلف التقى فى سبيلها
والمعاصى .

أقبل المعزون ، ووقف سليمان وأحمد ووصفى يستقبلونهم ،
لا يكاد واحد منهم أن يقيم أوده من الحزن ، وكان وصفى أشدهم
ألما ، وأكثرهم اضطرابا ، لأنه الوحيد بينهم الذى لا يستطيع أن
يتيح لألمه طريقا يخرج منه إلى الحياة .. كانت الدموع تموز فى
عينيه فيحبسها ، فالعرف والتقاليد سياج حولها أن تسيل ، وترحم
الدموع نفسه .. إنها دموع سنوات كثيرة .. إنها ذكريات الشباب
الأولى ، والساعات المشرقة فى حياته .. إنها دموع تحمل فى رقرقتها

صور الماضى كلها ، والماضى قطعة من نفسه ، بل إنه عند وصفى
 فى موقفه هذا النفس كلها .. وينجأ وصفى إلى القصر يبحث فيه عن
 مكان يستتر دموعه المائجة فلا يجد ، ويخرج من القصر إلى الحديقة ،
 وينفض المكان بعينه ، فيرى جميع من فى الحديقة مشغولا بأمر
 المأثم ، وكما كن يفعل فى الأيام الخوالى ، يسير الهوينا فى الماشى
 حتى يبلغ السلم .. السلم القديم فيتنفض المكان مرة أخرى دون
 أن يفكر فيما يفعل ، ثم بنزل السلم وثبا ، كأنه ذلك الشاب الذى
 كانه منذ حين بعيد .. بعيد غاية البعد ، وما يكاد وصفى يصل إلى
 المقاعد التى شهدت قطعا كثيرة غالية من حياته ، ما يكاد حتى
 يرتقى إلى أحدها ، وينخرط فى بكاء على النسيج ، يستره القرآن
 الذى يتصاعد من المأثم أن يبلغ إلى أذن ، ويحيط به هذا القرآن
 نفسه فى حنان واشفاق وسمو .

كان فوزى بين المعزين ، وقد انتهر فرصة انفراد فيها أحمد ، وجاء
 ليجلس إلى جانبه :

— البركة فيك يا أحمد .

ونظر إليه أحمد ، ثم لم يجب ، فقال فوزى :

— خرجت بالأمس من المعتقل ، وقد جئت أعزيك وأشكره ، فقد
 عرفت أنك رجوت وصفى باشا من أجلى ، ولولاه لكنت معتقلا حتى
 الآن .. لقد كنت نبيليا أحمد ، وكنت رجلا .

وقد أحمد في هدوء وفي صوت خفيض :

— أقبل عزاءك مع الشكر ، أما شكرك فلا أقبله بحال من الأحوال .
فقد سعت لإخراجك اشفاقاً على أبيك المريض ، وأمك التي أصبحت
بلا عائل إلا أنت ، وإن رأيى فيك الذى قلته لك يوم طلقت هباء
يزداد عمقا فى نفسى .. وإن وصفك لى بالنبل أمر آخذة أنا عنى
محمل الهجاء لا الحمد ، فمديح مثلك مسبة للممدوح .. وما زلت
أرجو ألا أراك أبدا بعد اليوم .. أشكرك .

وقام أحمد عن فوزى فى نفس الهدوء الذى كان يلقي به هذا
الحديث .. ولم ينظر أحمد وراءه ليرى فوزى وهو ينصرف ، ولكنه
أحسن على رغم قسوته أنه يسير فى الطريق التى يريد لها لنفسه .

انتهت الليلة ، وبحث أحمد عن أبيه فى السراقد فلم يجده ،
فصعد إلى الدور الأعلى من القصر ، وقصد إلى حجراته ، ولكنه
لم يجده ، فعجب بعض الشيء ، وقصد إلى غرفة نومه هو ، وراح
يخلع ملابسه ، وما إن استبدلها بملابس النوم ، حتى جلس قليلا
مطرقا ، ثم قام فى هدوء خارجا من الغرفة ، قاصدا إلى غرفة أمه ،
يسير إليها وكأنه يتوقع أن يجدها .. وفتح أحمد باب الغرفة
فطالعه ظلام زاده قتاما أن أغلق الباب من خلفه ، وقصد أحمد
إلى حيث كان رأس سهير ، وركع إلى جانب السرير ، وغمر وجهه
فى الوسادة ، ولكن صوت نثييج ما لبث أن علا إلى أذنه يأتى إليه
من قريب ، ورفع أحمد رأسه وأدار عينه إلى حيث النثييج ، ثم
مد يده فلمست كتفا عرفها ، وزحف أحمد إلى جانب أبيه ، واحتضنه
بذراعه ، وربت كتفه ، والتفت إليه أبوه ، وكانت عينا أحمد
قد تعودتا الظلمة ، فاستطاع أن يرى على ضوء شعاع ينسكب

من زجاج الباب وجه أبيه مغطى بالدموع ، واضطرب أحمد
لدموع أبيه العسيرة ، وازداد اضطرابا حين وجد أباه يرتدى بين
أحضانها ، وكأنما هو الابن فقد أمه .. اضطرب أحمد هنيهات ،
ثم تمالك نفسه ، وسكن جأشه ، واحتوى أباه بذراعيه في حنان ..
والثقت الدموع .. !

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ١٥٣٤/١٩٧٧
الترقيم الدولي ٠٦٠ - ٢٨٦ - ٩٧٧ ISBN

مطبعة نهضة مصر
الغزالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الغزالة - القاهرة

